الواضح في التفسير

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الخامس

سورة المائدة - سورة الأنعام

مركز الغدير
للدراسات والنشر والتوزيع

الواضح في التفسير

مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع السيد عباس الموسوي - بناية مركز الغدير
تلفاكس: ٥٥٨٢١٥ / ٠١ — ٥٥٢٢٦٢ / ٠١ خليوي: ٦٤٤٦٦٢ / ٠٣
ص.ب.: ٥٠/٢٤ - الرمز البريدي: ١٠١٧ - ٢٠١٠ - برج البراجنة
www.alqadir.org
www.alqadir.net

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

الواضح في التفسير

السيد عباس علي الموسوي

الجزء الخامس

سورة المائدة - سورة الأنعام

مركز الغدير

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المائدة

وآياتها عشرون ومائة

مدنية كلها إلا آية «اليوم أكملت لكم دينكم» فإنها نزلت في حجة الوداع

بين يدي السورة

تبتدىء السورة بذكر الأحكام التي تنظم حياة المسلمين في الدولة الإسلامية فتذكر جملة من المحرمات ثم تتعرض لأحكام الصيد وطعام أهل الكتاب والزواج من الكتابيات والوضوء.

ثم تحكي قصة بني إسرائيل وكيف خانوا وقصة النصارى وكيف نسوا حظاً مما ذكّروا به وعلاقتهم بالمسيح وكيف ألّهوه فكفروا...

ثم تعود إلى قصة موسى عليه السلام مع قومه وكيف تمرّدوا على أمره وعصوه وكيف عاقبهم الله في التيه أربعين سنة.

وتذكر السورة قصة ابني آدم عنواني الخير والشر والصراع بينهما الباقي عبر الزمن إلى آخر الدهر.

تذكر المحاربة وأحكامها كما تتناول القصاص. وأحكام الرّدة والأقوال الظالمة لليهود في الله وأنه فقير ويده مغلولة.

ثم الأمر بتبليغ ما أُنزل إلى الرسول ﷺ وتعيين الخليفة من بعده وتعود السورة إلى بيان أحكام اليمين.

تسميتها

سميت سورة ﴿المائدة﴾ لورود قصة المائدة التي طلبها الحواريون من المسيح عليه السلام كمعجزة له تدل على صدق ما يدّعيه فيؤمنوا به وباعتبار غرابتها وما فيها من عجائب سميت السورة باسمها تسمية للكل باسم الجزء...

فضلها

١ - في كتاب (ثواب الأعمال) بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة المائدة في كل يوم خميس لم يلبس إيمانه بظلم ولم يشرك بربه أحداً.

٢ - وعن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: نزلت المائدة كملاً ونزل معها سبعون ألف ملك.

سورة المائدة

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَوۡفُواْ﴾: الوفاء بالشيء: الإتيان به وافياً كاملاً لا نقص فيه.

﴿بِٱلۡعُقُودِۚ﴾: العقود: جمع عقد وأصله في اللغة الربط والشدّ بإحكام تقول: عقدت الحبل بالحبل ثم استعيد للمعاني فأصبح لكل التزام بين اثنين.

﴿أُحِلَّتۡ﴾: الإحلال: هو الإباحة وهو الحلال، والحل: وهو ما يتساوى طرفاه ولا يكون لفعله مزيّة على تركه.

﴿بَهِيمَةُ﴾: البهيمة: ما لا عقل لها سميت بذلك لإبهام أمرها من جهة عدم نطقها وفهمها.

﴿الْأَنْعَامِ﴾: الأنعام: جمع نعم: وهي الإبل والبقر والغنم ويدخل الوحشي فيها.

﴿يُتْلَىٰ﴾: يُقرأ.

﴿مُحِلِّي﴾: من أحلّ الشيء: أي أباحه ضد حرّمه.

﴿الصَّيْدِ﴾: مصدر صاد: وهو تناول ما يُظفر به مما كان ممتنعاً.

﴿حُرُمٌ﴾: جمع حرام: وهو المُحرِم.

﴿تُحِلُّوا﴾: من الحلال: وهنا يراد أن لا تجعلوها مباحة لكم.

﴿شَعَائِرَ﴾: جمع شعيرة مأخوذ من الشعور والإعلام - والمراد معالم الدين - وهنا يراد بها مناسك الحج.

﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾: اسم للشهور التي يحرم فيها القتال وهي أربعة ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، رجب.

﴿الْهَدْيَ﴾: ما يهدي المُحرِم في الحج والعمرة من الأضحية.

﴿الْقَلَائِدَ﴾: جمع قلادة: وهو ما يعلق في العنق، والمقصود هنا ما كان يعلق في عنق الأضحية لتميّزه بأنها لذلك...

﴿آمِّينَ﴾: قاصدين، من أمّ الشيء: إذا قصده.

﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾: هو الكعبة التي يتوجه إليها المسلمون في صلاتهم وغيرها.

﴿يَبْتَغُونَ﴾: يطلبون..

﴿فَضْلًا﴾: الفضل: الزيادة، والمراد به هنا ما يربحونه في التجارة أو الثواب.

﴿وَرِضْوَانًا﴾: قال الراغب: الرضوان: الرضا الكثير، ورضوان الله على العبد: أن يحول بينه وبين عقوبته.

﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: لا يكسبنكم، لا يحملنكم.

﴿شَنَآنُ﴾: بُغض شديد.

﴿صَدُّوكُمْ﴾: الصد: هو المنع.

﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: هو المسجد المحيط بالكعبة الشريفة وسمي حراماً لحرمة كثير من الأمور التي تقع في غيره.

﴿تَعْتَدُوا﴾: الاعتداء: مجاوزة الحق.

﴿وَتَعَاوَنُوا﴾: من العون والمعاونة: وهي المظاهرة، والتعاون: التظاهر أي المساعدة.

﴿الْبِرِّ﴾: البر: التوسع في فعل الخير.

﴿التَّقْوَىٰ﴾: من وقى، والوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يخاف.

﴿الْإِثْمِ﴾: المعصية، وقيل: ما يعود ضرره على الفاعل فحسب بخلاف العدوان فإن ضرره يعود أيضاً على غير الفاعل.

﴿وَالْعُدْوَانِ﴾: تجاوز الحد بالظلم والاعتداء.

التفسير

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ النداء للمؤمنين من باب التشريف لهم والتكريم وأنهم المأهلون للقيام بهذا الأمر الجليل...

والوفاء بالعقود: هو الإتيان بها تامة كاملة بدون نقيصة على الوجه الذي عقدت عليه، وكما يجب أن تكون عليه.. والعقود: مفهوم عام يشمل كل التكاليف الإلهية التي أوجبها الله على الناس وألزمهم القيام بها كالصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد وغيرها.. كما تشمل كل الالتزامات التي أبرمت بين

الإنسان وأخيه الإنسان كعقود البيع والمعاهدات والصلح والنذور والعهود والأيمان شرط أن تكون هذه مما لم تحلّل حراماً أو تحرّم حلالاً. . .

﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يستفاد منها قاعدة عامة - كما استفاد من ذلك الفقهاء - وبنوا عليها الكثير من الفروع واحتجوا بها على كل عقد، إحتال بعضهم للتخلص منه فألزموه بإتمامه بموجب هذه الآية. . .

ويمكن أن يستفاد بقرينة السياق أن محط النظر والهدف من ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ كل ما أحلّه الله وحرّمه، وأن على الإنسان أن يلتزم به ويدخل ضمنه ما يلتزمه أو يتعهد به على نفسه أو لغيره. . .

وإذا فسّرنا الآية بهذا المعنى العام يدخل ضمنها كل الأقوال الأخرى التي تضيّق هذا المفهوم أو تحصره ببعض الأمور دون البعض الآخر.

﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أحلّ الله لكم أكل الأنعام - طبعاً بعد ذبحها وتذكيتها - وهي الإبل والبقر والغنم إلاّ ما سوف يذكره الله في التحريم فيما بعد، كالميتة والدم ولحم الخنزير، وهذه هي الصورة الأولى المستثناة من حلّية بهيمة الأنعام - وستأتي الصورة الثانية.

وإضافة البهيمة إلى الأنعام إضافة بيانية كخاتم حديد - أي من حديد - وبهيمة من الأنعام. . .

﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ هذه هي الصورة الثانية المستثناة من جواز أكل بهيمة الأنعام وهي حُرمت أكل المصيد حال الإحرام.

فيكون قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ استثناء آخر من قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي وإلاّ الصيد وأنتم محرمون.

ومن المقطوع به أن الصيد على المحرم حرام وأكل المصيد أيضاً حرام. . .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ لله الحكم والتشريع هو الذي يحلّل وهو الذي يحرّم لا يُعترض عليه ولا يقال لماذا وكيف؟ لأنه الخالق والعالم بالمصالح والمفاسد يشرّع لهذا الإنسان ما يصلحه وينفعه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ تعددت أقوال المفسرين في تفسير ﴿شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلى سبعة أقوال: بعضها بدون دليل ليس وراء اختياره إلاّ الاستحسان المحض...

والأقرب إلى السّياق أنه سبحانه بعد أن عظم حرمة الحرم ومُنع من الصيد فيه نهى المسلمين أن يتعدّوا مناسكه ومعالمه فيهتكوا حرمتها ويضيّعوا كرامتها...

﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ شعائر الله هي معالمه ومناسكه التي يقوم بها الحاج كالطواف والسعي ورمي الجمار وغيرها من الشعائر التي بها يتقرب المؤمن من ربه فإن على المسلم أن يحفظها ويرعاها ويصونها ويؤدي واجباتها دون هتك لها أو إخلال بالقيام بها أو غيرها مما يسقط حرمتها ولا يصون كرامتها.

﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ ولا تحلّوا الشهر الحرام: أي تهتكوه فتقاتلوا فيه ابتداءً منكم.

ومعلوم أن الشهر الحرام أريد به جنس الأشهر الحرم وهي الأشهر الأربعة التي حرّم الله فيها القتال، وهي: ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، رجب.

فهي أشهر يمنع فيها القتال والحرب ابتداءً من قبل المسلمين وأمّا إذا دهم العدو بلاد المسلمين وشنّوا عليهم الحرب جاز للمسلمين ردّ هذا الاعتداء ودفع هذا العدو...

وينبغي أن يلاحظ أن هناك قطعة من الأرض آمنة، وهي الحرم المكي فمن دخله كان آمناً حتى لو كان جانياً جناية يستوجب عليها الحد أو القصاص، ثم التجأ إلى الحرم لا يجوز إخراجه بالقوة فيأمن كل الناس في تلك البقعة المباركة كذلك يلاحظ أن هناك قطعة من الزمن يأمن فيها الإنسان فيسبح في الأرض بدون أن يتعرض له بأذى فهذه أمكنة آمنة وأزمنة آمنة...

﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ وهو ما يساق ليذبح أو يُنحر في مكان النسك عمرة أو حجّاً، فإن هذه الأضحية لا يجوز التعرض لها بسوء لأنها سيقت لأجل هدف رباني ـ وهو التقرب منه ـ وطالما أنها تحوّلت إلى الله عندما ساقها الحاج أو المعتمر

فيجب أن تصان من كل أذى لما يُشكِّل هذا الاعتداء عليها من اعتداء على قيم السماء، ويدخل في جملة المعاصي الكبيرة التي حرّمها الله وأوعد عليها بالعقاب العظيم..

﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ وهي البُدُن التي كانت تُقلّد بالنعال أو لحاء الشجر علامة على أنها قد أصبحت هدياً فلا يتعرض لها أحد بأذى، وقد خصّها الله بالذكر لأهميتها من حيث أنها أشرف الهدي...

وقيل: إن النهي تعلق بنفس القلائد زيادة في النهي عن التعرض لها لأنه إذا نُهي عن نفس القلادة أن تحل أو تمس فالنهي عن الهدي نفسه يكون أغلظ وأشد...

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ وهذا منع وحظر على المسلمين أن يتعرضوا لأحد قصد بيت الله الحرام لأداء حج أو عمرة... إن هذا القصد الشريف الذي ارتحل من أجله قاصد البيت الحرام يحتّم على كل الناس أن لا يعترضوا سبيله فيمنعونه عن أداء واجبه أو يقاتلونه أو يؤذونه بشيء...

كل من قصد بيت الله الحرام لا يجوز اعتراضه بصدّ أو منع أو قتال لأن هدفه البيت الحرام يطلب أجراً وثواباً ورضاً منه، أو يفسّر الفضل كما هو مذهب بعضهم ـ بأرباح تجارية يقصدها ويريد تحقيقها ويكون الرضوان هو طاعة الله وتحقيق رضاه في زيارة بيته الحرام...

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ فيما تقدم حرّم الله الصيد ـ صيد البر ـ طالما أن الإنسان مُحْرِم أو في الحرم، وهنا يبيحه طالما أنه قد انتهى من إحرامه وأحلّ منه وخرج من الحرم.

والأمر هنا يحمل على وجه الإباحة ـ الأمر بالاصطياد ـ لأنه ورد بعد الحظر والمنع عنه فكان إباحة له ورفعاً لتلك الحرمة كما هو معلوم في العرف وأصول الفقه...

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ وهـــــذا

نهي آخر عن صفة ذميمة لا يريدها الله لعباده الصالحين... لا يحملنكم بغض القوم الذين كانوا قد منعوكم عن المسجد الحرام فيما مضى أن تقابلوهم بالمثل فتمنعونهم عن المسجد الحرام وزيارته وأداء ما يريدون من مناسك...

إن بغضكم لهم بسبب ما ارتكبوه بحقكم حيث منعوكم فيما مضى عن المسجد الحرام «عام الحديبية» لا يجب أن يكون ذلك دافعاً لكم أن تقابلوهم بالمثل فتمنعونهم اليوم وأنتم القادرون على ذلك...

إنها تعاليم السماء لا تعطي حق الانتقام والثأر، بل تعطي العفو والإغضاء والتجاوز عمّا مضى خصوصاً إذا كانت تلك خطوة لإصلاح الغير وردّه إلى الله أو كان فيها مصلحة إسلامية تنفع وتفيد...

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أصبحت هذه الآية قاعدة تعتمد في كل خير، إنها تدعو الناس إلى اللقاء على كل الأعمال الطيبة.. تدعوهم لكي تتكاتف الأيدي وتلتقي القلوب وتتوحد الجهود في سبيل إنجاح كل عمل مبارك يحبه الله ويكون فيه النفع للعباد.

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ شعار يرفعه كل المصلحين وكل دعاة الخير والعمل الصالح... فليكن اللقاء على كل ما ينفع ويفيد ويحقق رضا الله ويصون هذه النفس من الهلاك...

إذا كان ﴿ٱلْبِرَّ﴾ لفظ يشمل كل الخيرات والحسنات والأعمال النافعة والمفيدة، وإذا كانت كلمة التقوى تحمل في مدلولها الإيجابي صيانة النفس وحملها على دفع الشر عنها والأذى، أقول: إذا كان البر والتقوى يحملان هذه المعاني فما أجدر أن يتوجّه الأمر إلى هذا الإنسان أن يكون متعاوناً مع الآخرين من أجل تحقيقهما وإيجاد مضمونهما.

وفي مقابل هذه الجهة الإيجابية التي أمر الله بها، هناك جهة سلبية نهى الله عنها، إنها تقابل الأولى وتضادها وهي:

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ اتركوا تعاونكم على المعاصي والاعتداء على الناس... دعوا المعاصي وارفضوا اللقاء عليها... تخلّوا عن كل معصية ولا تجمعكم عليها عصبية أو هوى أو أي شيء يشدُّكم نحوها...

إنه نهي عن الاجتماع على الانحراف والمعصية والتمرد والبعد عن الله كما يفعله أهل الجاهلية والبعيدين عن الدين...

هذه قاعدة عامة تندرج تحتها الكثير من الجزئيات.

فليلاحظ هذا المعنى وليؤخذ منه المفاهيم العظيمة التي تدفع بالأُمة لكي تلتقي على كل ما ينفعها وتبتعد عن كل ما يضرها...

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ احترزوا من عذابه بترك كل ما نهى عنه والعمل بكل ما أمر به ويدخل فيه كل ما نهانا عنه فيما تقدم من المناهي...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هذا كالتعليل لما تقدم، وهو تهديد ووعيد لمن عصاه، فإنه سبحانه شديد العقاب لمن لم يتقِه وليس أحد بقادر على تحمّل عذاب الله وعقابه.

وأظهر سبحانه اسم الجلالة اهتماماً بالأمر وتذكيراً لهذا الإنسان بالله مالك العالم، وقاهره، وصاحب القوة المطلقة التي لا يعجزها شيء...

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿الْمَيْتَةُ﴾: الميتة من الحيوان: ما زالت روحه بغير تذكية.

﴿وَالدَّمُ﴾: السائل الأحمر الذي يجري في عروق الكائن الحي.

﴿الْخِنزِيرِ﴾: الحيوان الكريه المنظر الممسوخ.

﴿أُهِلَّ بِهِ﴾: الإهلال: لغة رفع الصوت، وما أهلّ لغير الله به: ما ذكر عند ذبحه غير اسم الله.

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾: التي تموت بالخنق بشد حبل في عنقها حتى تموت أو ما يشبه ذلك مما يحبس النفس فتموت.

﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾: الوقذ: ضرب الشيء حتى يسترخي ويشرف على الموت، وفلان وقيذ: أي مثخن ضرباً.

﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾: التي تقع من مكان عالٍ كجبل أو في بئر فتموت.

﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾: ما تموت بنطح غيرها وفعيل هنا بمعنى مفعول: أي المنطوحة فتموت بسبب النطح.

﴿ٱلسَّبُعُ﴾: السبع: بضم الباء يقع على ما له ناب من السباع ويعدو على الناس والدواب فيفترسها كالأسد والذئب والنمر والفهد وغيرها.

﴿مَا ذَكَّيْتُمْ﴾: ذكاة الحيوان: ذبحه على الوجه الشرعي.

﴿ذُبِحَ﴾: أصل الذبح: شق رقبة أو ـ عنق ـ الحيوان، والذبح: هو فري أوداج الحيوان مع شروط أخرى.

﴿ٱلنُّصُبِ﴾: صنم أو حجر كان أهل الجاهلية ينصبونه وتذبح عنده الذبائح وجمعه أنصاب.

﴿تَسْتَقْسِمُوا۟﴾: من القسم: وهو إفراز النصيب ويقال: قسّمت الميراث أو الغنيمة: إذا فرّقتها على أربابها، واستقسمته: سألته أن يقسم.

﴿بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾: الأزلام: سهام من خشب يقترعون بها.

﴿فِسْقٌ﴾: الفسق: الخروج عن طاعة الله.

﴿يَئِسَ﴾: اليأس: انقطاع الطمع.

﴿تَخْشَوْهُمْ﴾: الخشية: خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه.

﴿أَكْمَلْتُ﴾: كمال الشيء: حصول ما فيه الغرض.

﴿أَتْمَمْتُ﴾: تمام الشيء: انتهاؤه إلى حدٍ لا يحتاج إلى شيء خارج عنه ويقابله الناقص.

﴿ٱضْطُرَّ﴾: الاضطرار: الإلجاء...

﴿مَخْمَصَةٍ﴾: مجاعة.. لأن البطون فيها تخمص أي تضمر.

﴿مُتَجَانِفٍ﴾: مائل لمعصية، وأصل الجنف: ميل في الحكم.

﴿لِإِثْمٍ﴾: الإثم: كل ذنب ومعصية.

التفسير

هناك مسلّمات إيمانية تحكم المسلم في عقيدته وفي سلوكه منها..

١ ـ إن التحليل والتحريم بيد الله فله وحده حق هذا التشريع وهو مختص به لا يجوز لأحد الاعتداء عليه في هذه الخصوصية وحتى للأنبياء والرسل إلاّ ما أذن لهم به فيعود بهذا الإذن إليه ويرجع بالتالي عليه..

٢ ـ إن الله تعالى لا يحرّم ولا يحلّل إلاّ إذا كان في التحريم مفسدة وفي التحليل مصلحة لأنه العليم الحكيم الذي يضع الأمور مواضعها، ومن هنا كان كل ما أحلّه فيه مصلحة هذا الإنسان وسعادته وتكامله، كما أن في كل ما حرّم عليه مفسدة لهذا الإنسان ومضرة له وسقوط مريع فيما لو ارتكبه وقام به، وهذا الأمر ينطبق على الآية التي نحن بصددها ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ في هذه الآية الكريمة حرّم الله جملة من الأشياء المضرة بهذا الإنسان..

وطبعاً إسناد التحريم إلى الذات لا معنى له فلا بدّ من تقدير يناسب كل واحدة وهذا أمر يعرفه المتشرعة وينسبق الذهن إليه بمجرد إطلاقه كما ينسبق من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾[1] إلى حرمة النكاح وعلى كل حال فالمحرمات هي:

١ ـ ﴿الْمَيْتَةُ﴾: وهي ما مات حتف أنفه بدون أن تدركه التذكية أو كل ما لم يذكّ شرعاً فيدخل فيه ذبائح الكفار وأهل الكتاب...

---

(١) النساء/٢٣.

ويستثنى من الميتة ما لا تحله الحياة لأنه لا يصح أن تقع عليه التّذكية فلا يحرم الانتفاع به كما لا يحكم بنجاسته. . .

٢ - ﴿وَٱلدَّمُ﴾: وهو السائل الأحمر الذي يجري في عروق الحي فكلّه حرام لا يجوز أكله أو تناوله، وقد كانت عادة الجاهليين حشو المصارين به وشويه وتناوله فحرّمه الله مطلقاً سواء كان بهذه الطريقة أو بأي طريقة أخرى.

٣ - ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ وهذا من المحرمات القطعية في دين الإسلام وهو مقتضى هذا النص الشريف، وقد خصّ اللحم بالذات لأنه هو المقصود من هذا الحيوان ولكي يقطع الطريق على التأويل والتحوير، وأيضاً لبيان حرمته مطلقاً حتى لو جرت عليه مراسيم تذكية الحيوانات، فإنه يبقى حراماً. . .

٤ - ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ ما ذكر غير اسم الله عليه حين ذبحه فكأن رفع الصوت - الذي كالتسمية عندنا - كان باسم الأصنام والأوثان التي كانوا يعبدونها. . .

وللإسلام الحق في أن يمنع تناول ما ذكر عليه اسم الأصنام لأنها أوثان يرفضها الإسلام ويرفض من يتوجه إليها ولو بأبسط أشكال الخضوع والتواضع، فكيف يكرّس حقيقة باطلة ويتناول لحماً ذكرت عليه تلك الأصنام؟. . .

إن ذكر اسم غير الله على المأكول يتنافى وحقوق النعمة التي هي من الله حيث يسلب الله حقه وينسبه إلى غير مستحقه. . .

إن الإسلام يريد أن يضع الأمور مواضعها ويردّ الأمور إلى نصابها، والأمور المعنوية كالأمور المادية، فكما أن اللحم يصيبه التسمّم والفساد إن اتصل بمادة السم أو الفساد كذلك يتسمم معنوياً عندما يذكر عليه اسم اللات والعزة أو أي اسم غير اسم الله. . . إن ذكر اسم غير اسم الله يسمّم اللحم معنوياً فيمتنع المسلم عن تناوله بحكم الله وإرادته. . .

٥ - ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ وهي التي تموت بالاختناق سواء كان بشد حبل في عنقها أو وقوع رأسها بين شعبتين أو بضغط على عنقها حتى تموت أو غير ذلك من الأساليب والأسباب التي تفقدها الحياة خنقاً.

٦ ـ ﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾ وهي التي تضرب حتى تموت بأن يستند موتها إلى هذه العلة فتحرم. . .

٧ ـ ﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ﴾ وهي التي تسقط من شاهق سواء كان جبلاً أو بئراً وتموت من جرّاء ذلك.

٨ ـ ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ وهي التي تموت بسبب نطح غيرها لها.

٩ ـ ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي ما افترسه السبع وبقي منه بقيّة فإنه إذا مات مستنداً إلى ذلك حرم ما تبقّى منه ولم يجز أكله أو تناوله. . .

والسبعُ اسم جنس لكل حيوان وحشي يعدو على الإنسان، والحيوان كالذئاب والأسود والثعالب والضباع، وهكذا.

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾ هذا الاستثناء يرجع إلى جميع ما تقدم مما يقبل التذكية، فالمنخنقة والموقوذة والمترديّة وغيرها إذا بقيت فيها بقية من حياة وأدرك الإنسان تذكيتها بأن أمكنه أن يذبحها على الوجه الشّرعي فهي حلال لا إشكال في ذلك بمقتضى هذا الاستثناء، نعم لو لم يدركها حيث يستطيع تذكيتها حرّمت لصدق عنوان المنخنقة والموقوذة وغيرها عليها. . .

وفي الصحيح عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: كُلْ كلّ شيء من الحيوان غير الخنزير والنطيحة والمتردِّية وما أكل السبع وهو قول الله سبحانه: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ﴾ فإن أدركت شيئاً منها وعين تطرف أو قائمة تركض أو ذنب يمصع فقد أدركت ذكاته فكله.

ومثله روايات أخرى تدل على أنه إذا أُدرك الحيوان بأن كانت فيه بقيّة من حياة وأجريت عليه مراسيم التذكية يحلّ أكله. . .

١٠ ـ ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ حرّم سبحانه الأكل من الحيوانات التي ذبحت على النصب. والنصب:

هي الأحجار التي كانت منتشرة حول الكعبة ولها قدسيّة واحترام في نفوس

القوم فكان أهل الجاهلية يذبحون عليها ويلطخونها بالدماء فنهى الله عن هذه العادة السيئة التي تأخذ الأحجار - وخصوصاً النصب - التعظيم وتحتل من نية الذابح الشرف والتكريم فأسقط الله احترامها وانتزع من نفوس الناس كل قدسية لها بصيغة التحريم. . .

١١ - ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ وحرّم الله عليكم اللحم المقسوم عليكم بالأزلام.

وهي عادة جاهلية تدخل تحت عنوان القمار، يقتسم المتبارون بالأزلام لحوم الحيوان المراهن عليه، وطريقتها التي كانت شائعة ومتداولة وهي: قداح عشرة سبعة منها لها أسهُم وثلاثة لا أسهم لها فمن لم تخرج أسهمه كان عليه أن يدفع قيمة الحيوان المذبوح وهي الميسر.

وتفصيل الحديث أن الجاهليين كانوا يتراهنون في قسمة الحيوان بالأزلام وهي سهام عشرة سموها بأسماء، هي:

فالفَذُ له سهم والتوأم له سهمان والمسيل له ثلاثة أسهم والنامس له أربعة أسهم والحلس له خمسة أسهم والرقيب له ستة أسهم والمعلى له سبعة أسهم.

وأما السفيح والمنيح والوعد فلا أنصباء لها، وكانوا يدفعون القداح - السهام - إلى رجل يجيلها وكان ثمن الجزور على من يخرج لهم هذه الثلاثة التي لا نصيب له وهو القمار المحرم. . . فما أُخذ من الحيوان عن هذا الطريق حرم أكله وذلك ليقطع الطرق المؤدية إلى الفساد والتي لا تكون خالصة لله وتتنافى مع التوجه إليه أو ما يعتقده المسلم من إخلاص لله. . .

﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ ما حرمه الله مما تقدم إذا تناوله أحد أصبح فاسقاً خارجاً عن حدود الله ومتمرداً على أوامره. . إنه سبحانه حكَم بالفسق على من تعاطى مثل هذه المعاصي فأكل بعض هذه المحرمات. . .

وحمل بعضهم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ على خصوص الأخيرين من المحرمات ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ وعلل ذلك بالفصل بالاستثناء بين الأخيرين وما تقدم. . .

ولكن اللسان العربي وقواعد التخاطب يحكم برجوع ﴿ذَٰلِكُم﴾ إلى الجميع ويساعد ذلك ـ روحاً وحقيقة ـ أن المتعاطي لكل ما تقدم هو فاسق متمرد على أمر الله خارج عن حدوده وشرعه...

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ هذه بشرى للمؤمنين الذين كانوا يعيشون الخطر على أنفسهم والخوف على دينهم... إنها البشرى التي تُطمئن القلوب الخائفة على مصيرها ومصير دينها..

كان المسلمون يخافون سطوة الكفار وبطشهم ويخافون منهم على دينهم فكانت هذه الآية بمثابة جرعة الماء للظمآن في الصحراء أعادت إليهم الحياة وأرجعت الآمال، بل ثبت لديهم بشكل قطعي ظهور هذا الدين وخلوده وبقائه أنه سيبقى ثابت الأركان والأُسس لا يتزعزع أو يتزلزل أو يزول...

في هذا اليوم ـ وأي يوم هو ـ أنه اليوم الفصل في تاريخ الإسلام «وقدمه الله للاهتمام به» وقد تعيّن ذلك في حجة الوداع وفي طريق العودة المباركة إلى المدينة وبالتعيين «في غدير خم» حيث تم تنصيب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام خليفة على المسلمين...

إن الله سبحانه يخبر أن في يوم غدير خم قد دبّ اليأس في قلوب الكفار واطمأنوا إلى أن دين الإسلام لا يمكن القضاء عليه أو إزالته، وأن كل محاولة بعد محاولاتهم السابقة لن تنفع أو تفيد...

إنهم في يأس من القضاء على دين الإسلام وخليفته بعد تنصيب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام خلفاً للنبي صلى الله عليه وآله وخليفة بعده... بعد تعيين القيادة والامتداد القائم مقام النبي صلى الله عليه وآله لم يعد للكفار أمل في القضاء على هذا الدين، وهذا بنفسه من دواعي اطمئنان المسلمين وعدم خوفهم بعد اليوم والذي عليهم أن يخشوه ويخافوه أن يخشوا الله ويخافوه فحسب، لأن الكفار قد انقطعت آمالهم ويئسوا من القضاء على هذا الدين...

ويعضد هذا التفسير ما ذهبنا إليه في الروايات التي وردت في هذا المعنى... وأمّا الأقوال الأخرى فإنها لا تخلو من إشكالات ومن أخذٍ وردٍّ..

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ من المتفق عليه بين المفسرين أن هذه الآية هي الوحيدة المكية من بين آيات السورة - المائدة - المدنية فإنها نزلت في حجة الوداع من السنة العاشرة للهجرة.

وتعيين هذا اليوم أُختلف فيه عند السُّنة فقد قال قوم:

١ - أنه يوم عرفة.

٢ - أنه يوم فتح مكة.

٣ - أنه يوم سورة (براءة) وتبليغها للمشركين.

٤ - أنه يوم بعثة رسول الله ﷺ وظهور الإسلام.

وقالوا غير ذلك.. وهذا دليل على أنها اجتهادات شخصية واستفادات قد ترجح بعض الاحتمالات، ولكنها لا تنهض حجة قاطعة تنفي ما عداها من الاحتمالات الأخرى مع أن غيرها قد يكون أرجح منها من بعض الوجوه...

والذي ورد به الأثر الصحيح والسنة القاطعة وكما عليه مدرسة الشيعة الإمامية أن ذلك اليوم هو يوم (غدير خم) حيث نصّب النبي خليفته من بعده وعيّن القائم مقامه والامتداد له الذي يكمل الشوط ويحفظ الدين ويصونه ويدفع عنه كل أذى أو خلل...

إن قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ إن هناك يوم عظيم انقطعت فيه آمال الكفار بمحق الدين ومحو تعاليمه وليس أي احتمال من الاحتمالات التي تقدمت أو التي يذهب إليها السُّنة يفي بهذا الغرض...

وبعبارة أخرى: كما يذهب إليه المحققون أن الكفار لم يدبّ إلى قلوبهم اليأس من القضاء على الإسلام بقضية تبليغ الأحكام ولا بنزول سورة ﴿بَرَآءَةٌ﴾

ولا بالاجتماع العظيم للمسلمين في حجة الوداع يوم (عرفة) ولا ببيان هذه المحرمات في الآية الشريفة، لأن كل ذلك ليس بقاطع لأمنيتهم في القضاء على هذا الدين لأنهم كانوا يتصورون أن دعوة النبي ﷺ ما هي إلاّ دعوة ملك وسلطان، وهذه الامتدادات كلها تتقلص وتزول بموته وخصوصاً أنه لا عقب له يحتل محله ويجلس مقامه. . .

إنهم كانوا يتربصون موت النبي ﷺ فتموت دعوته ولا يعود لها أثر، وبهذا يعودون إلى عقائدهم القديمة التي ورثوها عن أسلافهم، ولكن لما عيّن النبي ﷺ في (غدير خم) خليفته من بعده ووقفوا على أن دعوة النبي لن تموت بموته وخصوصاً أن من نصّبه مكانه كأنه هو نفسه في دفاعه عن الدين وتضحيته من أجله عندها انقطع أملهم ودبّ اليأس في قلوبهم. . .

اليوم (يوم غدير خم) أكملت لكم دينكم حيث عُيّن الخليفة ـ وأتم الله النعمة بولاية علي والخلفاء من بعده ورضي الله بهذا الإسلام ديناً يتدين به المسلمون ويتمشون على قواعده وأسسه وكل ما جاء به إلى يوم الدين.

وبعبارة مختصرة: إن أي دين أو قانون لا يحمل قوّته في نفسه بل لا بدّ له من قوة تحميه وتنفّذه وتحمل الناس عليه وعلى امتثاله وقد كان الكفار يراهنون على أن يموت النبي فيموت هذا الدين وينتهي دوره ومفعوله ويتحول إلى أثر بعد عين.

وخصوصاً أنه لا خلف له ولا ولد ليكمل الشوط بعده فلما عيّن مكانه من يخلفه ويحمل أمانته وينفّذ أحكامه وخصوصاً أنه الشخص المتشبع بروحية هذا الدين والمضحي من أجله عندها دبّ اليأس في قلوبهم ووقفوا على حقيقة عجزهم عن مواجهته أو القضاء عليه. . .

في هذا اليوم أكمل الله الدين وأتم النعمة ورضي سبحانه للمسلمين هذا الدين شريعة خاتمة وديناً يتديّن به الناس إلى نهاية الكون والحياة. . .

تواترت الروايات الواردة في نزول هذه الآية المباركة وأنها نزلت يوم (غدير

خم) عندما رجع النبي ﷺ من حجة الوداع حيث جمع الناس عند مفترق الحجيج وخطب فيهم في شدّة الرمضاء.

ففي (الدر المنثور) للسيوطي في ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ عن أبي هريرة قال: لما كان يوم (غدير خم) وهو يوم ثماني عشرة من ذي الحجة قال النبي ﷺ: من كنت مولاه فعلي مولاه فأنزل الله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج٨ ص٢٩٠ عن أبي هريرة قال: من صام يوم ثماني عشرة من ذي الحجة كتب له صيام ستين شهراً وهو يوم (غدير خم) لما أخذ النبي ﷺ بيد علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: ألست ولي المؤمنين قالوا: بلى يا رسول الله! قال: من كنت مولاه فعلي مولاه فقال عمر بن الخطاب: بخ بخ لك يا بن أبي طالب! أصبحت مولاي ومولى كل مسلم، فأنزل الله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

وحديث (الغدير) من أصح الأحاديث وأوثقها، وقد رواه مائة وعشرة صحابياً من أصحاب رسول الله ﷺ وتواتر لدى المسلمين قاطبة بحيث أُلِّفت فيه الكتب ووضعت الرسائل حتى أن العلاّمة الأميني (رحمه الله) ألّف كتابه (الغدير) بأحد عشر مجلداً أثبت صحة الحديث وتواتره في زمن النبي ﷺ وإلى يومنا هذا وذكر ما ورد في ذلك في اللغة والسُّنة والأدب والشعر وأتى بأبدع ما يكون وأوثق ما يكون، فمن أراد ذلك فليرجع إليه ففيه فوائد ومنافع لا توجد في غيره جزى الله مؤلفه الجنة...

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حكم سبحانه بحرمة ما ذكره سابقاً: الميتة، الدم، لحم الخنزير.. الخ. وهذه الحرمة تكون في حال الاختيار لهذا الإنسان.

أمّا في حال الاضطرار كما لو وقع في مجاعة شديدة ـ مخمصة ـ خائف منها على نفسه فلو لم يتناول هذا المحرّم ـ الميتة أو الدم ـ لمات وانتهت حياته. ففي

مثل تلك الحالات يجوز للمضطر أن يتناول من هذه المحرمات ويباح له ذلك كحالة قاهرة لحفظ النفس والبقاء عليها. . .

إن من اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات أبيح له ذلك شرط أن يتناول منها بمقدار ما يحفظ عليه حياته دون الامتلاء منها حتى الشبع، وهذا ما عبّرت عنه الآية: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ أي غير مائل إلى ارتكاب معصية من خلال أكلها إمّا بزيادة عما يرفع مواضع الضرورة وإمّا بأكلها وهو متلذذ بها فرح بتناولها لأن ذلك يؤثر في الإيمان ويخدشه من حيث يأكل ما حرمه الله بلذة تتنافى وتوجّه المؤمن في مبغوضية ما حرمه الله ومنع منه. . .

ثم إنه سبحانه ذيّل ذلك بـ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن تناول مثل تلك المحرمات في تلك الحالات الاضطرارية. . إنه سبحانه لا يؤاخذ من أكل من هذه المحرمات للاضطرار لأنه أباحها له فهو يغفرها لمن تناولها وهو رحيم بهم لا يعاقبهم عليها. . .

قال تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾.

اللغة

﴿الطَّيِّبَٰتُ﴾: الطيب: أصله ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس، والطعام الطيب في الشرع ما كان متناولاً من حيث ما يجوز وبقدر ما يجوز ومن المكان الذي يجوز.

﴿الْجَوَارِحِ﴾: الصائدة من الكلاب والفهود والطيور تسمى جوارح إمّا لأنها تجرح وإمّا لأنها تكسب ومنه سميت الجارحة لأنه يكتسب بها، والاجتراح: اكتساب الإثم.

﴿مُكَلِّبِينَ﴾: مكلّبين: بالتشديد اسم فاعل من التكليب وهم أصحاب الكلاب المعلّمين لها كالمؤدب صاحب التأديب.

التفسير

بعد أن ذكر سبحانه جملة من المحرمات انفتح أمام الناس باب السؤال عمّا هو حلال لهم، وصدر الآية المباركة تحكي هذا المعنى..

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ استفهاماً ومعرفة وطلباً للعلم بالأشياء.

﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾ أي شيء يكون حلالاً لهم تناوله وأكله والاستفادة منه؟..

إنه سؤال يتضمن الاستفهام عمّا هو حلال لهم ويجوز لهم تناوله.

ويأتي الأمر الإلهي متوجهاً إلى النبي ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد!

﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ قاعدة عامة وكبرى كلية... كلُّ الطيبات هي حلال لهذا الإنسان. وماذا تعني الطيبات؟ إنها كلمة مطلقة ليس فيها تقييد... إن الطيبات كل ما تستلذه النفس وتستطيبه ولا تشمئز منه أو تتقزز من تناوله... وما ترغب فيه النفوس السليمة والطبائع المستقيمة فهو طيب يجوز تناوله.

ومن هذا التعميم نستفيد أن كل ما أحلّه الله فهو طيّب...

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ﴾. هذه الآية تشرّع صيد الكلاب المعلّمة فما قتلته بافتراسها له «ضمن شروط تستفاد من الآية ومن السنة الشريفة» يصبح حلالاً ويحكم بجواز تناوله...

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ عطف على ﴿أُحِلَّ لَكُمُ﴾ أي وأحل لكم صيد ما علمتم إن كانت ﴿ما﴾ موصولة وإلاّ فيكون شرطاً جوابه ﴿فَكُلُوا۟﴾...

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ أي ما قمتم بتعليمه وتدريبه فتقبّل هو ذاك التعليم ـ الذي سيأتي تفصيله ـ من الجوارح وهي عامة تشمل الكلاب والفهود والصقور وغيرها ولكن هذا العام استفاد الفقهاء تقييده ـ كما عليه مدرسة الإمامية ـ الكلاب بالخصوص وهذا المعنى استفادوه من قوله فيما بعد.

﴿مُكَلِّبِينَ﴾ حيث دلّت على أن المعلم من الكلاب هو الذي يحلّ صيده لأن ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ مبالغة في التأديب فهو كالمؤدّب الذي يتولى التأديب.

وهنا يستفاد:

١ ـ أنه لا يباح أكل كلب الصيد غير المعلّم.

٢ ـ إباحة تعليم الجوارح كلها والصيد بها.

٣ ـ إنه لا بد في إباحة الصيد من العقر لمدلول الجوارح.

إن ما اصطاده الكلب وإن لم يدرك ذكاته الصيّاد حلّ لقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ الذي يدل على أن التعليم لا يكون إلا للكلب لأن المكلب صاحب الكلب والكلب وإن أطلق على سبع لكنه حقيقة في المعهود المعين فيكون الاشتقاق منه فيكون كما قلنا مخصصاً لما سبق...

وأمّا صيد غير الكلاب فإن أدرك الصياد ذكاتها حلّت وإلاّ حرمت...

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ يستفاد من هذا النص أن تعليم الكلاب متوقف على نص شرعي يبيّن كيفية التعليم، وقد أوضحت السنة الشريفة طريقة التعليم وبيّنت متى يثبت أنه معلّم وذاك يحصل بأمور:

١ ـ الاسترسال إذا أرسل وأغري.

٢ ـ الانزجار إذا زُجر.

٣ ـ أن لا يعتاد أكل صيده.

﴿فَكُلُوا مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ إباحةٌ للأكل إذا كان الصيد قد أمسكه الكلب لكم والتبعيض في «من» لأن في الحيوان ما لا يؤكل كالجلد والعظم والريش وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأن يكون ما يصطاده الكلب يرجع إليكم وليس له، ومعرفة ذلك من القرائن.

وأنّث الضمير ﴿مِمَّآ أَمْسَكْنَ﴾ لعودته إلى الجوارح.

﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الضمير راجع إلى ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ والمعنى سمّوا عليه عند إرساله أو إلى ما أمسكن بمعنى سمّوا إذا أدركتم ذكاته والأول أولى وعليه المذهب.

ومن هذا البيان نعرف وجوب التسمية عند إرسال الكلب ولا تقبل من الكافر لعدم إيمانه بها أو معرفته لها...

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي اجتنبوا ما حرمه الله عليكم ومنه الصيد الذي لا يحلّ أكله لعدم استكماله لشروط حلّيته، إن الله سريع المجازاة للعباد يوفّيهم أجر ما عملوا بلمح البصر لئلا يتأخر الجزاء عن أهله. . .

وأظهر اسم الجلالة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ لتعظيم الأمر والاستعداد للقائه.

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿طَعَامُ﴾: الطعام: كل ما يقتات به فما يتناوله من الغذاء يسمى طَعم وطعام.

﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: أُعطوا الكتاب وهم اليهود والنصارى.

وقيل: هو البر: أي القمح.

﴿حِلٌّ﴾: حلال، والحلال: هو السائغ المسموح تناوله.

﴿ٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾: العفيفات.

﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾: أعطيتموهن.

﴿مُسَٰفِحِينَ﴾: السفاح: هو الزنا عكس النكاح.

﴿أَخْدَانٍ﴾: جمع خِدْن: أي المصاحب وأكثر ذلك يستعمل فيمن يصاحب شهوة ولا متخذي أخدان أي متخذي خليلات للزنى.

﴿حَبِطَ عَمَلُهُ﴾: بطل ثوابه.

التفسير

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ كرّر سبحانه ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ تأكيداً لهذا المعنى وتوطئة لذكر طعام أهل الكتاب، وحلّه من حيث لم يكن المجتمع الإسلامي منفتحاً عليهم بهذه السعة وهذا المعنى الكبير. . .

والمقصود بـ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ هو أيام ذي الحجة حيث نزلت الآيات.

﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ وقعت معركة كبيرة بين المسلمين ـ السنة والشيعة ـ في تفسير الطعام الوارد في الآية وما المراد منها.

إمّا في اللغة: فالطعام هو ما يؤكل ويقتات به وهو يشمل الحبوب والثمار والخضار والفواكه واللحوم.

ولكن في (لسان العرب) إذا أطلق الطعام في لغة الحجاز فمعناه البر (القمح) وفي كلام الخليل: العالي في كلام العرب أن الطعام هو البر خاصة.

وعلى كل حال. . فتفسير الطعام بالبرُّ صح أم لم يصح ففي النفس منه شيء كثير وخصوصاً إذا رجعنا إلى الأحاديث الواردة عن المعصومين وهي مختلفة فيما بينها وفيها روايات صحيحة تدل على حلية ذبيحة أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ إذا اجتمعت فيها الشروط من التسمية والتوجيه إلى القبلة وغيرهما. . .

وقد عمل بها الشهيد الثاني والصدوق وابن أبي عقيل وابن الجنيد. . .

وقال صاحب المسالك ـ الحمل على التقية لا يتم ـ يريد حمل الأخبار الواردة عنهم بحلية ذبائح أهل الكتاب في جميعها لأن أحداً من العامة لا يشترط في ذبائحهم سماع التسمية! فكيف يصح حمل ما تضمن ذلك على التقية!؟ والحمل على الضرورة أيضاً ينافيه التقييد بسماع التسمية مع أنه ينبغي أن تكون الضرورة إليه بمثابة الضرورة إلى أكل الميتة وظاهر الأخبار بخلافه. . .

وبالجملة فالآية مطلقة في حلية كل طعام يكون من أهل الكتاب - ومنه ما يذبحونه -.

والروايات الواردة عن الأئمة عليهم السلام مختلفة وطبقاً لهذا الاختلاف اختلفت آراء الفقهاء فذهب بعضهم إلى تقييد إطلاق الآية بحيث يشمل غير الذبائح، وذهب آخرون إلى العمل بالآية، والروايات المؤيدة لها التي تبيح ذبائح أهل الكتاب، واشترط بعضهم أيضاً إلى تقييد جواز الحل باستماع التسمية والعلم ببقية الشروط، ومتى شك في استجماع الشروط حرمت الذبائح وإلاّ فتحل...

طبعاً لا يشمل هذا الحِلُّ الأكل لذبائحهم ما لم يقبل التذكية كالخنزير أو ما يقبلها، ولكنهم لم يستجمعوا شرط حلها لكونها أُهلّ بها لغير الله أو أُهِلَّ بها للأنصاب أو للأزلام وغيرها .

﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ الخطاب موجّه إلى المسلمين يبيح لهم أن يبذلوا الطعام لأهل الكتاب بأي نحو كان سواء كان بالبيع أو الهبة أو الهدية، وذلك لأن المسلمين كان عليهم قيود يمنع من خلالها التعاطي بشكل واسع مع أهل الكتاب كالمخالطة والمساورة وعدم اتخاذهم أولياء، وهكذا...

وأيضاً ذكر ذلك هنا لجهة إباحته للمسلمين عكس ما يذكر فيما بعد من جواز زواج المسلم بالكتابية العفيفة دون العكس، أي عدم جواز زواج المسلمة بالكتابي فيكون ذكر حل طعام المسلمين لأهل الكتاب تنصيص بإباحة ذلك حتى لا يحتمل أحد حرمته...

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾. رغب سبحانه بالزواج من المؤمنات المحصنات - وهنّ العفيفات - اللاتي لم يتدنّسن بفجور أو رذيلة أو انحراف.

وقيل: إن المراد بالمحصنات: هنّ الحرائر ليَخرج الإماء، ولكن اللفظ عام وإن كان أظهر أفراده الحرائر...

كما أباح سبحانه الزواج بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ.

واختلف الفقهاء في الزواج من الكتابيات، فبعضهم منع مطلقاً محتجاً بآيات قرآنية تنهض حجة له كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[١] أو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾[٢] لأنهما متقدمتان نزولاً على الآية موضوع البحث ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ والذين اعتمدوا الآية وأجازوا الزواج من الكتابيات اختلفوا أيضاً في أن هذا الزواج متعة أو دواماً، فقد أجاز بعضهم الأول ومنع الثاني وبعضهم عكس، والآية ظاهرة في الزواج مطلقاً سواء كان متعة أو دواماً...

والتعبير ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ ليشعر أنهم موصولون معكم برابط الكتاب ويجمعكم وإياهم جامع إلهي، فلا غرابة في هذا الزواج إذا كان مستمداً من رابط قوي، وهو ما أُوتوا من كتابٍ قبلكم.

وقوله: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فهو قيد لحلية هذا الزواج، وهو أن يعطيها مهرها التي يتفق معها عليه.

ووجه تسمية المهر بالأجر يستشعر منه عدم تحديده بحد بل بما يتفقان عليه كالأجرة على الأعمال تكون بما يتفق عليه الأجير والمستأجر...

كما أنه لا دلالة في تسميته ﴿أَجْرًا﴾ على كون الزواج متعة.. لأن الأجر عُبّر به في كلا الزواجين المتعة والدوام فلا يتعين هنا كونه للمتعة...

وقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي حال كونكم عفائف لا تتخذون المشركات للزنا جهراً أو سراً.

ومسافحين من السفاح: وهو الزنا وكأنه يؤخذ فيه العلن بعكس الأخدان لأنه

(١) الممتحنة/ ١٠.

(٢) البقرة/ ٢٢١.

جمع خدن وهو الصديق، فكأن الخدن هو أن يتخذ المسلم كتابية صديقة له يمارس معها الرذيلة سراً دون أن يعرف به وبها أحد، وهذا هو المنهي عنه... وبعبارة أخرى تزوجوا الكتابيات العفائف ولا تزنوا بهن جهراً ولا سراً...

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

من ينكر ما يؤمن به ولا يعمل بمقتضاه فقد أبطل عمله وأفسده ولم يقع له أجر أو ثواب عليه، ومنه الأحكام التي تقدمت في هذه الآية، فمن لم يعمل بمضمونها ويحفظ أمر الله فيها فقد أسقط عمله وأبطله...

وقد يكون إشارة إلى أن المؤمن إذا تزوج بكتابية فعليه أن لا يتأثر بعقيدتها ودينها فيختلّ في عقيدته فيترك بعض الواجبات من أجلها ومن أجل عقيدتها فمن يفعل ذلك يبطل عمله ويفسده ولا يناله أجر عليه.

﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الذين يخسرون أنفسهم بدخولهم النار من حيث أنهم لم يكتسبوا حسنة واحدة بل اكتسبوا سوءاً بمخالفتهم أمر الله وإرادته...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿فَٱغْسِلُواْ﴾: غسلت الشيء غسلاً: أسلت عليه الماء فأزلْت دَرَنَهُ، والغَسْلُ: الاسم.

﴿وُجُوهَكُمْ﴾: جمع وجه مأخوذ من المواجهة: وهو الجارحة التي تواجهك عند الكلام معها وفيها العينان والأنف والفم.

﴿أَيْدِيَكُمْ﴾: الأيدي: جمع يد وهي الجارحة المعروفة ما بين المنكب وأطراف الأصابع.

﴿ٱلْمَرَافِقِ﴾: جمع مرفق: وهو ملتقى عظمَي الذراع والعضد ويعبر عنه بالعامية ـ الكوع ـ كوع اليد.

﴿وَامْسَحُوا﴾: المسح: إمرار اليد على الشيء وإزالة الأثر عنه.

﴿الْكَعْبَيْنِ﴾: مثنى الكعب: وهو العظم الذي عند ملتقى القدم والساق.

﴿جُنُبًا﴾: الجنابة: تتحقق بالدخول أو بالإنزال للمني، وسميت كذلك لأن المتصف بذلك يجب أن يجتنب عن الصلاة في حكم الشرع.

﴿فَاطَّهَّرُوا﴾: من الطهارة ـ وأصلها النظافة ـ وهنا يراد بها الغسل.

﴿مَرْضَىٰ﴾: جمع مريض، والمرض: هو خروج بدن الإنسان عن الإعتدال.

﴿سَفَرٍ﴾: السفر: هو الخروج عن الوطن إلى مسافة معلومة شرعاً..

﴿الْغَائِطِ﴾: الغائط في الأصل: المكان المُطْمئِن، وأُطلق على العذرة حيث يضعها الإنسان في ذلك المكان بعيداً عن أعين الناس، ويراد هنا ما يخرج من السبيلين.

﴿لَامَسْتُمُ﴾: اللمس: إدراك بظهر البشرة كالمس، ويكنى به عن الجماع.

﴿فَتَيَمَّمُوا﴾: تيممت كذا وتيممته: إذا قصدته.

﴿صَعِيدًا﴾: الصعيد: وجه الأرض.

﴿طَيِّبًا﴾: أصل الطيب: ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس، وهنا يقصد به الطاهر الذي لا نجاسة فيه.

﴿حَرَجٍ﴾: الحرج والحراج: مجتمع الشيء وتُصوِّر منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج.

التفسير

هذه الآية الكريمة تبيِّن الطهارات الثلاث: الوضوء والغسل والتيمم، وفيها من الأحكام الشيء الكثير، وقد وقع الخلاف الشديد في تفاصيل هذه العبادات وأجزائها، وهذا من أغرب ما يلفت النظر ويحيّر العقول، وذلك أن هذه العبادة

محل ابتلاء المسلمين في كل يوم، وكان النبي يتوضأ في كل وقت صلاة وعلى الأقل مرة واحدة أو مرتين إن لم نقل أكثر وبمرأى من المسلمين وأمام أنظارهم ومع ذلك وقع الخلاف بينهم، فترى الصحابة تتعدد أقوالهم حتى تصل إلى حد التباين وهذا الأمر يستدعي منّا أن نعيد النظر في أقوالهم وما ينقلونه، فإن بعضها اجتهادات شخصية وبعضها استحسانات دون دليل أو رصيد، وبعضها استفادات لنكات قد لا تنهض دليلاً ولا حجة...

إن هذا الاختلاف الواقع في هذه الآية يستدعي منّا الرجوع إلى أهل البيت عليهم السلام الذين هم أدرى بالذي فيه - ليحدّدوا لنا الرأي الصحيح الذي يضمن لنا براءة ذمّتنا ويأخذ بأيدينا إلى الحقيقة الصافية...

إن اختلاف الصحابة في واحدة من المسائل التي تعمّ بها البلوى في كل يوم وقد عمل بها النبي صلى الله عليه وآله في كل يوم وبمرأى منهم يأخذنا إلى الشك في كل شيء، كما يستدعي منّا أن نعود لأهل البيت عليهم السلام لنأخذ الحقيقة صافية والشريعة واضحة...

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إذا أردتم الدخول بالصلاة أو إذا قصدتم الصلاة وأردتم أدائها... فالتعبير بالقيام إلى الصلاة مجاز حيث عبّر عن إرادة الفعل بالفعل المسبب عنها مجازاً...

﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾.

هذا هو الوضوء «الطهارة المائية للأحداث الصغيرة» اتفق المسلمون بل أجمعوا على عناوين عامة في ثلاثة من هذه الآية...

اتفقوا على وجوب غسل الوجه وكذلك اتفقوا على وجوب غسل الأيدي إلى المرافق، كما اتفقوا على وجوب مسح الرأس.

أمّا في الواجب الرابع «الرجلين» فقد وقع الخلاف، فمنهم من ذهب إلى وجوب غسلهما والبعض الآخر ذهب إلى وجوب المسح عليهما...

ولنبدأ ببيان كل واجب بشكل موجز جداً يتناسب مع أجواء التفسير، وأمّا الأمور الفقهية والتفصيلات الجزئية والاختلافات فلها كتب الفقه المعدّة لمثل ذلك حيث تضم إليها الروايات الشارحة والمبينة والمفسرة.

﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ فالغسل معنى عرفي يستدعي وضع الماء على العضو وتحريكه إمّا بالواسطة أو بدون واسطة ولا يحتاج إلى فلسفة وتوضيح، فكلٌ منّا يغسل وجهه كما يغسل يديه...

وأمّا الوجوه: فجمع الوجه، وهو مأخوذ من المواجهة ـ وهو العضو المعروف في الرأس...

وقد حدّده أئمة أهل البيت عليهم السلام كما في صحيح زرارة أنه قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام أخبرني عن حدّ الوجه الذي ينبغي أن يُوضأ، الذي قاله الله عز وجل؟ فقال: الوجه الذي قال الله تعالى فيه وأمر الله عز وجل بغسله الذي لا ينبغي لأحد أن يزيد عليه ولا ينقص منه، إن زاد عليه لم يؤجر وإن نقص منه أثم، ما دارت عليه الوسطى والإبهام من قَصاصِ شَعرِ الرأس إلى الذقن، وما جرت عليه الإصبعان مستديراً فهو من الوجه، وما سوى ذلك فليس من الوجه.

فقال له: الصدغ من الوجه؟

فقال: لا.

قال زرارة: قلت: أرأيت ما أحاط به الشعر؟

فقال: كلُ ما أحاط به الشعر فليس على العباد أن يطلبوه ولا يبحثوا عنه ولكن الذي يجري عليه الماء.

فهذا الحديث الصحيح يحدّد لنا حدود الوجه الذي يجب غسله، وبه تتوضح الرؤية وتسقط الاجتهادات الأخرى.

يبقى أن نذكر أنه لا بدّ من إدخال شيء يسير زيادة عن هذه الحدود لتحصيل اليقين بغسلها والإتيان بها تامة...

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ اتفق المسلمون قاطبة على وجوب غسل الأيدي في الوضوء واختلفوا في كيفية الغسل...

هل يجب الغسل من رؤوس الأصابع إلى المرافق بحيث يكون البدء برؤوس الأصابع وينتهي بالمرافق؟ أم يجب العكس يبتدىء بالمرافق وينتهي برؤوس الأصابع؟!

أم يجوز الغسل كيف اتفق سواء ابتدأ برؤوس الأصابع أم بالمرافق؟

يبقى أن نشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ هل أن ﴿إِلَى﴾ تدل على تحديد الغَسْل أو المغسول؟ ونقول أنها صالحة للدلالة عليهما معاً، فهي إذاً مجملة تحتاج إلى بيان من المعصوم وقد جاءت السنة الشريفة عن طريق أهل البيت عليهم السلام تحدّد البدء بالمرافق والإنتهاء برؤوس الأصابع، وعليه فيجب أن يبتدىء بغسل المرفق من كل يد إلى رؤوس أصابعها...

كما أن الآية لا تحدّد أي اليدين يجب البدء بها هل اليمين أو الشمال، ولكن السُنّة الشريفة بيّنت وجوب البدء باليد اليمنى ثم بعد الانتهاء منها يبتدىء باليسرى ثم لا يخفى أن اليد باعتبار أنها تطلق على الكفين إلى الزندين وعلى ذلك إلى المرفق وعلى ما تقدم إلى المنكبين بيّن الله سبحانه الغاية للمغسول كما تقول الآية: «اخضب يدك إلى الزند» فلا دلالة على ابتداء الخضاب وأنه من أين يبدأ، فكذلك غسل اليد ليس فيه تحديد لابتداء الغسل وإنما هو تحديد للمغسول...

ومن أغرب ما رأيت ما ذهب إليه «أبو هريرة الدوسي» حيث يذكر القرطبي في تفسير هذه الآية:

ولما كان اليد والرجل تطلق في اللغة على ما ذكرناه وهي أن ـ اليد تقع على أطراف الأصابع إلى الكتف، والرجل تقع على الأصابع إلى أصل الفخذ ـ.

كان أبو هريرة يبلغ بالوضوء إبطه وساقه، ويقول: سمعت خليلي ﷺ يقول: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء».

قال القاضي عياض: والناس مجمعون على خلاف هذا، وألاّ يتعدى بالوضوء حدوده لقوله ﷺ: «فمن زاد فقد تعدى وظلم» وقال غيره: كان هذا الفعل مذهباً له ومما انفرد به ولم يحكه عن النبي ﷺ وإنما استنبطه من قوله: «أنتم الغرّ المحجّلون» ومن قوله: «تبلغ الحلية» كما ذكر، انتهى كلام القرطبي.

فانظر رعاك الله إلى هذا الصحابي كيف يجتهد في هذه العبادة فيخترع صورة مغايرة لما أجمع عليها المسلمون ويبتدع هذا الانحراف ويشرّع لنفسه وقد يفتي به ويسنّه للناس...

إن الناس تُحسن الظن بالصحابة وتنزّههم عن الكذب ولكن مثل هذا الصحابي يجب إعادة النظر فيه وفي مروياته واجتهاده ودراسة حياته. فإن الناس لا تريد أن تعمل برأي أبي هريرة، بل تريد أن تعمل برأي رسول الله ﷺ وما يقول ويبلّغ...

وما يدرينا لعل الكثير من الأمور التي ينقلها هذا الصحابي وأمثاله تكون اجتهادات شخصية منهم وآراء من مبتكراتهم...

ثم الأعجب من ذلك أن يأتي من بعده رجال يريدون أن يصحّحوا هذه الأخطاء ويعذرونه فيها بحجة أنها اجتهاد...

ومتى جاز الاجتهاد في مقابل النص؟ وهل أوضح من قوله: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ فكيف يزاد على ذلك حتى يبلغ الإبط كما ذهب إليه أبو هريرة ولعله لم يعرف الإبط من المرفق «لكون الإبط مفرد» والاعتذار عنه بمثل ذلك أولى وأجمل من التبريرات الساقطة التي يختلقها له محبّوه وأنصاره وأتباعه...

﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ والمسح على الرؤوس أمر مجمع عليه بنص هذه الآية، والمسح أمر عرفي متقوم بإمرار اليد على الرأس بما في اليد من البلل...

لكن كم هو المقدار الذي يمسح من الرأس؟ ذهب بعضهم إلى مسح تمام الرأس وهو شاذ والذي عليه الأمة أن الواجب مسح بعض الرأس وهذا البعض حددته السنة الشريفة بثلث الرأس مما يلي الجبهة.

في الحديث عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ألا تخبرني من أين علمت وقلت أن المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك، ثم قال: يا زرارة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله ونزل به الكتاب من الله لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ فعرفنا أن الوجه كله ينبغي له أن يغسل، ثم قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ ثم فصل بين الكلامين فقال: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ فعرفنا حين قال: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ أن المسح ببعض الرأس لمكان الباء، ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه، فقال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ فعرفنا حين وصلهما بالرأس أن المسح على بعضهما، ثم فسّر ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله للناس فضيعوه...

وأمّا كيفية المسح فيكون بباطن بلل اليد اليمنى كيف اتفق نزولاً أو صعوداً أو إلى أحد الجوانب وبدون تعيين المقدار، بل مجرد أن يصدق عليه عنوان المسح. نعم هناك مستحبات بيّنتها السُنة فليرجع فيها إليها...

وألطف ما رأيت في هذا الباب أن القرطبي في تفسيره، يقول: واختلف العلماء في تقدير مسحه ـ مسح الرأس ـ على أحد عشر قولاً، ثلاثة لأبي حنيفة وقولان للشافعي وستة أقوال لعلمائنا ـ علمائهم ـ والصحيح منها واحد وهو وجوب التعميم لما ذكرناه.. انتهى..

أقول: وهذا من أعجب العجائب وأغرب الغرائب، ففي مسألة واحدة جزئية أحد عشر قولاً فما هي هذه الأقوال؟ ومن أين جاءت؟ وكيف استفادها القوم؟ وهل صحيح أن ما يذكره القرطبي هو الصحيح وغيره الباطل وعليه تكون كل أفعال العاملين بها باطلة وبالتالي تبطل صلاتهم؟!.. لا نستبعد مثل هذا الخبط لبعد القوم عن أهل بيت العصمة عليهم السلام فإن من فارق الحق وأهله وقع في الباطل ولو كان عند القوم بعض من وعي لتركوا تلك الأقوال ورجعوا إلى سُفن النجاة وهم آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله فهم باب حطة وهم سفينة نوح عليه السلام وهم مصدر العلم والحلم وبهم تكون النجاة والوصول إلى رضا الله...

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ هذا الواجب وهو ـ غسل أو مسح ـ الرجلين مما اختلف فيه المسلمون، وقد تعددت المذاهب وتكثرت الأقوال وقد استند كل فريق أو صاحب قول إلى ما يفهمه من الآية مدعماً استفادته ببعض الأحاديث الكريمة، وكأن المسلمين لم يروا النبي يتوضأ ولم يحضروا معه في زمان أو مكان قام بهذا الفعل أو مارسه عملياً. . .

إن من ينحرف عن الطريق الصحيح تتشعب به الطرق، وكلما عزّ السير كلما ابتعد عن الصواب ولم يدرك الهدف المقصود، وهكذا حال من ابتعد عن أهل البيت عليهم السلام الذين هم أعرف الخلق وأدرى من كل الناس بأفعال النبي صلى الله عليه وآله وأقواله وما كان يقوم به.

﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ على أي شيء عُطفت؟ فقال الإمامية أنها عطفت على محل ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ إن قرأت بالفتح إذ الجار والمجرور ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ محله النصب على المفعولية كقولك: مررت بزيد وعمرواً فيكون ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ معطوف على محل ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾.

وأمّا على قراءة الجر عطفاً على الرؤوس فهو واضح في المسح ولا غبار عليه. فالقراءتان تدلأن على وجوب المسح كما أن السُّنة تدل على أن النبي صلى الله عليه وآله فعل ذلك ـ مسح على قدميه عندما توضأ.

ونقل القرطبي في جامعه (لأحكام القرآن) قال: قلت: قد روي عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلتان ومسحتان. . . وروي عن أنس أيضاً أنه قال: نزل القرآن بالمسح والسّنة بالغسل وكان عكرمة يمسح رجليه وقال: ليس في الرجلين غسل إنما نزل فيهما المسح.

وقال عامر الشعبي: نزل جبريل عليه السلام بالمسح ألا ترى أن التيمم يمسح فيه ما كان غسلاً ويلغى ما كان مسحاً.

وقال قتادة: افترض الله غسلتين ومسحتين وذهب ابن جرير الطبري إلى أن فرضهما التخيير بين المسح والغسل وجعل القراءتين كالروايتين. . انتهى كلام القرطبي. . .

والأهم من كل تلك الأقوال والاستفادات والآراء ما عليه أهل البيت عليهم السلام وهم الميزان في قبول الأحكام ورفضها وقد أجمعوا على وجوب مسح الرجلين ومن غَسَلهما أفسد وضوءه لأنه لم يأت بأفعال الوضوء المطلوبة ولم يقع منه الفعل المشروع، فهو قد استبدل الواجب بغير الواجب وأدخل فيه ما ليس منه وأخرج منه ما هو فيه، ومن المعلوم أن الوضوء من الأمور العبادية التوقيفية التي لا يجوز الزيادة فيها أو النقيصة منها أو التغيير أو التبديل ولو حصل مثل ذلك بطل...

إن صلاة الصبح ركعتان فلو أراد أحدهم أن يجتهد ويصلي صلاة الصبح ثلاث ركعات بطلت الصلاة ولا يصح قوله: إنني زدت في الخير وأضفت ركعة، لأن ذلك أمر توقيفي ـ أي متوقف على ما أمر به الكتاب والسُّنة الشريفة ـ ولا يجوز فيه الزيادة أو النقيصة، ومن هنا لا يجزي غسل الرجلين عن مسحهما بل المسح هو المتعين...

وأمّا الفقهاء الأربعة فقد ذهبوا إلى وجوب غسل الرجلين محتجين بقراءة النصب ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ عطفاً على ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ أو أنه منصوب بفعل مقدر.. أي واغسلوا أرجلكم.

وأمّا قراءة الجر فهو عطف للمجاورة.

وقد أجاب أهل التحقيق أن عطف ﴿أَرْجُلَكُمْ﴾ على ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ عطف مستهجن إذ لا يقال: ضربت زيداً وعمراً وأكرمت خالداً وبكراً ويجعل بكراً عطفاً على زيداً وعمراً المضروبين...

هذا مع أن الكلام إذا وجد فيه عاملان عطف على الأقرب منهما كما هو مذهب البصريين وشواهده مشهورة خصوصاً مع عدم المانع كما في مقامنا، فإن العطف على الرؤوس لا مانع منه لغة ولا شرعاً على اللفظ المذكور وأمّا هنا فيمكن عطفه على المحل...

وأمّا قراءة الرفع فكما تحتملون الغسل وتقدرونه يصح لغيركم تقدير المسح أي وأرجلكم ممسوحة بل هو أولى لقرب القرينة.

وأما إعراب المجاورة فهو ضعيف جداً لا يليق بكتاب الله تعالى على أنه يصح فيما يؤمن معه الالتباس، لا فيما نحن فيه مما وقع فيه الخلاف.

﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ﴾ والكعب هو العظم المستدير[1] الموضوع في المفصل تحت عظم الساق حيث يكون مفصل الساق والقدم وهو قول: «محمد بن الحسن» وكان الأصمعي يختار هذا القول ويقول: الطرفان الناتئان يسميان المنجمان هذا ما رواه القفال في تفسيره...

وهذا الرأي هو ما عليه الإمامية وبه وردت الأحاديث، فيجب المسح إليه أو يجب مسحه معاً مع ظاهر القدم بناءً على دخول الغاية...

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ إذا أردتم الصلاة وكنتم على جنابة فاغتسلوا وهو المراد بـ﴿فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾.

وباعتبار أنه أطلق الطهارة فقد وجبت لسائر ما ظهر من البدن كله...

وأمّا كيفية الطهارة من الجنابة فقد بيّنتها السنّة الشريفة وذكرها الفقهاء في كتبهم الفقهية وتتلخص في:

١ - يغسل الرأس والرقبة.

٢ - يغسل الجانب الأيمن والعورة معه.

٣ - يغسل الجانب الأيسر والعورة معه.

هذا إذا كان الغسل ترتيبياً أما إذا كان ارتماساً فيكفي أن يغط تحت الماء جميع البدن دفعة واحدة وبه تحصل الطهارة...

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ﴾ وهذه هي الطهارة الثالثة - وهي الطهارة الترابية - المعبر عنها بالتيمم وقد ذكر سبحانه: لها مسوغات ومصاديق إذا تحققت وجب التيمم...

(١) نقلاً عن الفخر الرازي في تفسيره.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ إذا كان الإنسان مريضاً لا يقدر على استعمال الماء، أو كان استعمال الماء يزيد في مرضه أو يبطىء في شفائه من المرض سقط فرض الوضوء والغسل ووجب التيمم. . .

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ بأن كان مسافراً ولم يجد الماء في سفره و﴿عَلَىٰٓ﴾ هنا تفيد الحال ـ أي حال سفركم ـ وذكر السفر من باب الجري على الغالب من أن فقد الماء يكون في السفر في البراري والصحاري. . .

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ والغائط: هو الموضع المنخفض من الأرض يقصده الإنسان لقضاء حاجته حيث يتوارى به عن أعين الناس.

كُنّيَ الغائط ـ بالمحل ـ عن الحدث الخارج من عورة الإنسان.

و﴿مِّنَ﴾ هنا ﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ بيانية أي موضعاً هو الغائط، فما خرج من السبيلين من بول أو غائط أو ريح وأراد صاحبه أن يصلي فلم يجد ماء ففرضه التيمم.

﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وهو كناية عن الجماع عبّر بـ﴿لَـٰمَسْتُمُ﴾ لأنه موصل إلى الجماع.

﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾ إمّا لفقدان أصل الوجود له أو ما يعجز عن تحصيله، أمّا لفقدان ثمنه أو لعدم الوصول إليه مع وجوده، كما لو كان في بئر عميقة لا يمكنه الوصول لأخذه أو لغيرها من الأسباب، فعدم وجود الماء يشمل كل ذلك. . .

﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾.

وهذا بيان كيفية التيمم. .

ولا يخفى أن التيمم في اللغة معناه: القصد إلى الشيء، وشرعاً طريقة وضعها الشارع المقدّس بدلاً عن الطهارة المائية ذات كيفية معينة ستأتي.

والصعيد: قيل: هو التراب، ونُقل أنه وجه الأرض تراباً كان أو غيره، وهذا الأخير هو المعتبر فيصح التيمم بالتراب والحجر والرمل والحصى مما يصدق عليه الأرض. . .

والصعيد الطيب: هو الطاهر لأن طيبة كل شيء بحسبه.

ثم بين سبحانه كيفية التيمم بشكل عام مجمل تكفلت بتفصيله السنّة الشريفة...

الآية تذكر ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ أي من ذلك الصعيد الطيب امسحوا وجوهكم وأيديكم.

فـ﴿مِّنۡهُ﴾ ابتدائية كما يصح أن تكون تبعيضية، وإن الذي يجب مسحه بعض الوجه وبعض اليدين...

وقد فسرت نصوص السُّنة كيفية التيمم هكذا:

١ ـ أولاً يجمع يديه ويضرب بهما على الأرض.

٢ ـ يمسح جبهته إلى طرف الأنف الأعلى.

٣ ـ يمسح يديه إلى الزندين فيمسح ظاهر اليمنى بباطن اليسرى ثم يمسح ظاهر اليسرى بباطن اليمنى.

٤ ـ ثم يضرب ضربة ثانية يمسح ظاهر اليد اليمنى باليسرى وظاهر اليسرى باليمنى...

ومن الملاحظ أن بعض ما يغسل هو الذي يجري عليه التيمم دون ما يمسح...

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٍ﴾ نفى سبحانه تشريع ما فيه حرج أي ضيق وشدّة فكل تشريع فيه حرج هو منفي بحكم هذه الآية. وهو سبحانه شرع الوضوء والغسل، فإذا أصبح القيام بهما حرجياً عدل إلى غيرهما وهو التيمم، وهكذا...

﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ من وراء التشريع يريد أن يصفّي نفوسكم وينزّهها من كل تمرد وعصيان... يريد أن نتحول بتشريع التكاليف إلى الارتقاء والسّمو والطُهر والصفاء... إن حالات الالتزام بالدين تضفي على النفس عنصر

الإطمئنان والراحة وتحوّل الإنسان إلى مقام روحي عظيم يسمو به صاحبه إلى عالم آخر بحيث يتخفف من أعباء الحياة بكل ثقلها ومتاعبها وآلامها ومصائبها، ويتحول كل ما فيها إلى نوع من البهجة والسرور طالما أنها في مرضاة الله وتُحقق رضاه. . .

﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ بحيث تؤدُّون التكاليف بدون عسر ولا حرج، فمن عجز منكم عن الغسل أو الوضوء تيمم وأدّى واجبه دون أن ينقص منه شيء.

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ لكي تشكروه على نعمه التي لا تحصى فيزيدكم من فضله وخيره. . .

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿النِّعْمَة﴾: الحالة الحسنة، ونعم الله: عطاياه وإحسانه.

﴿المِيثَاق﴾: العهد المؤكد.

التفسير

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ هذه الآية تخاطب المسلمين وتحثهم أن تبقى نعمة الله في أذهانهم وعلى ألسنتهم وفي عملهم... إنّ ذكر النعمة تحرّك الإنسان لأداء شكر المنعم الذي هو الغاية الكبرى التي ينشدها الإنسان ويسعى إليها...

نعمة الله اسم ينطبق على كل نعمة.. النعمة المتمثلة بعطايا الله المادية كالصحة والمال أو المعنوية كالجاه والسلطان... إنها كلمة تستوعب كل ما أعطاه الله لهذا الإنسان وأهمّها وأعظمها يتجسّد في نعمة الإسلام التي بها تخلّص الإنسان من رواسب الجاهلية ولوثاتها وأسفافها وانحطاطها... إن الإسلام أعظم

نِعم الله وأغلاها لأنها النعمة التي بها ارتفع الإنسان إلى قيادة الحياة وعرف كيف يتكامل ليصل إلى رضا الله . . .

﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الميثاق هو العهد الذي أنزله الله إليهم وألزمهم بالإيمان به والعمل بمضمونه ـ وهو الإسلام عقيدة وشريعة ـ وهم بدورهم قد التزموا به وآمنوا بمضمونه وقالوا بلسان الحال والمقال سمعنا كلام الله ورسوله وأطعنا أمرهما والتزمنا بالمنهاج النازل علينا من الله . . .

ويدخل تحت هذا العام ما ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام الميثاق: هو ما بيّن لهم في حجة الوداع من تحريم كل مسكر وكيفية الوضوء وغير ذلك، ونصّب أمير المؤمنين عليه السلام إماماً للخلق أجمعين . . .

وكذلك يدخل ضمنه ما ورد في تفسير القمي: لمّا أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله الميثاق عليهم بالولاية! قالوا: سمعنا وأطعنا ثم نقضوا ميثاقه.

كما يدخل أيضاً ما ذهب إليه بعضهم من أن الميثاق هو ما أخذه رسول الله صلى الله عليه وآله على المسلمين «الأنصار» عند إسلامهم وبيعتهم أن يطيعوا الله في كل ما يفرضه عليهم مما ساءهم أو سرّهم، وأيضاً يدخل ضمنه ما ذهب إليه ابن عباس من أن الميثاق هو ما أخذه النبي صلى الله عليه وآله على المسلمين في بيعة الرضوان . . .

فالآية تذكر المسلمين بما أخذوه على أنفسهم وبما التزموا به من السمع والطاعة وأن لا يخالفوا ما التزموا به أو قطعوه على أنفسهم من أحكام الدين والشريعة ومنها ولاية أمير المؤمنين عليه السلام كأجلى مصداق وأظهره لهذا العام المأمور به . . .

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ احذروا مخالفته وترك العمل بما أمر به، ومنه الحذر من مخالفة ميثاقه الذي واثقكم به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إن الله عليم بخفايا الصدور ومكنوناتها وما تنطوي عليه، فهو يجازي بما تخفيه فضلاً عمّا تظهره وتبديه . . .

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿قَوَّٰمِينَ﴾: مبالغة من القيام: ومعناه مراعاة الشيء والاهتمام به.

﴿شُهَدَآءَ﴾: شاهدين، والشاهد: هو الذي يدلي بما يثبت به المطلوب.

﴿ٱلْقِسْطِ﴾: العدل.

﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: لا يحملنكم أو لا يبعثنكم.

﴿شَنَـَٔانُ﴾: بغض.

﴿قَوْمٍ﴾: جماعة.

﴿ٱعْدِلُوا۟﴾: أمر بالعدل الذي يعني وضع الشيء موضعه.

﴿خَبِيرٌ﴾: الخبير: هو العالم بالأمور، وقيل: العالم ببواطنها.

﴿وَعَدَ﴾: الوعد: هو إخبار لمن وعدته بخير يصله، والوعيد: عكسه إخبار بشر وضرر يصله.

﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾: أصل المغفرة: هي التغطية ومنه سمي المغفر والمغفرة ستر السيئة ومحوها.

﴿أَجۡرٌ﴾: الأجر: الثواب.

﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: الآيات: المعجزات.

﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: اسم من أسماء النار من الجحمة التي هي شدّة تأجج النار.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ خطاب للمؤمنين تشريفاً لهم وتكريماً لمقامهم أن يكونوا دائماً في حالة قيام لله...

كلمة ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ تعني المبالغة في القيام، أي أن يكون هذا الإنسان المؤمن مع الله في كل أفعاله وأقواله وحركاته، لا ينفصل في حالٍ ولا مقال ولا في أقوال ولا أعمال...

إن ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ تعني الالتزام بأمر الله ومنهجه وأن يكون هذا الإنسان في كل مواقفه مراقباً لله يتحرك بأمره ويعمل بحكمه.. في حق نفسه وفي حق غيره...

﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ وأيضاً يجب على المؤمنين التي تتكوّن منهم هذه الأمة وأن يشهدوا بالعدل فيقيموا الشهادة على وجهها كما هي بدون خلل من زيادة أو نقصان. والشاهد بالعدل هو الذي بشهادته يثبت هذا العدل، فلذا يجب عليه أن يسعى بكل ما يملك في سبيل تحقيق هذه الحقيقة العظيمة.. أعني العدل في كل ميادين الحياة وسبلها.

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ لا يحملنّكم بغضكم لقوم أن لا تعدلوا فيهم ومعهم. وبعبارة أخرى: لا يكون بغضكم لجماعة سبباً لظلمهم سواء كان ذلك بالشهادة عليهم ظلماً أو عدم الشهادة لهم وسواء كان ذلك بالتعامل معهم بغير الحق أو بغير ذلك مما يكون فيه جور وظلم عليهم...

إن الإنسان باعتبار أنه كثيراً ما يحكمه البغض فإذا كره إنساناً سعى لإيذائه والإضرار به، فلذا كان هذا النهي عن هذا الفرد وإن كان يراد من خلاله النهي عن مطلق الظلم المتمثل بكل انحراف عن العدل مهما كان صغيراً أو حقيراً. . .

﴿اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ بعد أن نهاهم عن عدم العدل أمرهم به تأكيداً لأهميته وحثاً على إقامته ورغب في ذلك باعتبار أقربيته من تقوى الله التي تحصّن الإنسان من النار. . .

ولا يخفى أن الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى العدل الذي تضمّنه فعل الأمر ﴿اَعْدِلُوا﴾.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أمر سبحانه بتقوى الله بشكل قاطع وبشكل مطلق بحيث يشمل جميع الأفراد والأحوال ومنها: إقامة الشهادة وعدم الميل مع الهوى، والبغض بحيث يدفعان الإنسان للظلم وعدم العدل. . .

وقد ربط سبحانه ذلك كله بالله الخبير ببواطن الأمور وخفاياها وما يضمره الإنسان ويسرّه، فهو سبحانه المطّلع على كل حركة وفعل ويعلم منطلقاتها وأسرارها ودوافعها وأهدافها. . يجزي المطيعين أجراً حسناً ويجزي المسيئين بالعذاب والنار. . .

إن ربط التقوى بالله من أهمّ القضايا التربوية حيث يتصل هذا الفعل بمن يعلم بُعده النفسي ومنطلقاته ودوافعه وأهدافه وغاياته ويكون الجزاء على ذلك البُعد الإلهي الذي يقصده الإنسان العامل للخير وفاعله. . .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ ما وعد الله به عباده لا بدّ وأن يفي به لأنه قادر غني كريم ألزم نفسه بما قطعه عليها، فمخالفة ذلك والحال كذلك قبيح وحاشاه سبحانه عن كل قبيح.

وعَدَ الله الذين آمنوا بالله ورسوله وما جاء به كل رسول من عنده وبجميع ما أمر الله بالإيمان به، ثم عملوا بمقتضى هذا الإيمان من تكاليف وتشريع، هؤلاء وعدهم أن يمحو عنهم السيئات التي ارتكبوها في حالات ضعفهم

ثم أعطاهم سبحانه الأجر العظيم الذي هو الجنة وما فيها من خيرات ونعم. . .

إن الله سبحانه لم يكتف بالعفو عن عثرات وزلاّت المخطئين فحسب، بل إذا آمنوا وعملوا الصالحات زادهم عن ذلك بإعطائهم الأجر العظيم المضاعف الذي به يدخلون الجنة ويرتفعون في درجاتها درجات. . .

إنه ترغيب عظيم لأهل الإيمان والعمل الصالح يحوّل نفوسهم نحو الله وكل حركاتهم في سبيله. . .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ بعد الترغيب جاء هذا الترهيب والوعيد. . إنها آية تهز العمق الداخلي لهذا الإنسان وتزلزل قواعده ويستشعر خطورة الكفر والبُعد عن الله وخطورة عدم العمل بما أحب وأراد. . . الذين كفروا بالله وبما جاء به رسله وبما يجب الإيمان به وكذّبوا بالدلائل والبينات وكل معجزات الأنبياء أولئك أهل النار وأصحابها الملازمون لها والداخلون في عمقها والتي تنالهم بعذابها. . .

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذۡكُرُوا نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓا إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ⑪﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱذۡكُرُوا﴾: من الذكر: وهو حضور المعنى للنفس.

﴿هَمَّ﴾: بالشيء: إذا حدّث نفسه بفعله.

﴿قَوۡمٌ﴾: جماعة.

﴿يَبۡسُطُوٓا إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾: بسط إليه يده: إذا بطش به.

﴿كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ﴾: منعها.

التفسير

هذه الآية تحثّ الذين آمنوا أن يعيشوا باستمرار نعم الله ويستشعروا بوجودها، ومن تلك النعم العظيمة التي يجب الوقوف أمامها طويلاً ما كاد ينالهم من أعدائهم والمؤامرات التي كانوا يحيكونها ضدهم...

إنها نعمة عظيمة تتجسد في تدخّل إلهي حيث همّ جماعة أن يبطشوا بكم ويستأصلوا شأفتكم فكان الله لهم بالمرصاد فأفشل خططهم وأبطل حيلهم ومنع أيديهم أن تصل إليكم بسوء. . .

﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ عيشوا باستمرار أمام هذه النعمة واشكروا الله عليها واستمروا على أن تكونوا مع الله وفي خطه دون انحراف أو اعوجاج. وشكر النعمة. . أن تقع في موقعها وأن تؤدي دورها وتحقق الأغراض التي من أجلها كانت ووجدت.

﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ إن العرب كانت تتحرّق للقضاء على النبي ﷺ ودعوته وفي كل مرة كانت تخرج بحرب مسلحة تحاول أن تطفيء نور الله. . . إنها كانت تسعى بكل الوسائل المتاحة لديها من أجل أن تنتهي من النبي ودعوته، ولكن الله كان مع نبيه وكان لهم بالمرصاد. . .

﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ منع الله المشركين أن يقضوا على المسلمين بما أودعه سبحانه من إيمان في قلوبهم بحيث أطاعوه والتزموا أمره وكانوا يتلمسون كل الأسباب كما أراد وأحب فكانت النتيجة لصالحهم في كل المواقف وكانت راية الشرك تعود فاشلة خائبة لا تحقق هدفاً ولا تصل إلى نهاية يريدها أربابها. . .

إنه الله سبحانه يرسم للمسلمين طريق عزّهم إن هم أطاعوه والتزموا أمره ومشوا كما أحب وأراد. . إنه سبحانه كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾[1] إذا صدقوا في إيمانهم وعملوا بمقتضى هذا الإيمان. . .

الله سبحانه هو الذي كفّ أيدي المشركين عن المسلمين ومنعهم من إتمام خططهم الإجرامية وردّ كيدهم إلى نحورهم لم يدركوا ما همّوا به وأمّلوا الوصول إليه وهذه عناية إلهية بحق المؤمنين تستوجب الشكر وإداء حق هذا العمل الجليل. . .

---

(١) الحج/٣٨.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أعاد سبحانه الأمر بالتقوى تشديداً عليها وتأكيداً لأهميتها لأن تقوى الله أصل يتفرع منه كل خير ويُدفع به كل شر.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ والتوكل من تقوى الله وليس التوكل إلاّ القيام بجميع الأسباب المطلوبة، ثم بعد إتمامها وإكمالها ينقطع المؤمن إلى الله في إنجاح وتحقيق ما يريد وليس من التوكل «على الله» في شيء أن يجلس الإنسان عن طلب الأسباب وتهيئتها ثم ينطوي على نفسه ويقول أنه متوكل على الله ويريد منه سبحانه أن يقضي حاجته ويحقّق مطلوبه. فهذا أمر لم تجر به سنة الحياة وقوانين الله، فهو سبحانه رسم حدود التوكل ضمن شروط وأسباب وباعتبار أن كل فعل يحتاج إلى إذن من الله فإذن الله هو العلة الأخيرة في سلسلة الأسباب، فعلى الإنسان أن يتم الأسباب كلها ويبقى السبب الأخير - الإذن - فيطلب من الله ويسأله أن ينجح طلبته ويحقق أمنيته.

ثم للمفسرين في أسباب نزول هذه الآية أقوال وصلت إلى الخمسة، وباعتبار أن أكثر أسباب النزول لم يوثق بالطريق الصحيح بحيث يصح الاعتماد عليه فلذا كنا في كثير من الحالات نعرض عن السبب ونكتفي بعموم الخطاب ومدلول الكلام.

وقد قيل في أسباب نزول هذه الآية: أن بني النضير (قبيلة من اليهود) أرادوا الغدر برسول الله ﷺ وإلقاء رحى على رأسه لقتله! فأخبره الله بكيدهم ونجّاه من شرهم...

وقيل: إن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه بعسفان قاموا إلى الظهر معاً فلما صلّوا ندموا إلاّ أكبّوا عليهم وهمّوا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إلى صلاة العصر فردّ الله كيدهم بأن أنزل صلاة الخوف...

وفي تفسير علي بن إبراهيم: يعني أهل مكة من قبل فتحها فكفّ أيديهم بالصلح يوم الحديبية..

وهذه الأقوال وغيرها مصاديق للمعنى العام المفهوم من الآية ولا يمكن تعيين أحدها إلاّ إذا ورد بطريق صحيح عن أهل بيت النبوة أو عن الصادقين من الرواة...

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿مِيثَاقَ﴾: الميثاق: عقد مؤكد بيمين وعهد.

﴿إِسْرَاءِيلَ﴾: هو يعقوب نبي الله.

﴿نَقِيبًا﴾: النقيب: فعيل من النقب، وهو الثقب الواسع، وسمي النقيب بذلك لأنه يبحث عن أحوال من تولى شأنهم ـ وهنا يراد به من أسند إليه تدبير شؤون قومه..

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾: أصل معنى التعزير: المنع والذب ويستعمل في النصرة، قال الراغب: التعزير: النصرة مع التعظيم.

﴿وَأَقْرَضْتُمُ﴾: أصل القرض: هو ما يدفع الإنسان على أن يرد مثله.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾: التكفير: ستر الذنب وتغطيته حتى يصير بمنزلة ما لم يعمل، العفو عن السيئات وسترها.

﴿ضَلَّ﴾: الضلال: هو العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية.

﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قصده ووسطه.

﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: الطريق.

﴿نَقْضِهِم﴾: النقض: ضد الإبرام، ونقض العهد: عدم الوفاء به.

﴿لَعَنَّـٰهُمْ﴾: طردناهم، من اللعن الذي معناه الطرد والإبعاد.

﴿قَـٰسِيَةً﴾: القاسية: الصلبة، وقساوة القلوب: عدم تقبلها للحق والخضوع له فهي عاتية.

﴿يُحَرِّفُونَ﴾: تحريف الشيء: إمالته عن وجهه، وتحريف الكلام إمّا بحمله على غير ظاهره أو بزيادة فيه أو نقيصة ليختل المعنى.

﴿ٱلْكَلِمَ﴾: جمع الكلمة: وتطلق على الكلمة المفردة وعلى الكلام.

﴿مَّوَاضِعِهِۦ﴾: أماكنه ومحّاله.

﴿حَظًّا﴾: نصيباً وسهماً.

﴿تَطَّلِعُ﴾: تقف.

﴿خَآئِنَةٍ﴾: خيانة أو نفس خائنة، والخيانة: ضد الأمانة.

﴿فَٱعْفُ﴾: العفو: هو التجافي عن الذنب.

﴿وَٱصْفَحْ﴾: الصفح: ترك التثريب وهو أبلغ من العفو.

التفسير

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ ذكر سبحانه فيما تقدم ما أخذه الله على المؤمنين، وهنا يذكر ما أخذه على بني إسرائيل وكيف أنهم خانوا ونقضوا ما أخذه الله عليهم! وكيف ترتب الأثر على تلك المخالفة العظيمة فكان الطرد من رحمته وقساوة قلوبهم والبقاء على خيانتهم باستمرار...

وهذه الآية يراد من وراء بيانها تثبيت المؤمنين على عهودهم وما أخذه الله عليهم من الوفاء بها والقيام بمضمونها، فهو سبحانه يبيّن لهم كيف كانت عاقبة الذين نقضوا العهود من بني إسرائيل ليحترز من خلالها المؤمنون...

إنه سبحانه أخذ من بني إسرائيل ـ وهم أولاد يعقوب النبي الكريم ـ الميثاق العظيم بأن يعملوا بتكاليف الله وأوامره ولا يخالفوا إرادته سواء كان ذلك في طاعة ربهم أو طاعة نبيهم أو السير إلى عدوّهم من العمالقة أو مواجهة فرعون وجنوده... إنه ميثاق وعهد مؤكد أخذه الله عليهم، ولزيادة ضبط أحوالهم ولطفاً بهم ليكونوا أقرب إلى الطاعة وأبعد عن المعصية اختار الله من بينهم اثني عشر نقيباً، أي قيّماً يقوم بشؤونهم ويدرس أحوالهم ويحملهم على ما ينفعهم...

والنقباء هم حكماء القوم والعارفون بشؤون من تولوا عليهم يعملون على استكشاف أحوالهم ودراستها، ثم وضع الحلول لكل مشكلة تكون أو تطرأ... إنهم النقباء الذين يحملون الخبرة في إدارة الناس وسياستهم وما ينفع ويفيد...

﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ وهذه المعيّة معيّة قوة ورفعة وانتصار... من كان الله معه فيا سعداه.. يرتفع مع الله كل ضعف أو وهن أو هزيمة أو فقر أو جهل أو غير ذلك من الأمور التي تسقط الإنسان أو تسحقه...

ولكن هذه المعيّة مشروطة بشروط خمسة:

١ ـ ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ هذا هو الشرط الأول: أن يقيموا الصلاة فيداوموا

عليها ويقيموها بأجزائها وشرائطها ويرفعوا موانعها وما يخلّ بها كي تعطي أثرها من رفع الفحشاء والمنكر وتتحول معراجاً يعرج منه إلى الله، وهكذا...

واللام - في ﴿لَئِنْ﴾ - للقسم فهو قسم مشروط...

٢ - ﴿وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَوٰةَ﴾ وإيتاء الزكاة يعني إخراج قدر من المال على المستطيع فيدفعه إلى الفقراء فتخرج حالة الشح والبخل وينتفع الفقراء والمحتاجون ويستشعر الإنسان أنه أخ الإنسان يمدّ إليه يده ويرفع عوزه وحاجته...

٣ - ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ والإيمان بالرسل جميعاً من تقدم عنهم ومن هو في زمانهم ولعلها إشارة إلى وجوب الإيمان بمحمد الذي كان يعيش بين أظهرهم وعرفوا صدقه ولكنهم لم يؤمنوا به..

والإيمان بالرسل أصل من أصول العقيدة...

٤ - ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي نصرتموهم، فليس مجرد الإيمان بالرسل كافياً، بل لا بدّ من مساندتهم عملياً والوقوف إلى جانبهم والذبّ عنهم... إن الإيمان بالرسل من مقتضياته أن ينتصر لهم المؤمن بهم ويدافع عن عقيدتهم ويجاهد معهم في الخطوط الأمامية كما فعل الصادقون من الصحابة - وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام حيث كان المقدام والمقدّم في كل معركة وحامل الراية في كل غزوة والمجاهد في الطليعة حيث لم تخلُ منه غزوة ولم تفقده ساحة جهاد فكان البطل الذي على يديه يتم النصر وبسيفه يكون الفتح...

٥ - ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي أنفقتم في سبيل الله مما أعطاكم من المال، وعبّر سبحانه بالقرض «لهذا العطاء» من حيث أنه سبحانه يعوّض على أصحابه بأضعاف مضاعفة ويرد لهم وعليهم ما هو أعظم وأنفع مما ينفقون...

«والقرض الحسن»: هو ما يكون خالصاً لوجهه بدون رياء أو سمعة أو ما يكون حلالاً أو ما لا يتبعه منّ ولا أذى...

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هذا جزاء لمن وفى بشرط الله المتقدم والمتقوّم بالأمور الخمسة التي مرّ ذكرها... إنه جواب للقسم في ﴿لَئِنْ﴾.

إن من وفى بشرط الله الذي شرطه عليه كانت عاقبته ونتيجة وفائه أمران:

١ ـ ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ فالله سبحانه يمحو عنهم ما ارتكبوه فيما تقدم من أعمارهم، فكل سيئة قد عملوها أو قاموا بها ستسقط... كل هفوة أو زلّة أو معصية لن تبقَ أمام الوفاء بهذه الشروط الخمسة...

٢ ـ ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهذه نتيجة أخرى لذلك الوفاء ـ ليس فقط أن يسقط الله عنهم تبعات ما مضى من سيئاتهم فحسب، بل بكرمه سيتفضل عليهم بجائزة عظيمة هي أن يدخلهم الجنة، ووصفها بأجمل صورة ترغيباً لهم بها...

إن من رحمته سبحانه بعباده أنه لم يكتف بالعفو عن السيئات والصفح عنهم، بل تجاوز ذلك إلى إعطائهم الجنة وما فيها...

﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذه نتيجة طبيعية سوف يصل إليها بنو إسرائيل إن هم خالفوا الميثاق الإلهي وما أخذه الله عليهم... إن مخالفة ذلك العهد المؤكد الذي شرطه الله عليهم نتيجته هو أنهم قد كفروا وخرجوا عن حدود الطاعة لله والالتزام بما تعهّدوا له، وهذا سيؤدي إلى أنهم قد انحرفوا عن الاستقامة وتنكبوا عن طريق الهدى والإيمان إلى طريق الضلال والرّدى...

وقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي لم يأخذ بالمنهج المستقيم الواضح الذي هو العمل بالميثاق، ومن كانت حالته كذلك كان في ضلال وانحراف عن علم ومعرفة وليس بعد ذلك ضلال أو انحراف...

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ بيّن سبحانه هنا وأكّد أنهم فعلاً قد نقضوا الميثاق.. إنهم قوم من طبيعتهم نكث العهود وعدم الوفاء

بالوعود فلا تعجب يا محمد إن همّوا بك وأرادوا قتلك وحاكوا لك ولأصحابك المؤامرات...

إنهم نقضوا الميثاق الذي أخذه الله عليهم فكانت عاقبتهم ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ طردناهم من رحمتنا وأخرجناهم من تحت نظرنا ومنعناهم لطفنا...

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ أي لا تتأثر بالدلائل والبينات ولا تستجيب للإيمان ودعاته... إنها قلوب مؤصدة قد امتنعت عن الاستجابة للحق ولم تتأثر أو تلين لنداء الأنبياء ودعواتهم الصادقة.. إنها قلوب انعقدت على الكفر واسترسلت في المعاصي والانحراف، فلم يبق فيها مكان للإيمان والأعمال الصالحة فحرمت ألطاف الله.

والباء في قوله: «فبما» للسببية، وما للتأكيد...

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ هذا من آثار قساوة القلوب وتحجّرها وكفرها وعنادها.. إنهم يعمدون إلى كلام الله ليصرفوه عن وجهه إمّا بحذفٍ منه أو زيادة عليه فيختل المعنى أو بتأويلٍ باطلٍ يذهبون إليه ويعملون به...

إنهم يحرفون كلام الله عمّا يهدف إليه ويراد منه وهذا العمل لا يقدم عليه إلاّ من انتزع منه الإيمان وأصبح بحالة متمرّدة تعطلت فيه كل آثار هذا الإيمان وتفاعلاته واستجاباته...

﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾ وهذه أيضاً من نتائج قساوة القلوب، إنها تغفل عن عمد وقصد عن قسط كبير مما أمرت به في التوراة وأراده الله منها.

إن الله أنزل عليهم أحكاماً ووضع لهم قوانين وأراد منهم أن يؤمنوا بكل ما حكم وشرّع فعمدوا إلى كثير من ذلك فأهملوه وتركوه وتخلوا عن العمل به بل تركوه عن عمد وقصد.

ومن أظهر مصاديق ما ذكّروا به في كتابهم فنسوه، بل رفضوه ولم يؤمنوا به، وهو النبي محمد ﷺ الذي نزلت البشارات في كتبهم ببعثته، ووجوب الإيمان به، فلما بعثه الله لم يؤمنوا به بل كفروا به وحاربوه.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ وهذه واحدة أخرى من آثار قساوة القلوب لهؤلاء اليهود الأشرار.

إنك يا محمد لا تزال تقف من وقت لآخر على خائنة منهم أي خيانة منهم أو فرقة خائنة أو خائن منهم ـ والتاء للمبالغة ـ وهي عادة دائمة في أسلافهم تسري فيهم الآن ويعيشونها باستمرار فكأنها حالة وراثية تنتقل من السلف إلى الخلف فلا غرابة أن يعيش بنو إسرائيل في زمن النبي ما عاشه أسلافهم من خيانة وغدر وعدم أمانة وهذه حقيقة واضحة لمن تصفّح تاريخ الإسلام، وكيف كانت تتم الخيانة منهم باستمرار ولم يقدروا على الوفاء بما كانوا يعقدونه من عهود مع المسلمين، بل نظرة سريعة إلى تاريخهم في كل الدول ومع كل الشعوب تجد خيانة اليهود ظاهرة من ظواهرهم وسمة من سماتهم التي تميزهم على امتداد تاريخهم التعيس...

نعم هناك فئة قليلة لم تخن ما ائتمنت عليه، وهي تلك التي أذعنت للآيات والبيّنات التي جاء بها النبي ﷺ فآمنت به وخرجت عن طبيعة بني إسرائيل الخيانية...

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أمر سبحانه وتعالى نبيه أن يعفو عن سيئاتهم ومواقفهم القبيحة وأن يصفح عمّا سلف منهم، فلعل ذلك يكون سبباً يحملهم على الإيمان والكفّ عن التمرد والعصيان، وعلّل ذلك بمحبة الله للمحسنين الذين يعفون ويصفحون وهذا يدل على حسن العفو والصفح مطلقاً لأنه إحسان، وطبيعة النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها ومتى أحب الإنسان غيره اتبعه وأطاعه والتزم بما أراد وأحب...

ثم إن تعقيب العفو بالصفح ترقياً وزيادة تكرّم لأن الصفح يحمل معه عدم التأنيب أو التذكير بما كان، فلا تثريب ممن صفح ولا عتاب منه وهو أبلغ في الكمال والعطاء من العفو.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿نَصَٰرَىٰٓ﴾: أمّا نسبة إلى قرية نزلها المسيح ونزلها أتباعه معه أو لأنهم انتصروا للمسيح.

﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾: الميثاق: عهد مؤكد بيمين وعهد.

﴿حَظّٗا﴾: نصيباً، سهماً.

﴿فَأَغۡرَيۡنَا﴾: أصل الغراء: اللصوق، وهنا يراد به ألزمنا وأوقعنا.

﴿ٱلۡعَدَاوَةَ﴾: حالة نفسية توجب المنافاة وعدم الالتئام.

﴿ٱلۡبَغۡضَآءَ﴾: ضد الحب، وهو نفار النفس عن الشيء الذي ترغب عنه.

﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: يوم يقوم الناس للحساب والجزاء.

﴿يُنَبِّئُهُمُ﴾: يخبرهم.

﴿يَصۡنَعُونَ﴾: يفعلون.

التفسير

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾.

بعد أن استعرض سبحانه فيما تقدم أحوال اليهود وكيف أخذ عليهم الميثاق فنقضوه وخالفوه وأعرضوا عنه. يذكر سبحانه هنا «النصارى» ويعطف فعلهم على فعل اليهود. .

النصارى أتباع المسيح الذين انتصروا له ـ بادعائهم ـ ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ إنها دعوى منهم مبتدعة هم نسبوا أنفسهم إلى النصرانية.

النصارى كاليهود في نقض العهود وعدم الوفاء بها، فهو سبحانه أخذ عليهم الميثاق أن يكونوا معه سبحانه في كل ما أمر ونهى وبكل ما أنزل من كتاب وأرسل من رسل ولكنهم تركوا نصيباً وافراً مما أنزله الله عليهم، ومن أظهر مصاديق ما تركوا مما أنزل الله عدم الإيمان بالنبي محمد كرسول بعثه الله إلى الخلق بعد المسيح مع ذكر اسمه في الإنجيل وبشارة المسيح بقدومه وأيضاً مع قيام الأدلّة والبراهين والمعجزات على صحة ما جاء به وحمله إلى الناس. .

إنهم تركوا ما أنزل الله على نبيهم عيسى وخالفوه فيما جاء به طمعاً بالدنيا وما فيها، ولكن هذه المخالفة وعدم الوفاء بالميثاق منهم انعكست عليهم سلباً في الدنيا والآخرة. . .

أمّا في الدنيا فقد قال تعالى: ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ إن طبيعة ترك الميثاق الذي أخذه الله عليهم فخالفوه أن يفترقوا ويتمزقوا وتتعدد فرقهم وأحزابهم وهذا سينشر بينهم العداوة ظاهراً وبالأفعال والأقوال وكذلك البغضاء بالقلوب والنفوس. . .

إن ما وقع بين النصارى من حروب وقتل وأسر وتشريد كثير جداً وأن ما

بينهم من بغضاء وأحقاد أكثر وأكثر فيكفي أن تدخل مدينة صغيرة لتجد لكل فرقة كنيستها الخاصة التي لا تدخل إليها الفرقة الأخرى ولدينا شواهد حيّة في لبنان. ففي بلدة صغيرة تجد أكثر من كنيسة إذا سألت عن تعددها أجابوا بأن هذه للروم الكاثوليك وتلك للروم الأرثوذكس وهذه للأرض وتلك لغيرهم وهكذا، فصدق الله رب العالمين في إخباره وحكايته عن حالهم ومآلهم..

وأمّا في الآخرة فسينالون جزاءهم حينما تنكشف أمامهم أعمالهم، فقال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

ففي يوم القيامة تظهر أعمالهم وتنكشف أسرارهم ويُعلن عن كل أفعالهم التي خالفوا فيها الميثاق الذي أخذه الله عليهم...

إن معنى إخبارهم بما كانوا يصنعون إنما هو لأجل أن ينالوا جزاءهم وما قدمته أيديهم...

وفي الآية وعيد شديد والإنباء بذلك بمعنى انكشاف أعمالهم لهم لكي ينالوا جزاءهم جرّاء فعلهم في نقض الميثاق ونسيانهم لحظٍ مما ذكّروا به...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يُبَيِّنُ﴾: يُظهر ويكشف.

﴿تُخۡفُونَ﴾: تسترون.

﴿يَعۡفُواْ﴾: العفو: هو التجافي عن الذنب والتجاوز عنه.

﴿مُّبِينٞ﴾: واضح ظاهر.

﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾: طرق السلامة، والسلام: مصدر بمعنى السلامة.

التفسير

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ تقدم الحديث عن اليهود وعن

النصارى وكيف نقضوا الميثاق وخالفوا أمر الله، وهنا يريد سبحانه أن يدعوهم إلى الإيمان بالنبي محمد ﷺ وما جاء به من كلامه الكريم وقدّم لهم مقدمة وبيّن لهم دليلاً على وجوب اتباعه.

إن محمداً المبعوث إلى الخلق يحمل معه دلائل صدقه والمعجزات التي تثبت صحة رسالته...

ناداهم الله بصفة ﴿أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وحقهم أن يراعوا هذه الصفة ولا يخالفوا مضمونها.

كما أنه سبحانه أضاف النبي ﷺ إلى نفسه ﴿رَسُولُنَا﴾ تشريفاً له وتكريماً لمقامه لكي يسمعوا له ويطيعوا.. ومعجزة النبي لأهل الكتاب الدّالة على صدق نبوته ما أخبرهم به مما أخفوه من عقائد وأحكام...

إن محمداً لم يتعلّم من أحد ولم يسمع من أحدٍ ولم يقرأ كتاباً ولم يدرس في مدرسة ومع ذلك نزل عليه الوحي وتلقى القرآن وأخذ يخبر أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ بما أخفوه وستروه ولم يبدوه للناس من تعاليم... إن أخبار النبي ﷺ لهم بما أخفوه دليل إعجاز يجب أن يكشف أنه رسول من عند الله وهو سبحانه الذي يتولى تعليمه وإخباره بما أخفوه...

إنه (صلوات الله عليه) أخبرهم بكثير مما أخفوه، فاليهود أخفوا طهر الأنبياء ونزاهتهم وأظهروهم بغير ذلك، وأخفوا ما لحقهم من المسخ والطرد نتيجة مخالفاتهم كما أخبر بما قاله المسيح من أنه عبد الله وأُمه صديقة فألّهوه ودنّسوا وحدانية الله بقولهم...

إن النبي كشف كثيراً مما أخفوه وترك بعض ما أخفوه فلم يظهره لهم لعدم الفائدة والنفع بإخباره بكل ما أخفوه إذ يكفي أن يحصل لهم العلم بأنه يعرف كل ما يخفونه ومتى حصل لهم العلم بذلك كفى في المراد...

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ قد جاءكم إكراماً لكم وإنقاذاً لأنفسكم من الله كتاب واضح ظاهر يحكي صدقه ويكشف عن دوره وأهميته...

واختلف المفسّرون في المراد من ﴿نُورٌ﴾ فذهب بعضهم إلى أن المراد به النبي محمد ليكون هناك تغاير بين النور والكتاب المبين، وذهب آخرون إلى أن النور يراد به الكتاب المبين وهو القرآن والأظهر القول الثاني الذي هو اتحاد النور والكتاب المبين، وعلى كل حال فالاتحاد بين النبي والكتاب ظاهر لا يحتاج إلى دليل أو برهان ويكفي ذكر الوحي ليكشف عن الموحى إليه...

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ خصائص لهذا الكتاب ذكرها سبحانه لكي تشدّهم إليه وتبيّن سبب الإيمان به وبمن نزل عليه.

أولاً: إن هذا القرآن يهدي به - من تطلع إلى رضى الله وما يحب - إلى طرق السلامة والنجاة ومناهج الحق والاستقامة.. فمن طلب رضى الله وتحرك في هذا السبيل سيأخذ هذا القرآن بيده ويوصله إلى طرق النجاة والسلامة...

ومن هنا مَنْ سار على هدى القرآن أرضى ربه واستطاع أن يضع قدميه على الطريق السليم الموصل إلى الجنة التي هي دار السلام...

ثانياً: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ وبتوفيق الله ولطفه يُخرج هذا القرآن من اتبعه من ظلمات الشرك والوثنية والانحراف والضلال إلى نور الإيمان والتوحيد والاستقامة والهداية...

يبقى أن نشير إلى أن الظلمات جاءت جمعاً لأن طرق الكفر والضلال متعددة، والباطل له شُعب وفنون، بينما جاءت كلمة النور مفردة لأن الحق واحد لا يتعدد.

ثالثاً: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ كذلك هذا القرآن يرشد الناس إلى الطريق المستقيم التي هي أقرب الطرق وأيسرها وأجلاها وأوضحها يهديهم إلى هذا الطريق الموصل في الدنيا إلى السعادة وفي الآخرة إلى الجنة..

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

اللغة

﴿كَفَرَ﴾: الكفر: الجحود وعدم الإيمان.

﴿يَمْلِكُ﴾: من الملك: وهو الضبط والحفظ التام ـ والمراد هنا من يملك بقدر ويستطيع أو يمنع.

﴿يُهْلِكَ﴾: يميت ويُعدم الشيء مطلقاً.

التفسير

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أكد سبحانه بلام القسم «لقد» «وبقد» أن مَنْ يقول إن الله هو المسيح بن مريم فقد كفر.. أي جحد ربوبية الله وأنكر وجوده، لأن لازم القول بربوبية المسيح وأُلوهيته أن ينفي الذاهب إلى ذلك والقائل به ربوبية الله وألوهيته لأن ربوبية الله تستدعي توحيده

في الذات وفي الصفات ومن أشرك معه غيره فقد كفر به ولم يعرفه على حقيقته . .

وقد رد سبحانه على من ذهب إلى ذلك وبرهن على ضلاله وانحرافه وعدم استقامته بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قل لهم يا محمد وهو رسول الصدق والحق والعدل من يمنع الله إذا اتخذ قراره بأن يفني المسيح وأمه ومن في الأرض جميعاً من الأشياء والأحياء؟! . . .

هل هناك من يقدر أن يحجز الله أو يمنعه عن تنفيذ ما يريد؟

سؤال فيه إنكار أن يملك أحد مثل هذه القدرة التي تمنع الله من تصرفه . . إنه الله القادر بقول مطلق يقول للشيء كن فيكون لا يعجزه شيء في السماوات والأرض وكل ما عداه طوع يديه، فإذا كان قادراً على الإفناء للمسيح وأمه كيف يمكن أن يكون المسيح إلهاً من دون الله أو مع الله . . . إن ألوهية المسيح المدعاة له تسقط إذا لم يستطع الوقوف في وجه القدرة التي هي أقوى منه والتي تحكم عليه وعلى أمه وعلى مَن في الأرض بالفناء.

إن المسيح إنسان محدود تكوّن بكلمة الله ﴿كُن﴾ فكان في رحم مريم البتول العذراء تربّى في رحمها المحدود وخرج إلى عالم الدنيا وأكل وشرب وتحوّل من طفل رضيع إلى صبي فشاب، وكل هذه العوارض والطوارىء إنما تعرّض لها على الممكنات المحتاجة التي تفتقر في أصل وجودها وفي كمال وجودها إلى الله الغني المطلق، فكيف تصبح إلهاً وهي مفتقرة إلى غيرها؟ . . .

إن المسيح إنسان كأمّه التي حملته ووضعته وهما معاً من جملة الممكنات في الأرض وكل هذه الأشياء والأحياء تخضع لقواعد الإمكان والحاجة، فلن تكون آلهة أبداً وما أُعطيت من خير أو نفوذ أمرٍ أو قدرة فكل ذلك من الله وكرمه وفيضه وعطائه . .

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فالله هو وحده

المالك للسموات والأرض وما بينهما من مخلوقات وأشياء وهو المتصرف فيها كيف يشاء. ومن جملة ذلك المسيح وأمه عليهما السلام والمملوك لا يصح أن يكون إلهاً حاكماً، كما لا يصح أن يتخذ رباً متسلطاً.. ثم أشار سبحانه أنه يخلق ما يشاء، يقدر على أن يخلق آدم عليه السلام بدون أب ولا أم، كما يقدر أن يخلق عيسى عليه السلام بدون أب، فهو المالك المتصرف القادر الذي لا يحدّه شيء ولا يعجزه شيء...

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرة الله مطلقة في الأشياء وفي الأزمنة والأمكنة وفي كل الحالات والقضايا... إنه القادر على خلق الشيء من اللاشيء والقادر على خلق الشيء من الشيء...

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿بِذُنُوبِكُم﴾: بمعاصيكم.

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المرجع والمآب.

التفسير

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ هذه مقالة قالها اليهود كما قالها النصارى، كل طائفة تدّعي ذلك، أمّا النصارى فقد ثبت عندهم وفي إنجيلهم ذلك وكذلك اليهود وهذا هو الظاهر من ذلك...

ويراد بقولهم ـ نحن أبناء الله ـ أي أنهم مختصون به مقرّبون عنده، لهم حق الامتياز، فهم ليسوا كغيرهم من البشر ولا يحكمهم ما يحكم غيرهم...

أو يحمل كونهم أبناء الله على أنهم أشياع لمن ادعوا لهم بنوّتهم لله فالنصارى ادعوا أن المسيح عليه السلام ابن الله واليهود ادعوا أن عزيراً عليه السلام هو ابن الله،

وباعتبار أن كل طائفة من أتباع من ادعوا لهم البنوة فهم بالتبع يصح إطلاق اسم أبناء الله عليهم. . .

وكذلك ادعوا أن الله يحبهم ولهم خصوصية معه فلذا هم بمفازة من كل ما ينال أمثالهم من البشر من العذاب والهوان. . .

إنها دعوى فارغة لا تستند إلى رصيد عقلي أو شرعي أو عرف معمول به. . مجرد إعلام يقصد به الاستعلاء والزهو وشعار طرحوه من أجل أن يصطادوا به منافع دنيوية وسلطات وقتية. . . إنهم يريدون احتكار الله لصالحهم.

ردَّ الله عليهم هذه الدعوى وأبطلها ونسفها من جذورها وسوّاهم بغيرهم ممن خلق من الناس.

فقال تعالى:

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ استفهام يراد به إبطال دعواهم، وإنكم إذا كنتم أبناؤه وأحباؤه فيجب أن لا يعذبكم ولكنه سيعذبكم ـ كما تقرُّون وتعترفون بذلك في كتبكم ـ أو أنه عذَّبكم فيما مضى عندما كنتم تتمردون فأصابكم المسخ والخسف وأرسلت عليكم النكبات من كل حدب وصوب وهذا يكشف أنكم لستم أبناؤه ولا أحباؤه. . .

﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ هذه هي القاعدة العامة والكبرى الكلية والميزان الذي يحكم جميع البشر. . . إنكم أيها اليهود والنصارى مثلكم مثل سائر البشر محكومون لقواعد الخلق العام، فمن أطاع منكم كان حكمه حكم غيره يثاب ويؤجر ويعطيه الله أجر وثواب عمله، وأمّا من عصى منكم وتمرد فجزاؤه العذاب والهوان والطرد من رحمة الله. . .

أبداً لا امتياز لكم ولستم في خانة الاستثناء ـ إذ لا استثناء في هذه القاعدة ـ أنتم بشرٌ تخضعون لإرادة إلهية وقواعد الطاعة والمعصية والله سبحانه يغفر لمن يشاء ممن يستحق الغفران والتوبة ويعذّب من يشاء ممن يستحق العذاب لسوء فعله وقبح تصرفه ولتمرده وعصيانه. .

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا ردٌ آخرٌ لمقولتهم الفاسدة ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ إذ أنه سبحانه يملك السموات والأرض وما بينهما فيعذب من يعصي ويثيب من يطيع ولا يستطيع أحد أن يحدّد سلطته أو يحصر فعله فيما يحب أو يريد.. إنه مطلق الإرادة حر المشيئة يملك التصرف في خلقه كيف يشاء...

إنه سبحانه المالك للسماوات والأرض وما بينهما ومن يملك ذلك لا حاجة له إلى الأبناء والأولاد...

وأخيراً إليه سبحانه المآب والمرجع وإليه يعود الخلق في الثواب والعقاب وهو الذي يتولى ذلك فيعاقب اليهود والنصارى الذين جدّفوا عليه وتعدوا فيما نسبوه إليه...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يُبَيِّنُ﴾: يكشف ويظهر.

﴿فَتْرَةٍ﴾: انقطاع، والأصل في الفترة: السكون.

﴿بَشِيرٍ﴾: مخبر بخبر سارّ، وللخبر السّار يقال له: بشارة وبشرى.

﴿نَذِيرٌ﴾: الإنذار: إخبار فيه تخويف.

التفسير

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ كرّر سبحانه نداءه إلى أهل الكتاب مذكراً لهم بهذه الصفة التي يجب أن يراعوها ويحفظوها ويؤدّوها حقها.. إنه نداء لأهل الكتاب «اليهود والنصارى» يقرّر فيه أنه سبحانه أرسل محمداً ﷺ - ونسبه إلى نفسه - تشريفاً وتكريماً وليكون أشدّ قبولاً - يظهر دينه وما حمله إليهم من تكاليف وتعاليم بعد انقطاع الرسل...

نعم لقد مرّت مدة من الزمن تُعدّ بمئات السنين خلت الرسل والأنبياء فلم يرسل الله أحداً خلال هذه الفترة، وأمّا الآن فإن محمداً ﷺ رسولنا إليكم ينقل مرادنا وكل ما يصدر عنّا. . .

ثم بيّن سبحانه أن وراء بعثة النبي ﷺ إليهم غاية عظيمة، وهي أن تقوم الحجة عليهم ولا يعتذروا فيما بعد «يوم الحساب» إنهم لم يأتهم من يحمل رسالة الله وتكاليفه أو ينقل إليهم مراده.

قال سبحانه: ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾.

أبداً لا تستطيعون الاعتذار عن عدم الامتثال والقيام بالواجبات بأنه لم يرسل الله إليكم من يحمل بشائر الرحمة وما يقرّبكم منه أو من يحمل الإنذار والتخويف وما يبعدكم عن معصيته، إنكم لا تقدرون على الهروب من التكاليف بهذه الحجة الواهية، فقد أرسل الله إليكم محمداً بشيراً ونذيراً. . .

قرّر سبحانه ذلك بقوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ إنه تأكيدٌ واضح على أن محمداً ﷺ رسول الله حمل البشارة والنذارة. . فهو بشير ينقل كل ما يقرّب من الله ويرغّب بدخول الجنة، كما أنه ينقل كلّ ما يبعّد عن الله ويخوّف من عذابه. . إنه رسول من عند الله تنقطع به الأعذار والحجج وتسقط كل المبررات والعلل.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو القادر على توالي الرسل وتتابعهم وهو القادر على أن يفصل بينهم بفترة زمنية حسب الحكمة التي يراها والمصلحة التي يعلمها. . .

يبقى سؤال وهو: كيف تكون حالة الناس في زمن الفترة بين الرسل وانقطاع الأنبياء وعدم تتابعهم؟ وهل يمكن للناس أن يبقوا بدون حجة قائمة عليهم وواصلة إليهم؟

والجواب عن ذلك: إذا توقف إرسال الرسل فإن الحجج تبقى قائمة بوجود أوصيائهم ومن يحمل أفكارهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ
فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا
الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا
يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا
دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا
دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن
نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ
عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

* * *

اللغة

﴿لِقَوْمِهِ﴾: لجماعته.

﴿آتَاكُم﴾: أعطاكم.

﴿الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾: بيت المقدس، أو أرض الشام: وأصلها الطاهرة.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا﴾: الارتداد: الرجوع، وشرعاً الكفر بعد الإيمان.

﴿أَدْبَارِكُمْ﴾: جمع دُبُر، ودُبُر الشيء: خلاف القُبُل، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ نهي عن الانهزام، وأدبر: إذا أعرض وولّى دُبُره.

﴿فَتَنقَلِبُوا﴾: ترجعوا وتعودوا.

﴿خَاسِرِينَ﴾: الخُسر والخُسران: انتقاص رأس المال وأعظم الخسران خسران الإيمان والثواب.

﴿جَبَّارِينَ﴾: جمع جبّار: وهو القوي البطاش الطويل العاتي.

﴿فَافْرُقْ﴾: فافصل.

﴿الْفَاسِقِينَ﴾: الخارجين على حدود الله المرتكبين للمعاصي.

﴿مُحَرَّمَةٌ﴾: من الحرام: وهو عدم جواز الفعل للمعاقبة عليه.

﴿يَتِيهُونَ﴾: التيه: الحيرة والضّياع.

﴿فَلَا تَأْسَ﴾: فلا تحزن أو تتأسّف.

التفسير

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

هذا فصل من قصة طويلة كانت بين موسى عليه السلام النبي العظيم وبين قومه من بني إسرائيل.. إنه فصل يحكي المعاناة الشّديدة والصعوبة الكبيرة التي كان موسى عليه السلام يعيشها مع قومه، وإن نظرة سريعة إلى الأحداث التي واجه بنو إسرائيل من خلالها موسى عليه السلام تكشف عن الجهل والجبن والتمرد والعصيان ونقض العهود وعدم الوفاء بالمواثيق وعدم شكر النعم وعدم القيام بما فرض الله عليهم، وهكذا...

إن ما يقصّه الله من خبر موسى عليه السلام وقومه وما جرى في هذا الفصل عيّنة

صغيرة من أصل كبير يحكي قصة قومٍ طبعهم التمرد والعصيان ومخالفة الأنبياء...

نعم إنها حلقة من سلسلة طويلة من معاناة موسى عليه السلام ينقلها الله كما هي، وكما وقعت وكما جرت أحداثها ليُري بني إسرائيل المقيمين في زمن النبي محمد ﷺ كيف كان أسلافهم فلا يقلدونهم أو يسيرون بسيرتهم أو يرضون عن سلوكهم الشائن الساقط..

يبقى أن نشير إلى أن وجه اتصال هذه الآيات بما تقدّم هو أن ما تقدّم يذكر الله أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق أن يصدقوا مع أنبيائهم ويفوا لهم بما يقولون ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل - فهنا يذكّرهم موسى عليه السلام بنعم الله ثم يطلب منهم محاربة الجبّارين فيخالفون أمره ولا يستجيبون له بل ينقضون ما أعطوه من الميثاق...

ابتدأ كلام الله بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي اذكروا ما قاله موسى عليه السلام لقومه من قول طيّب مفيد نافع قال لهم:

﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أعيدوا إلى أذهانكم نعم الله واشكروه عليها وأدّوا حقها.. إنها نعم كثيرة حيث حرّركم من الفراعنة الطغاة وفلق لكم البحر وأنزل عليكم المنّ والسلوى وظلّلكم بالغمامْ وهكذا...

ابتدأ عليه السلام يذكّرهم بتلك النعم العظام كمقدمة يدخل منها إلى ما يريد ويطمح... إنها مقدمة شفّافة تشد الإنسان وتدفعه ليكون مع الله ومع أنبيائه.. ثم ذكّرهم بثلاث نعم كبرى نص عليها لأهميتها ودورها وأثرها عليهم، وهي:

١ - ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ إنها أعظم نعمة على الإطلاق أن يخرج من بين قوم معيّنين أو شعب معيّن قائد رسالي مؤيد بوحي إلهي... نعمة عظيمة أن يجعل الله في قوم أنبياء - وليس نبياً واحداً فحسب - لأنهم القادة الصادقون الذين يتولون قيادة الناس فيدبرون شؤونهم على مستوى الدنيا والآخرة فيحفظون دنيا الناس ودينهم...

٢ ـ ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي جعلكم أحراراً مالكين لأموركم بعد أن كنتم مملوكين للفراعنة أذلاء عندهم يتصرفون فيكم كيف يشاؤون. . .

وهناك تفسيرات أخرى منها: إن من تعدّد فيهم الملوك وتولى الخلف عن السلف صحّ على سبيل الاستعارة أن يقال لهم أنهم ملوك. . .

٣ ـ ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لقد أعطى الله بني إسرائيل ما لم يعط ـ أحداً من عالمي زمانهم. . أعطاهم التحرر من أيدي الفراعنة وهذه أعظم نعمة حيث تحرروا وملكوا أنفسهم. . أعطاهم نعمة فلق البحر لهم ونجاتهم من فرعون وإغراقه. . أعطاهم الغمام يظللهم من الحر. . أعطاهم المنّ والسلوى. . أعطاهم الماء من الحجر الصلب. . . وهكذا. . .

يبقى أن نذكر أن الإجماع قائم على أن المقصود بالعالمين هم: عالمي زمانهم، وإذا لم يتم ذلك فإن تفضيلهم من وجه لا يستلزم تفضيلهم من كل وجه مع قيام الأدلة والنصوص على أن خير أمة أُخرجت للناس هي أمة النبي محمد ﷺ فلا تعادلها أُمة أو تجاريها أُمة. . .

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾ هذا هو مراد موسى. . إنه طلب عظيم استدعى منه تكرير النداء ﴿يَٰقَوْمِ﴾ وأضافهم إليه تشريفاً لهم وحثاً على الامتثال.

يا قومي ادخلوا الأرض المقدسة. . إنها مهمة عظيمة وهدف رفيع يستحق التضحية والبذل. . إنها أرض مقدسة وهم مأمورون بدخولها وقد كتبها الله لهم ـ أي فرض عليكم دخولها وقدّرها لكم. . .

إنه أمر يجب تنفيذه ولا يجوز مخالفته خصوصاً مع هذا التهديد الشديد بعاقبة المخالفة.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا﴾ لا ترجعوا إلى الوراء وتنكصوا عن الإقدام والدخول.

﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ إلى الوراء أو إلى الكفر.

﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ إن لم تقدموا وتدخلوا الأرض المقدسة سترجعون إلى الذل والعذاب أو سترجعون إلى الكفر والضلال وعلى كل حال فهي خسارة كبيرة سواء كانت دنيوية أو دينية...

يبقى أن نذكر أن الأرض المقدسة في الآية أين تقع؟ فقد ذهب المحققون إلى أنها أرض الشام وبهذا جاء الأثر.

وذهب بعضهم إلى أنها أرض القدس وفلسطين فحسب، وذهب ثالث إلى أنها أرض الأردن.

والقول الأول - أنها أرض الشام - يشمل الجميع لأن الشام تطلق على كل تلك المنطقة الشاملة لهذه المساحة الواسعة...

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴿٢٢﴾﴾ كان من حق بني إسرائيل أن يستجيبوا وبسرعة لنداء موسى عليه السلام وطلبه.

أولاً: لأنه نبي صادق عرفوه عن قرب وعرفوا جهاده معهم، وكيف أخذ بأيديهم إلى دحر الطغاة والفراعنة وتحريرهم من تلك العذابات الكثيرة.

وثانياً: لما في المخالفة من آثار سيئة تحيق بهم وتدمّر مستقبلهم في الدنيا وفي الآخرة ولكنهم وبكل صلف وجفاء وخشونة ورعونة أجابوه بقولهم:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ إن في الأرض المقدسة قوم أصحاب قوة وبطش إنهم الجبابرة الذين يحملون أجساماً قوية ضخمة لا تقدر أن نواجههم...

لقد انهارت معنويات بني إسرائيل وانهزموا من داخل أنفسهم.. إنهم تصوروا الجبارين فلم يتصوروا المواجهة إلا على حسابهم ولم يتوقعوا إلاّ الهزيمة والخذلان، ولذا وبكل صلف ووقاحة.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ إن هؤلاء الجبابرة هم المانع من دخولنا للأرض المقدسة، هم حجر العثرة وأكملوا حديثهم:

﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ لن يطاع لك أمر يا موسى! إذا أردت منّا أن ندخلها فليخرج منها هؤلاء الجبّارون. . .

إنه قرار منهم بعدم دخولها حتى يخرج منها الجبارون. . . أبداً لن يكلّفوا أنفسهم عناء إخراجهم ولن يحاولوا الوقوف في وجوههم وطردهم منها. . وأكّدوا قولهم هذا وأعادوه من جديد.

﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ إن يخرجوا منها فإنّا بالتأكيد ندخلها. . إنهم يستجيبون لموسى عليه السلام ضمن شرط لن يسعوا لتحقيقه بأنفسهم، بل إن تحقق سيستجيبون وسيدخلون الأرض المقدسة. . .

إن موسى أمرهم بشكل مطلق ولم يقيّدهم بشيء. . . سقطت الشروط عند موسى عليه السلام ولديه ووجّه إليهم الأمر، ولكنهم اعترضوا عليه وأوقفوا تنفيذه إلاّ مشروطاً بخروج الجبارين. . .

إنهم يريدون أرضاً مقدسة خالية من كل عناء. . يريدونها أرضاً طيبة قد مات أهلها وبادوا. . . إنه السقوط والانهيار والهزيمة قبل المواجهة. . . إنه التمرد الذي طبعت عليه قلوبهم والعصيان الذي مرُدوا عليه. . .

ومن قلب هذا الحوار والرّد على النبي موسى عليه السلام تخرج النصيحة الصادقة من قلب رجلين أنعم الله عليهما بالإيمان والتقى.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ ما أروعها من نصيحة جاءت في وقتها. . . إنها وصفة علاج وشفاء. . . إنهما رجلان يخافان الله ويتقيانه. . قد أنعم الله عليهما بهذا الخوف، فهو الذي حركهما لتوجيه النصيحة. . .

إنها خطة مدروسة بدقّة قد يكونان على علم بها، إمّا لأنهما أهل خبرة في هذا المجال العسكري واقتحام المواقع الصعبة؟ وإمّا لمعرفتهما بقوة العدو وكيف تتم هزيمته إذا كانت المعركة في عقر داره؟

وإمّا لأنهما من الأولياء الذين انكشف لهما الغطاء فظهرت لهما النتيجة نصراً مؤزراً إن اتبع بنو إسرائيل هذه الخطة. . .

وعلى كل حال. . إنها نصيحة غالية، فعلى بني إسرائيل أن يحاولوا تنفيذها. . مجرد الهجوم والدخول إلى الباب - باب المدينة - سينهار الجبارون وينهزمون ويستسلمون وبهذه الطريقة سيدخل بنو إسرائيل الأرض المقدّسة. . .

إن كلام هذين الرجلين اللذين أنعم الله عليهما كلام الواثق من نفسه المتوكل على الله، ولذا ختما حديثهما بالأمر لهم بالتوكل على الله، ومن هنا نفهم أن التوكل يأتي بعد طلب الأسباب وتوفيرها.

ويستمع بنو إسرائيل النصيحة ولكنهم يضعونها جانباً ويرمونها وراء ظهورهم كما رموا ما هو أكبر منها. . حيث رموا كلام موسى عَلَيْتَلِلاً. .

إنهم سمعوا النصيحة ووقفوا على الخطة بدقة ولكن قواهم لم تساعدهم للوقوف بجد ولو لحظة ينتصرون بها. . .

إنهم ماتوا من الداخل. . . مات الحس والحركة ولم يبق إلاّ الصوت يرتفع بالرفض من جديد.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ﴾ إنه رفض مؤبد بعدم الدخول طالما أن الجبارين فيها. . . أبداً وإلى الأبد. . . لا تفكر في يوم أنّا ندخلها طالما الجبابرة فيها. . . نعم عندما يخرجون ندخلها. . وليتهم اقتصروا على الرفض فحسب بل أرادوا زيادة النكاية والازدراء فوجّهوا الحديث لموسى عَلَيْتَلِلاً قائلين:

﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ اذهب يا موسى أنت وما أمرك به الله. . . امتثل أمره وقاتل بحسب هذا الأمر ولا تتخلى عنه، أمّا نحن فإننا لن نتزحزح أو نتحرك من مواقعنا. . . إننا سنبقى هٰهنا في مقاعدنا ولن نشترك معك في قتال أو نزال. . . إنها جرأة على الأنبياء وعلى الله. . ما أقسى تلك القلوب وما أوقح تلك الوجوه. . إنها وجوه طلّقت الحياء فراحت ترسل الكلمات بدون تحفُّظ أو احترام أو إدراك لمدلولها وما تعني. . . نسيت أنها معصية كبيرة بل ردة كما أخبرهم موسى عَلَيْتَلِلاً عندما أمرهم وحذّرهم بقوله: ﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ﴾.

ويستمع موسى عليه السلام الجواب... إنه جواب صعب القبول ولكنه واقع على وجه الحقيقة... لقد أدركه عن قناعة وصدق ما يقوله القوم وما قرروه ويصرّون عليه فيقدّم عذره أمام الله... يعلن بملء فمه عن عجزه وعدم قدرته لأنه لا يملك إلاّ نفسه وأخاه هارون.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾

اعتذار من موسى عليه السلام أمام ربه عن مواجهة الجبارين لأنه لا يملك إلاّ زمام أمره وأمر أخيه... إنهما فردان فحسب... يا رب إفصل بيننا وبين هؤلاء القوم الذين تمرّدوا على أمري ولم يطيعوا ما أردت... نحن أطعناك يا رب وهم قد عصوك فلا تلحقنا بهم في العذاب والعقاب بل اجعلنا في خانة المطيعين دون خانتهم التي هي خانة العاصين..

ويستمع الله لنداء موسى عليه السلام وكلامه ويستمع إلى شكواه وعجزه واعتذاره فتكون عقوبتهم قاسية بمستوى جريمة تمرُّدهم وعصيانهم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

إن جزاء عدم دخول الأرض المقدسة الآن أن يحرموا من دخولها أربعين سنة، وفي هذه المدة المديدة سيقعون في عذاب التّيه والضياع.. إنهم سوف لا يعرفون قراراً... سوف يتحركون يريدون الخروج ولكنهم لا يلبثون أن يعودوا من جديد إلى مواقعهم التي كانوا فيها... في صحراء سيناء كان التّيه أربعين سنة حتى يموت الجيل الحاضر الذي عصى وتمرّد وعاش حياة الذُّل والجبن ويأتي بعده جيل قوي شجاع لم يألف الذل ولم يحي حياة الذل والاستعباد.

إن جيل التمرد والعصيان يجب أن يموت وينتهي دوره في الصحراء وينشأ جيل جديد يتحمل مسؤولية دخول الأرض المقدسة...

وفي النهاية يسدل الستار بتسلية كريمة لموسى عليه السلام أن لا يحزن عليهم أو يتأسف على ما نالهم، لأنه صنيعة أيديهم وجزاء معصيتهم...

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)﴾.

* * *

اللغة

﴿اتْلُ﴾: التلاوة: القراءة.

﴿نَبَأَ﴾: النبأ: الخبر المهم.

﴿ابْنَيْ﴾: مثنى، ومفرده ابن وهو الولد.

﴿قُرْبَانًا﴾: القربان: ما يتقرب به إلى الله.

﴿فَتُقُبِّلَ﴾: تقبل الله العمل: رضيه وأثاب عليه.

﴿بَسَطتَ﴾: البسط: خلاف القبض ـ ويراد هنا ـ البطش والقتل.

﴿تَبُوٓأَ﴾: ترجَّع، وباء: إذا رجع إلى المباءة وهي المنزل، تبوء بإثمي: ترجع بعقاب يعادل الإثم ويساويه.

﴿بِإِثْمِى﴾: من الإثم: وهو الذنب والمعصية.

﴿جَزَآءُ﴾: الجزاء: ما يترتب على العمل من ثواب أو عقاب.

﴿فَطَوَّعَتْ﴾: شجعت وسهّلت، وطاع الشيء: إذا سهل، وطوّعه له: إذا سهّله له.

﴿فَبَعَثَ﴾: أرسل.

﴿غُرَابًا﴾: طائر أسود معروف.

﴿يَبْحَثُ﴾: يفتش وينقّب، وأصل البحث: طلب الشيء في التراب.

﴿لِيُرِيَهُۥ﴾: ليعلّمه.

﴿يُوَٰرِى﴾: يستر ويغطي.

﴿سَوْءَةَ﴾: السوءة: العورة، وهنا يراد بها الجثة.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾: يا فضيحتي إحضري، والويل: حلول الشر...

﴿أَعَجَزْتُ﴾: العجز: عدم القدرة.

﴿ٱلنَّٰدِمِينَ﴾: الندم والندامة: التحسر من تغيّر رأي في أمر فائت.

﴿كَتَبْنَا﴾: فرضنا وأوجبنا.

﴿نَفْسًا﴾: شخصاً، ونفس الإنسان: ذاته.

﴿فَسَادٍ﴾: الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: البينات: الحجج الواضحة.

﴿لَمُسْرِفُونَ﴾: الإسراف: تجاوز الحد.

التفسير

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾.

اقرأ يا محمد على بني إسرائيل خبر ابني آدم كما هو على حقيقته لا كما هو مذكور في كتبهم حيث لعبت به الأهواء وجرى عليه التحريف...

وهذا الخبر المهم العظيم يشكّل أول حادث قتل في الدنيا، إنه حادث خطير يترك أثره في المجتمع ويفتح أمام الناس باب القتل ويجرؤهم عليه... إنه حادث شكّل سُنّة من السنن السيئة التي ابتدأها هذا المجرم الحاسد الذي آذته الروح الطيبة لأخيه فلم يتحمّلها فراح يحقد عليه وأخيراً أجرم بحقه فقتله.

إنهما أخوان من أب واحد وأم واحدة ـ من آدم وحواء ـ والدنيا كلها ملك لهما، حسد أحدهما الآخر لفضل اختصه الله به، فاحتكما إلى الله بتقريب كل منهما قرباناً يقدّمه له فكانت النتيجة أن الله تقبل من أحدهما ولم يتقبل قربان الآخر فحقد عليه وحسده وصمم على قتله.

فاعتذر الآخر له بأن القبول وعدم القبول لم يكن إلاّ للتقوى والخوف من الله وليس لشيء آخر، فمن أتقى لله تقبل الله منه عمله وقربانه...

ثم أكمل الحديث بعد أن سمع التهديد، إنه حتى لو حاول أخوه قتله فإنه هو لن يقتله لأنه يخاف الله بقتله وهذا الخوف هو الحاجز عن مواجهته بالقتل.

وحذّره بعد ذلك من أن يتحمل إثمه وإثم نفسه وفي ذلك خسارة كبرى حيث يكون من أصحاب النار وأهلها الملازمون لها لأنها جزاء الظالمين.

ولم يستمع المجرم لنصيحة أخيه بل أغرته نفسه وحسنت له القتل فاندفع فقتله . . . وقعت الجريمة فأدرك أثرها فندم على سوء فعله فأصبح من الخاسرين واحتار كيف يتخلص من جثة أخيه؟ فبعث الله له غراباً مثّل جريمته هو نفسها ولكنها مع غراب مثله فقتله ثم حفر له ودفنه فتعلم منه عندئذٍ كيف يواري جثة أخيه، وهكذا فعل . . .

وبعد أن كنت قد كتبت ما تقدم ذكرت أنني تعرضت لهذه الآيات في كتابنا (الأصدق في قصص الأنبياء) فرجعت إليه واستحسنت ما كتبت وأنا أنقله هنا كما هو، قلت:

نبأ ابني آدم عليه السلام:

استقر آدم عليه السلام في بلاد الحجاز وتوطن في مكة ـ حرم الله ـ وكان الله قد عهد إليه أنه سيدلّ ذريته على طريق الهدى والحق فمن اتبع هداه فلا يضل ولا يشقى، وأمّا من تنكّب عن هذا الطريق وتجاوز عنه فالشقاء والتعب وكل البلاء حليفه في الدنيا . . وأمّا في الآخرة فله عذاب جهنم وبئس المهاد . . .

عاش آدم وحواء عليهما السلام في ربوع (مكة) وبقيت الجنة ذكرى طيبة في خاطرهما ولكنهما مع ذلك أرادا تحقيق إرادة الله في عمارة البلاد وسعادة الحياة فكانت لهما ذرية تحمل ثقل النبوة وتكمل الشوط بعدهما، وهكذا كان رزقا بأولاد كانوا الامتداد الطبيعي لهما . .

داء الحسد:

«قابيل» و«هابيل» ولدا آدم وحواء عليهما السلام من بطن واحدة وظهر واحد، ولكنهما يختلفان في الطهر والنزاهة والعفة وطيبة القلب والاستعداد لتلقي نفحات الله ورحماته . .

يختلف قابيل عن هابيل كثيراً، فقد جُبل الثاني على الطاعة والالتزام بأمر الله وعلى سلوك الصراط المستقيم وعلى فعل الخير وعمل كل ما يقرّب من الله وبهذا استحق التقدم على أخيه قابيل واستحق من الله أن يعهد لآدم عليه السلام أن

يعهد بدوره لهذا الإنسان بحمل أمانة النبوة بعد أبيه... إنها النبوة التي يختار الله لها من طابت طينته وحسنت سريرته وكان على أعظم جانب من طاعة الله.. إنها عطاء رباني يختص به من يشاء من عباده وقد اختار لها هابيل بعد آدم عليه السلام.

إنه حمل ثقيل فيه من الكرامة والعزة والقرب من الله ما لا تبلغه مهمة أخرى في العالم.. إنه الشرف الذي يقصر عنه كل شرف والفخر الذي لا يدانيه فخر والعظمة التي لا تطالها عظمة.. إنها النبوة وميراثها ينتقل إلى أحد الأخوين هابيل فتجيش عنده عوامل الحقد والحسد في نفس قابيل.. يغلي الحقد.. تتصاعد حماه ويندفع بعدها نحو الأب الكبير آدم عليه السلام وهو في حالة من الغضب الشديد ليواجهه: يا أبتي ألست أكبر من أخي وأحق بما فعلت به؟!.

امتحان الرفض والقبول:

ويجيبه الأب الرحيم بعطف الأبوة وحنانه: يا بنيّ الأمر بيد الله وإن الله خصه بما فعلت فإن لم تصدقني فقرّبا قرباناً فأيكما قبل قربانه فهو أولى بالفضل، وكان القربان يومها أن تنزل النار فتأكله علامة قبوله ودليل رضى الرب له.

وهنا تظهر الحقيقة... يخرج الحق معلناً عن نفسه بالدليل والبرهان.. سوف تنجلي الأمور وتتكشف مكامن النفوس وما يعيش فيها من صدق وحق ومن كذب وباطل.. سيبرز إلى الوجود ما يعيش في النفس من طيبة ومن خبث.. من إيمان ومن كفر...

تقدّم كل من قابيل وهابيل بقربانه.. خرج قابيل وهو يحمل حقداً وحسداً.. لم يخرج لله ومن أجل الله... لم يخلص النية ولم يطهر القلب من الدنس.. بل لم يخرج من أطيب ما يملك.. فاجتمعت نية السوء مع القربان الرديء.

وفي المقابل خرج هابيل بالسريرة النقية، بطهر الأنبياء وصفاء العارفين وأعمال المتقين.. خرج مخلصاً لله لا يريد جاهاً ولا سلطاناً ولا شيئاً من حطام الدنيا.. خرج بأحسن ما يملك وأطيب ما يملك وتقدم الإخوان بتقديم القربان... وضعاه على قمة الجبل وابتعدا عنه وأخذ كل منهما مع الأب الرحيم

ينظرون إلى النار لتأتي فتأكل أحد القربانين ويكون ذلك علامة قبوله ويكون صاحبه هو صاحب الحظ وله الحق في مواريث النبوة وعلمها..

وبينما الجميع ينتظرون وإذ بالنار تسقط فتلتهم قربان هابيل ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ قابيل...

سقط ما في يدي قابيل.. رسب في امتحان لا غش فيه ولا تزوير.

وهنا يأتي دور النفس الشريرة التي تحمل نزعة الحقد والحسد يساعدها الشيطان (اللعين) بما يحمل من عداوة لهذا الإنسان...

الآن يأتي الشيطان (اللعين) وهذا دوره.. إنها ساحته التي يستطيع أن يجول فيها ويصول... فنفس قابيل مريضة تعيش غصّة اختيار الله لأخيه وتفضيله عليه.. إنها نفس تعيش الحقد وإفرازاته وما يستتبعه من سوء الظن وحب الانتقام فيأتي إبليس «اللعين» ليغذي هذا التوجه الانتقامي الإجرامي...

يأتي إبليس اللعين إلى الساقط في الامتحان.. الفاشل في شوط الجهاد.. المهزوم في المعركة ليوسوس إليه ويوشوش في أذنيه.

التهديد بالقتل

يا «قابيل» لقد سقطت في الامتحان ونجح أخوك نال الفخر والمكرمة ولو بقي الأمر في هذه الحدود لهانت القضية، ولكن كيف تعمل إذا ولد لك أولاد؟ وكذلك ولد لأخيك أولاد ثم قام أولاد أخيك بالفخر على أولادك؟..

كيف تستطيع أن تقبل بذلك وأن تقبل الهزيمة في عقبك؟.. إذا أردت أن تحسم فخر أخيك عليك وفخر أولاده على أولادك فما عليك إلاّ أن تقتله... تنهي حياته فيعود الأمر إليك ويرجع ميراث النبوة وعلمها إلى رحابك... لقد قبل «قابيل» أن يكون تلميذاً لـ «إبليس» وعند نفسه الشريرة.. رضي أن يقطع رحمه ويقضي على أخيه وعزيزه وسنده.

وقف «قابيل» في مواجهة «هابيل» ولم يخف ما في نفسه بل بصراحة وجرأة أعلن أمامه أنه سيقتله.. الأخ سيقتل أخاه وبصيغة ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ كان الإنذار...

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ ويلك يا «قابيل»! كيف تجرؤ على التفوه بهذه الكلمة التي تفتح بها باب القتل بين الناس وتتحمل وزرها ووزر كل قاتل ظلماً إلى يوم القيامة؟!

ويلك يا «قابيل»! كيفَ تتلفظ بهذه الكلمة التي تحمل الدم والدمار والفساد في الأرض؟!.

يا «قابيل»! الأرض كلها لك ولأخيك أفتحسده على نعمة خصه الله بها لخصائص ذاتية فيه فتريد أن تقضي عليه وتنهي له الحياة...

إنها لجريمة أن ينطق بهذه الكلمة ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ إنسان فكيف إذا مارسها وعاينها حقيقة متجسدة...

إنطلقت الكلمة ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ من بين شفتي «قابيل» ودخلت مسامع «هابيل» فكيف قابلها هذا الإنسان الرباني المتصل بالله؟..هل قابلها بردة الفعل التي تحمل إنتقاماً وحقداً وتحمل دماً مسفوحاً وأشلاء ممزقة؟.. هل قابلها بسوء؟ إن كل ذلك لم يكنْ بل بيّن له سبب قبول الله لقربانه ورفضه لقربان أخيه.. وبعبارة مختصرة صغيرة تختصر كل الحقيقة قال له ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فليس بين الله وبين أحد من عباده رحم أو صلة قربى.. التقوى والإخلاص لله يجعل العمل مقبولاً، وواقعاً موقع الرضا، وهذا الأمر أخضع له أنا وأنت وتحت قدرتي وقدرتك، فعندما تقبل الله قرباني كان لهذا الأمر التقوى التي حصلت عندي ولم تحصل عندك..

ثم بعد بيان سبب القبول والرفض للقرابين لم يرض «قابيل» ولم يذعن، بل بقي مصراً على موقفه معلناً حربه على أخيه شاهراً سيفه عليه ولذا احتاج «هابيل» أن يبيّن له مساوىء هذه الجريمة وأبعادها الخطيرة فقام أولاً: بإعلان موقفه فيه.. الموقف المبدئي قائلاً له: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ فأنا على صلة بالله... أخافه... أعيش معه.. لا أتخلى عن هذه العلاقة ـ بيني وبينه..

حتى لو أردت قتلي فلن أقتلك لأنني لن أكون أول من سن سنّة القتل بين البشر ولن أتحمل وزر هذه السُنة كلما قتل أحدُ أحداً. . .

إن «هابيل» أراد أن يردع أخاه بكل وسيلة، فلذا لم يكتفِ بذلك بل حذّره أن يقتله فإنه إن فعل سيتحمل وزر نفسه كقاتل ووزر المقتول إن كان عليه ذنب، وبهذه الجريمة يتحول ليكون من أصحاب النار وهي جزاء الظالمين ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لقد تبخّرت هذه النصائح والتحذيرات وذهبت مع الريح أمام الحقد الأعمى وأمام الحسد والغل. . . لقد غلى الحقد في نفس «قابيل». . لم يستطع أن ينتصر على عوامل الشر المتأصلة في نفسه الخبيثة. . وأخيراً ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

وقعت الجريمة كأبشع ما يكون وأقبح ما يكون؛ أول جريمة قتل في الدنيا يمارسها الأخ في حق أخيه. . وقعت الجريمة وجرى دم الأخ على الأرض يترقرق يحكي قصة مظلومينه التي لا تملك قوة على ردع الظالم، ولكنه بثورة الحق الذي سيقضّ مضاجع الظالمين على إمتداد التاريخ إنه دم المظلوم الذي يستصرخ كل أحرار العالم أن لا يجعلوا للظالمين يداً تطال الأبرياء والشرفاء في الدنيا. . إنه مشهد مرعب: الأخ يقتل أخاه دون سبب إلاّ لأنه إختصه الله بفضل منه ورحمة. . إنه مشهد وقف القاتل فيه موقف الحائر الخاسر وأي فداحة أكبر من خسارة الأخ، وبهذه الصورة البشعة وعلى يدي أخيه أيضاً. . .

وقف «قابيل» حائراً لا يدري ماذا يعمل وكيف يتحرك؟ فالجثة الطاهرة لا تزال بين يديه والطيور الكاسرة والوحوش المفترسة تتربص أن يتخلى عنها «قابيل» حتى تتناولها من كل جانب. . إنها فريسة سهلة التناول شريطة أن يبتعد عنها القاتل، ولكن هذا الرجل أخذته أواصر الغيرة وعزّ عليه أن يتركها فريسة الطيور والسباع فاحتار كيف يخفيها عن أبيه وأُمه ويغيّب وجودها من أمامه؟. . .

وبعث الله غراباً

في هذه اللحظات الصعبة وبينما «قابيل» يعيش الذهول والحيرة بعث الله غراباً معلماً لهذا الإنسان كيف يواري سوأة أخيه! إن هذا الغراب وأمام نظر «قابيل» أخذ يبحث في الأرض وينكتها حتى إذا حفر حفرة دفع فيها غراباً ميتاً كان بجانبه وبهذه العملية انحلت عقدة القاتل فحفر لأخيه ودفع بجثته ثم أقرّ بالعجز وسوء التدبير وأكبر الغراب وفعله، قال تعالى:

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ انتهت الجريمة على هذه الصورة البشعة فكانت درساً لكل عاقل...

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ من أجل أن القتل عاقبته وخيمة وما فعله «ابن آدم» أدخله النار وخلّده فيها.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي قضينا وحكمنا، وإنما خصهم بالذكر لأنهم أجرأ الناس على هذا الفعل حتى تطاولوا على الأنبياء فقتلوهم.

﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي قتل نفساً إعتداء وظلماً وليس قصاصاً - وهذا إستثناء من قتل النفس، فإن من قتل يقتل قوداً وقصاصاً وهذا أمر مبرَّر شرعاً...

﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ومن قتل نفساً لم تكن مفسدة في الأرض أو لم تعمل الفساد فتستحق به القتل.. من قتل نفساً بغير هذين العذرين. ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ إمّا لأن نفسه الشريرة التي تبيح قتل نفس واحدة لها القابلية أن تقتل الناس جميعاً فمن تجرأ وقتل نفساً واحدة بدون ذنب يتجرأ على قتل الناس جميعاً ويعتدي عليهم كلهم وإمّا إن القضية واردة مورد تعظيم القتل وإن القضية كبيرة وإثمها عظيم.. وهناك أقوال أخرى في التشبيه الوارد في الآية رأينا الإعراض عنها أولى...

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وهذه كالأولى، إمّا أن يحمل

على أن من يسعى في حياة نفس له القابلية لإحياء جميع الناس لأن إحياء نفس ينطلق من عمق طاهر نظيف كريم يحب الخير والحياة فلذا لو قُدّر له وأمكنه أن يحي الناس جميعاً لفعل. . .

وأمّا أنها حث وتعظيم ومدح وإشادة تدلّل على أهمية هذه القضية وعظمة القائم بها وعظيم أثرها. . .

وفي الحديث عن «أبي عبد الله» عليه السلام: في تفسير قوله «من أحيا نفساً» أي من أخرجها من ضلال إلى هدى «ومن قتل نفساً» أي أخرجها من هدىً إلى ضلال.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

أقسم سبحانه أنه قد وصلت كل الآيات الواضحة الدالة على ما كتبه الله عليهم من تكاليف وأوجبه عليهم من واجبات، ثم بعد وصول هذه البينات إليهم تجاوز كثيرون منهم عن هذه الواجبات فأهملوها أو خالفوها، ومنها أنه سبحانه حرّم عليهم القتل فتجاوزوا هذا الأمر المحرّم وقتلوا تمرداً وعصياناً. . .

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

اللغة

﴿جَزَٰٓؤُاْ﴾: الجزاء: ما يناله المكلف على عمله من الخير أو الشر.

﴿يُحَارِبُونَ﴾: الحرب: هو القتال، والحرب مشتق، والحريب: السليب.

﴿يَسْعَوْنَ﴾: السعي: المشي السريع ويستعمل للجد في الأمر.

﴿فَسَادًا﴾: الفساد: يقابله الصلاح، وهو خروج الشيء عن الاعتدال، والفساد هنا إرهاب الناس وتخويفهم بقطع الطريق وشهرِ السلاح وغير ذلك.

﴿يُصَلَّبُوٓاْ﴾: تفعيل من الصلب: وهو أن يُربط على خشبة حتى يموت أو يربط بها ويرفع عليها بعد الموت.

﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: مخالفة: فتقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.

﴿يُنفَوْاْ﴾: النفي: هو الطرد والإخراج من بلد إلى بلد.

﴿ٱلْخِزْىِ﴾: الفضيحة والذل.

التفسير

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ هذه الآية من آيات الأحكام وتسمى آية المحاربة وقد عقد الفقهاء باباً خاصاً في كتاب الحدود وسموه ـ حد المحارب ـ عرّفوا فيه المحاربة وكيفية ثبوتها والحد المتوجب على المحارب وكيف أنه لو تاب قبل أن يقع في أيدي العدالة هل يعفى عنه أو لا؟.

وعلى كل حال.. فالفقهاء فلّوا هذه الآية وفصّلوها ورجعوا إلى كتب الحديث وما ورد عن المعصومين ﷺ وبيّنوا الصواب من الخطأ، كما أنهم ذكروا الخلاف في كل فروع هذه المسألة والأقوال الواردة فيها وأدلة كل قول ولم يقصّروا في بحث هذا الموضوع أو يتركوا ثغرة ولو صغيرة، فمن أراد ذلك فليرجع إلى المجاميع وكتب الفقه كـ(اللمعة) و(الشرائع) و(الجواهر) وغيرها وعلى كل حال ما يهمنا هنا هو بيان الآيات بما يتناسب مع التفسير دون الدخول في الخلافات وأقوال الفقهاء والأدلة عليها.

المحاربة: هي تهديد للأمن العام وزرع الخوف والرعب في قلوب الناس.. إنه التهديد لأمن المجتمع واستقراره ولذا كانت العقوبة شديدة بمستوى الجريمة...

إن المجتمع إذا خاف على نفسه أو على عرضه أو ماله سبّب كارثة عامة، فلذا يجب أن يواجه من يقوم بذلك بعقاب صارم رادع يمنعه عن تنفيذ مخططه ويؤدب غيره به...

والمحاربة كما عرفها الفقهاء «تجريد السلاح براً أو بحراً ليلاً أو نهاراً لإخافة الناس في مصر وغيره، من ذكر أو أنثى، قوي أو ضعيف، من أهل الريبة أم لا، قصد الإخافة أم لا؟».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ﴾ أي عقوبة من حارب الله ـ أي أولياؤه وعباده ورسوله مباشرة أو الذين آمنوا به.. والذين يسعون في الأرض فساداً في سفك الدماء وترويع الناس وتخويفهم..

هؤلاء جميعاً جزاؤهم وحدّهم المفروض عليهم لردّهم إلى الطاعة أو ردعهم عمّا يقدمون عليه، أمور:

١ - ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فهذه الأحكام الأربعة هل يخيّر الإمام فيما بينها كما هو ظاهر الآية والمستفاد من كلمة ﴿أَوْ﴾؟ أو أن الحدّ يكون بحسب الفعل، باعتبار أن المحارب يختلف فعله وتتعدد مراتب جرمه فيختلف الحكم؟

١ - فإن قتل خاصة يقتل قصاصاً إن لم يعف الولي أو قُتل حداً.

٢ - وإن قتل وأخذ المال استرجع منه المال وقطع مخالفاً - تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى أو العكس ثم يقتل ويصلب.

٣ - إن أخذ المال فقط قطع من خلاف - رجله اليمنى ويده اليسرى ونفي.

٤ - إن جَرحَ ولم يأخذ شيئاً اقتص منه ونفي.

٥ - إن شهر السلاح فقط وأخاف نفي لا غير ونفيه يكون إلى بلد آخر ويكتب إلى ذلك البلد فتمنع مواكلته ومشاربته ومجالسته ومبايعته...

وقد انقسم الفقهاء إلى هذين الرأيين ولكل أدلته وبراهينه من الروايات، وأمّا المذاهب الأربعة فلهم أيضاً خلاف طويل ومتشعب الجوانب والفروع...

فوائد

أن قوله تعالى: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ﴾ جاء بصيغة المبالغة إمّا لأنه لا بد من الاستيفاء حتى لو عفى الولي فيحدّ المحارب.

١ - وإمّا للتركيز فيكون قتلاً مع شدة وصلباً مع شدة ليكون ذلك ردعاً للأشرار وإصلاحاً للمجتمع.

٢ - قوله تعالى: ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾، مجاز يراد به يحاربون أولياء الله فعبّر بنفسه

عنهم تغليظاً وتشديداً للجرم وأن أذيتهم أذيته ومحاربتهم محاربته، أو تكون محاربة الله يعني مخالفة تعاليمه وأوامره ونواهيه وعدم امتثال ما أراد..

٣ ـ إنه إذا صلب فلا يترك مصلوباً أكثر من ثلاثة أيام ثم ينزل بعدها يجهّز تغسيلاً وتكفيناً وصلاة عليه وإن كان قد اغتسل وتحنط صلي عليه فحسب.

٤ ـ لا ينبغي أن يفوتنا أن المحارب يصلب حياً على القول بالتخيير.

﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ ما تقدم من الحدود التي فصّلت فيهم لهم فيها فضيحة وذل وعار في الحياة الدنيا وهل هناك أعظم من هذه العقوبات وهل هناك أعظم خزياً ممن نالته ووقعت عليه؟!.

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار وهو عظيم لأن جرمهم عظيم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾. هذا استثناء، فلو أن المحارب تاب ورجع قبل أن يُلقى القبض عليه ويقع في شرك العدالة قُبلت توبته وسقطت حوبته ولم يؤاخذ إذا لم يتعلق في ذمته حق آخر غير حق الله فإنه سبحانه أسقط حق نفسه في نص الآية.. نعم إذا كان للناس حقوقاً على المحارب أن يستوفي ذلك منه سواء كان مالاً أو قصاصاً.. كما لو سرق أو قتل.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱبْتَغُوٓا۟﴾: اطلبوا.

﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾: ما يتوصل به إلى نيل المقصود وهي هنا كما يقول الراغب: حقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحرّي مكارم الشريعة وهي كالقربة...

﴿جَٰهِدُوا۟﴾: من الجهد، وهو بذل الطاقة والوسع، وباعتبار أن المقاتل في سبيل الله يبذل قصارى جهده من أجل إعلاء كلمة الله سمّي عمله جهاداً.

﴿سَبِيلِهِۦ﴾: السبيل: الطريق، وسبيل الله كل ما يقرّب منه.

﴿تُفْلِحُونَ﴾: تفوزون.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أمر سبحانه في هذه الآية المؤمنين بثلاثة أوامر ورتب عليها نتيجة عظيمة هي الفوز والفلاح وتحقيق النجاح...

١ ـ ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ احترزوا من عذابه وعقابه، وهذا لا يكون إلا بترك المحرمات وفعل الواجبات.

٢ ـ ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ اطلبوا إليه ما يوصلكم إلى جنابه... اطلبوا كل ما يقربكم منه...

والوسيلة التي بها يتوصل الإنسان إلى القرب من الله لها موارد كثيرة وأفراد لا تحصى، منها الطاعات المتمثلة بالصوم والصلاة والحج وأداء الحقوق الشرعية وغيرها، كما أن البُعد عن المحرمات وهجرها من ترك الخمر والزنا وقتل النفس التي حرمها الله وغيرها كل هذا يدخل فيما يقرّب من الله...

وإذا وقع الخلاف في بعض المصاديق فللخلاف في مستنداتها والأصول التي تثبتها، فمن ثبت عنده ـ كما ثبت عندنا ـ أن التوسل بالنبي وأهل بيته من أعظم الوسائل المقربة إلى الله لأن لهم منزلة رفيعة عند الله وجاهاً كبيراً وجهاداً عظيماً، أهّلهم كل ذلك ليكونوا أصحاب كرامة تُقبل بهم الطلبات وتستجاب بهم الدعوات فمن توسل بهم وتقرب إلى الله بحبهم كان عاملاً بهذه الآية ومنفذاً لمضمونها مطبّقاً لكل حرف منها، فلا يجوز أن تُشنّ على من يعتقد ذلك الحروب، أو يُخرّج من الملة أو يصبح ممن يعبد الله على حرف وإلاّ لَحَقّ لهذا المعتقد بهذا الاعتقاد أن يكفّر الطرف الآخر المنكر له، ويخرجه من الدين، وبذلك تُنقل المعركة إلى داخل الصف الإسلامي ويكون في ذلك فساد المجتمع وانحلاله، وبالتالي تداعيه وسقوطه، ويكون في ذلك تسهيل الأمر للمستعمر والطامع في بلاد الإسلام والمسلمين...

إن طاعة الله هي المقربة، منه فمن ثبت عنده أن فعلاً ما أو طريقة ما توصل إلى الله فتعبّد بها للوصول إليه ـ مع المحافظة على أصول الدين ـ كان مأجوراً ومثاباً وهو ممن يدخل في هذه الآية ويكون عاملاً بها..

٣ ـ ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ هذا الشرط الثالث للفلاح والفوز والنصر، إنه الجهاد في سبيل الله... الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله..

والجهاد في سبيل الله من أشق الأمور وأصعبها لأنه قد يؤدي إلى الموت والخروج من الدنيا ولذا وصفه الله بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[1].

إن ثمرات الجهاد عظيمة وكبيرة به تحفظ بلاد الإسلام وبه يقوى الدين وبه يدفع غائلة المشركين... الجهاد به العز والمنعة والقوة فلا يطمع طامع بالمسلمين وأرضهم ويُدفع به عن أرضهم وعرضهم...

الجهاد لصعوبته رتّب الله عليه الأجر العظيم وجعل الشهيد مغفوراً له تسقط عنه جميع حقوق الله ويكون حياً عند ربه يرزقه من رزقه الكريم...

(١) البقرة/٢١٦.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لِيَفْتَدُوا﴾ من فدى، والفداء: حفظ الإنسان عن النائبة بما يبذله عنه..

﴿تُقُبِّلَ﴾ تقبل الله العمل: رضيه وأثاب عليه.

﴿مُّقِيمٌ﴾: دائم.

التفسير

ذكر سبحانه فيما تقدم الوسيلة الصحيحة والسليمة التي بها يفوز ويفلح هذا الإنسان وهنا يريد سبحانه أن يسقط كل وسائل الكفار التي يتخيّلون أنّ بها تكون نجاتهم من عذاب الله في الآخرة...

لا تنفع مع الكفر حسنة ومهما ملك الكفار من المال والعقار لن يكون ذلك فدية لهم ووقاية من عذاب الله...

الله سبحانه يقرّر في هذه الآية سقوط كل ما في الأرض وعدم إنقاذه لحياة إنسان كافر من عذاب الله...

بل لو أن لهؤلاء الكفار الدنيا بما فيها ومثلها معها وحاولوا أن ينقذوا أنفسهم من عذاب الله ما نفعهم ذلك ولا أنقذهم من العذاب، بل العذاب نازل بهم ملازم لهم. . . إن الله وضع لعملية إنقاذ النفس من عذابه قارباً معيناً ذا أوصاف خاصة من ركبه وتحرك فيه نجا، ومن استعمل غيره مما يظن أنها قوارب نجاة فهي لا تنجيه وهي في الحقيقة وهم وخيال. . .

وضع الله للنجاة من النار والفوز بالجنة العقيدة السليمة والوسيلة الصالحة التي هي الطاعات والأعمال الطيبة الصالحة وتقوى الله والجهاد في سبيله، فمن طلب النجاة بغير ذلك سقط وهوى. . .

ولا يخفى أن قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ يراد به أنه لا ينفعه شيء أبداً لما للكفر من عظيم خطر وما له من أثر ضار يفسد معه كل عمل ولا تنفع معه فدية أبداً. . .

ثم أنه سبحانه يبيّن حالهم وهم في النار وكيف يحاولون التخلص منها ولا خلاص لهم.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ يحاولون الخروج من النار بما يملكون من أموال أو ما عندهم من أولاد أو ما لديهم من شفعاء ولكن كفرهم يغلب كل ذلك وتسقط كل الشفاعات ويحكم الله بحكمه القاطع.

﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ أبداً لن يخرجوا منها ـ أعاذنا الله منها ـ إنه استقرار دائم لهم فيها.

وكيف يتم خروجهم ولم يعملوا لله ما أراد من الإيمان به وبرسله وكتبه ولم يعملوا بما أحب وأراد فيكون حالهم كما يقول الشاعر:

تبغي النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ عذابهم دائم لا يزول عنهم بل هو ملازم لهم لاحق بهم. . .

قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿وَالسَّارِقُ﴾: المختلس خفية.

﴿فَاقْطَعُوا﴾: القطع: الإبانة والفصل.

﴿أَيْدِيَهُمَا﴾: الأيدي: جمع اليد: وهي الجارحة المعروفة وتطلق على ما بين الكتف ورؤوس الأصابع وتطلق منهما إلى المرفقين وإلى الزندين وعلى رؤوس الأصابع.

﴿جَزَاءً﴾: مكافأة، وجزاء العمل: ما يترتب عليه من ثواب أو عقاب.

﴿كَسَبَا﴾: من كسب، والكسب: ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ ككسب المال.

﴿نَكَالًا﴾: عقوبة.

التفسير

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الآية ظاهرة المعنى واضحة الدلالة وإذا تُليت على أميّ بدوي يفهم المقصود منها فكيف بمن يدعي العلم والمعرفة، ومن هنا لا يستقيم قول من قال «إنها مجملة لا يفهم منها شيء» لأن السرقة مفهومة لغة والقطع معروف كنتيجة لها وعقاب عليها.

نعم يبقى التفصيلات والخصوصيات فهذا ما تكفّلت به السنة الشريفة وهو على حدّ التفصيلات التي تُبين كيفية الصلاة وأجزاءها وشروطها وموانعها...

وعلى كل حال.. السرقة كما عرّفها الفقهاء:

«السرقة: ما يأخذه البالغ العاقل من الحرز بعد هتكه بلا شبهة ربع دينار أو مقدار قيمته سراً من غير مال ولده ولا سيده غير مأكول في عام سنت»[1] من هذا التعريف نقف على أن حدّ القطع حتى ينفّذ يجب أن تتم كل هذه القيود وهي بشيء من التفصيل.

١ ـ أن يكون السارق «بالغاً» شرعاً فلا قطع على الصبي الذي لم يبلغ، بل يؤدّب خاصة وإن تكرّرت السرقة منه.

نعم هناك أقوال لعلمائنا غير ذلك وهي أنه يُعفى عنه أول مرة، فإن سرق ثانية أدّب فإذا سرق ثالثةً حُكّت أنامله حتى تُدمى، فإن سرق رابعاً قطعت أنامله، وفي الخامسة تقطع يده كما تقطع يد المكلف ومستند هذا أخبار كثيرة وصحيحة...

٢ ـ العقل: فلا حدّ على المجنون لو سرق فإن من شروط التكليف والمسؤولية وجود العقل لدى الإنسان...

---

(١) سنت: يقال عام سنت أي عام مجاعة.

٣ ـ يشترط أن يكون المسروق في حرز، وهو ما أُعِدّ عادة لحفظ مثل المسروق وهو يختلف في كل شيء بحسب حاله، فالأموال حرزها الخزنات والمحافظ والصناديق، وحرز الدواب: الإسطبل، وهكذا..

٤ ـ أن لا يكون لدى السارق دعوى الشبهة المحتملة في حقه.

٥ ـ أن يأخذ المال سراً فلا تقع السرقة في الأخذ علناً.

٦ ـ أن يكون ما سرقه نصاباً وهو ما بلغ مقدار ربع دينار أو خمسه على خلاف بين فقهاء المذهب الحق وإن كان عند المذاهب الأخرى اختلافات كثيرة في تحديد النصاب.

٧ ـ أن لا يكون السارق والداً لصاحب المال فلا تقطع يد الوالد إذا سرق من ولده.

٨ ـ أن لا يكون السارق عبداً للمالك المسروق منه فلو سرق العبد مال سيده لا قطع.

٩ ـ أن لا يكون المسروق من المأكول في عام المجاعة فلو سرق مدّاً من الحنطة في عام مجاعة لحاجته في سدّ رمقه فلا يقطع...

طرق ثبوت السرقة:

١ ـ تثبت السرقة بشهادة عدلين.

٢ ـ تثبت بالإقرار من السارق مرتين.

القطع:

إذا ثبتت السرقة وجب القطع، والقطع معناه الإبانة فلا إجمال فيه.

نعم وقع الخلاف في تحديد المقطوع بعد الاتفاق على أنه اليد اليمنى. فما عليه المذهب الحق أنها تقطع أصابعه الأربعة من أصولها ويترك الإبهام وراحة الكف...

فإذا سرق ثانياً قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم وترك له العقب ليعتمد عليه حالة المشي وإذا سرق في المرة الثالثة خلّد في السجن.

وهذه العقوبة الصعبة ترتبت على فعل السارق والسارقة كما قال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ أي جزاء فعلهما السيء والقبيح.

﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي عقوبة فرضها الله لتردعه عن فعله وتؤدب غيره ممن تسوّل له نفسه فعل ذلك. . .

ثم إن السرقة التي يترتب عليها قطع اليد لا تكون إلاّ بمرافعة الغريم ـ المسروق منه ـ وطلب ذلك إلى الحاكم.

ولو ثبتت السرقة بشهادة عدلين أو الإقرار ثم عفى صاحب المال عنه فلا قطع ولو عفى بعد المرافعة فلا يعفى من القطع. .

كما أن المال المسروق يجب ردّه لصاحبه إن كان باقياً وإلاّ ردّ مثله أو قيمته والحدّ بالقطع لا يسقط حقوق الناس. . .

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والله عزيز مقتدر في انتقامه وعقوبته، حكيم في تشريعه وأحكامه ومنها تشريعه الحدود لردع المعتدين والمفسدين. . .

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

فمن تاب من بعد السرقة ورجع إلى الله وأصلح توبته ـ بأن استمر عليها وكان صادقاً فيها وكانت على وجهها ـ فإن الله يقبل توبته ويغفر حوبته ولا يؤاخذه بما كان منه.

إن مَنْ تاب من السرقة والتوبة منها: أن يأخذ قراره بعدم السرقة مرة أخرى ويندم على ما مضى منها.

ويردّ المسروق أو مثله أو قيمته أن من تاب حقيقة تاب الله عليه فقبل توبته وغفر ذنبه ولم يؤاخذه بما مضى.

ثم إنه سبحانه عقّب ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ هذا تعليل لما

سبق وأن الله من عادته كثرة المغفرة وكثرة الرحمة فتشمل رحمة الله ومغفرته مثل هذا الإنسان إذا زلّت به القدم فامتدت يده إلى مال غيره في حالة ضعف بشري عابر.

لطيفة أدبية:

يذكر الأصمعي كما في روضات الجنات للخنساري ج٥ ص١٤٦ يقول: كنتُ أقــرأ ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيجيبني أعرابي فيقول: كلام مَنْ هذا؟!

فقلت: كلام الله...

قال: أعْد فأعدت.

فقال: ليس هذا كلام الله فانتبهت فقرأت: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

فقال: أصبت هذا كلام الله.

فقلت: أتقرأ القرآن؟

قال: لا.

فقلت: فمن أين علمت؟

فقال: يا هذا عزَّ فحكم فقطع ولو غفر ورحم لما قطع.

أعمى المعرّة:

يروى أن أبا العلاء المعري وقف موقف المستغرب لهذا التشريع الإلهي، فقال:

يد بخمس مئين عسجدٍ وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينارِ

فأجابه الشريف الرّضي شعراً، بقوله:

عزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها ... ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

وأجابه الشريف المرتضى بقوله:

هي ثمينة ما دامت أمينة ... فلما خانت هانت

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

التفسير

الخطاب موجه إلى رسول الله ﷺ أو إلى كل أحد ممن يصلح له الخطاب.

الآية تبيّن أن الله سبحانه الذي يملك السماوات والأرض وطبعاً يملك ما فيهما وما بينهما له صلاحية تعذيب من يستحق العذاب من العصاة، كما أن له أن يغفر لمن يكون قابلاً للمغفرة إذ المغفرة لا تكون بالاستحقاق بل هي نمط رحمة فهو يملك حق العقوبة وحق العفو لمن يستحق ذلك ولا يمكن لغيره أن يملك هذا الحق أو يقدر على القيام به. وهذا يتوافق مع قول الإمام زين العابدين عليه السلام: «لو عبدتك حتى تسقط أشفار عيني ما استحققت محو ذنبٍ من ذنوبي».

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه العاصي بمعصية عن أن يأخذه ولا يعجزه العفو عن التائب وهو القادر على ذلك.

قيل: أنه سبحانه قدّم العذاب قبل المغفرة لأن المقام مقام عقوبة وانتقام فاستحق التقديم ملاحظة للحال...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْحُزْن﴾: الحزن: خلاف الفرح.

﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: يبادرون مسرعين.

﴿هَادُوا۟﴾: اليهود.

﴿سَمَّٰعُونَ﴾: كثيرون السّماع.

﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾: لم يجيئوك.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾: يبدلونه أو يؤولونه بالباطل.

﴿مَوَاضِعِهِۦ﴾: أماكنه إمّا بحذفٍ إمّا زيادة أو نقيصة.

﴿أُوتِيتُمْ﴾: أعطيتم.

﴿فَاحْذَرُوا﴾: الحذر: احتراز عن مخيف.

﴿فِتْنَتَهُ﴾: الفتنة: الاختبار والامتحان لتظهر ما تنطوي عليه القلوب.

﴿يُطَهِّرَ﴾: الطهارة: النظافة وقد تكون مادية وأخرى معنوية.

﴿خِزْيٌ﴾: الخزي: الذل والعار والفضيحة.

التفسير

سبب النزول:

يروى في سبب نزول هذه الآية أن امرأة من «يهود خيبر» ذات شرف بينهم زنت مع رجل من أشرافهم وهما محصنان فكرهوا رجمهما فأرسلوا إلى يهود المدينة وكتبوا إليهم أن يسألوا النبي ﷺ عن حكمهما طمعاً في أن يأتي لهما برخصة، فذهب جماعة من أشراف اليهود إلى النبي ﷺ وسألوه عن ذلك فأفتاهم بوجوب الرجم فأنكروا ذلك، فاستدعى النبي ﷺ أعلم علمائهم وناشده الله أن يكشف الحقيقة فأبانها كما قال النبي ﷺ.

وهناك روايات أخرى تروي سبب نزولها بقصص ووقائع أخرى ولكنها في النهاية تحكي روحاً واحدة تكشفها الآيات وتدل عليها الكلمات.

وصدر الآية بدون شك يراد بها المنافقون ويكون سبب النزول الذي قدمناه وارداً في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ إلى آخر الآية...

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ الخطاب موجه إلى النبي ﷺ خاطبه الله بصفة الرسالة تسلية له وتعظيماً لمقامه وتعليماً للمؤمنين أدب الخطاب مع النبي ﷺ.

ولم يخاطبه الله بهذه الصفة إلاّ في هذه الآية وفي الآية ٦٧ من السورة نفسها، «المائدة» في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾(١).

خاطبه سبحانه بهذه الصفة إشعاراً له بما يوجب عدم الحزن، حيث أن النبي ﷺ كان يتألم للذين يرمون أنفسهم في النار ويتمنى أن يهديهم الله عزّ وجلّ من أجل إنقاذ أنفسهم... إنه يعيش مستقبلهم الأليم فيعزّ عليه أن يراهم في العذاب فكانت نفسه الطاهرة تتألم لهذا المشهد الرهيب...

يا أيها الرسول لا تحزن أو تتأثر من فعل هؤلاء المنافقين الذين لم يؤمنوا إلاّ بأفواههم... إن إيمانهم لم يتجاوز ألسنتهم وأفواههم ولم يدخل قلوبهم ولم يتأثروا به... إنهم في قلب الكفر وفي عمقه ويبادرون إمعاناً منهم في هذا الكفر إلى أسفل دركاته...

إن سبب حزن النبي ﷺ عليهم إنما هو مسارعتهم في الكفر حيث كانوا لا يتركون باباً من أبواب الانحراف إلاّ ويسارعون إليه ويدخلون فيه، فأنت يا رسول الله! أهملهم ولا تتأثر نفسك كثيراً عليهم...

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ هذا عطف على الذين آمنوا بأفواههم.. فهؤلاء اليهود يسمعون الكذب الذي ينقله الأحبار منهم والمنافقون من غيرهم الذين كانوا يكذبون عليهم في تحريف صفات النبي ﷺ.

وفي الأحكام الواردة في التوراة... إنهم كانوا يؤمنون بما يستمعون من هؤلاء الكذبة، فلذا تحرّفت التوراة وأنكروا رسالة النبي محمد ﷺ وما جاء به من عند الله...

ذمّهم سبحانه لكثرة استماعهم للكذب مع علمهم أنه كَذِبٌ، أو إنهم يستمعون إليك ليكذبوا عليك فيما يستمعون منك.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ

---

(١) المائدة/ ٦٧.

مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ وهـؤلاء الـيـهـود الموجودون في المدينة الذين كلّفهم يهود خيبر بالسؤال من النبي ﷺ عمّن زنيا وحكمهما، هؤلاء الحاضرون في المدينة يسمعون من أولئك الذين لم يأتوا إليك ويريدون أن تحكم لصالح الشريفين منهم وليس عليهما. . .

ثم وصف أولئك القوم بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ أي يقلبون الأحكام عندما يقلبون الكلام. . . وينقلون الحكم إلى غيره. . فهم قد غيّروا الرجم إلى الجلد نظراً لحفظ مكانة الوجهاء فيهم. .

إن التوراة بالرغم من نزولها بالرجم للزاني المحصن ـ رجلاً أو امرأة ـ فإنهم بدّلوا ذلك وغيّروه، وهذا زيادة تشنيع وتوبيخ لهم حيث أنهم يعلمون استقرار الأحكام وثبوتها نصاً صريحاً في حكم أو قضية ومع ذلك يحرفونها عن ذلك ويقلبونها عن واقعها وما تحمله.

ثم ينقل سبحانه ما قاله البعيدون للمكلفين من قبلهم بالسؤال ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ إن أعطاكم النبي فتوى بالجلد على الشريفين ﴿فَخُذُوهُ﴾ اقبلوا ذلك منه وارضوا به.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ إن لم يعطكم النبي فتوى بالجلد فاحذروا قبول ذلك أو الرضا به بل ارفضوه وردُّوه عليه. . .

إنهم يريدون أن يُخضعوا الأحكام ـ أحكام الله ـ لأمزجتهم وأهوائهم وما يشتهون ـ ولا يريدون أن يعودوا لأحكام الله كما نزلت وكما أراد الله تطبيقها وتنفيذها في المجتمع.

ويردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

إرادة الله لعذاب هذا المنحرف ـ أن يتركه وما يختار ـ وطبعاً باعتبار أنه اختار الشر والرذيلة وتحريف كلام الله والاستماع للكَذَبَة والمنحرفين، فهو في العذاب لاختياره لهذا الموقع، ولا يملك أحد أن ينقذه من عذاب الله بعد أن اختاره هو بملىء إرادته وكمال حريته.

إن هؤلاء اليهود صمّموا أن يتركوا كلام الله المنزل وشريعته الواضحة في عملية الزنا من المحصن بالرجم، فهم قد أقدموا على العذاب ولن يمنعهم الله عن ذلك بالقوة لأن التكاليف كلها مأخوذ فيها الاختيار وحرية الإرادة ومن اختار ذلك عن علم وإرادة لن يقف أحد حاجزاً بينه وبين عذاب الله. . .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ﴾ أولئك الذين تدنسوا بالكفر والمعصية وتحريف كلام الله، تركهم الله وأنفسهم فلم يُرِدْ أن يطهّر قلوبهم بالقهر والقوة أو يسير بهم خلاف ما اختاروا لأن ذلك يتنافى والتكليف ومتطلبات المسؤولية. . .

﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ﴾ وهي الفضيحة التي كشفها النبي ﷺ من أحكام التوراة في وجوب الرجم على الزناة المحصنين حيث انكشف كذبهم وتحريفهم لكلام الله وأحكامه. . .

﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مع خزي الدنيا لهم في الآخرة عذاب النار وهو عذاب ليس هناك أعظم منه على الإطلاق فإنه يفوق كل تصوّر أو تعقّل. . .

قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلسُّحْتِ﴾: أصل السحت: الهلاك ومنه قوله تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ وهنا يراد به الحرام لأنه يذهب بالطاعات والحسنات.

﴿فَٱحْكُم﴾: فافصل.

﴿أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: تولى عنهم واصرف وجهك عنهم فلا تحكم لهم.

﴿يَضُرُّوكَ﴾: الضر: مقابل النفع، والضر: سوء الحال إما في نفسه وإما في بدنه وإما في حاله.

﴿ٱلْقِسْطِ﴾: بالعدل.

التفسير

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أعاد سبحانه وكرّر وأكد هذا الوصف لهم لأنهم مع علمهم بالكذب فهم يستمعون ويعملون بمقتضاه فكان الذّم لهذه الجهة.

﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ فهم يأكلون الحرام من خلال الرشوة والربا وغيرهما.. إنهم يأكلونه كثيراً ويرغبون فيه.

ثم بيّن سبحانه لنبيه الطريق السليم إذا ترافعوا إليه في قضية جديدة فأعطاه حق الاختيار بحسب المصلحة، فإن شاء حكم بينهم وإن شاء رفض ذلك وأعرض عنهم ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ثم ضمن سبحانه له إذا أعرض عن الحكم بينهم أن يحفظه ويصونه من كل ضرر فلن يستطيعوا إيذاءه أو الإضرار به ولو بأبسط ما يكون الضرر فلا ينظر إلى هذه الجهة أو يهتم بها لأنه مصان منها.

﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ كما أنه سبحانه أخذ على نبيه أن يحكم بينهم إذا اختار الحكم أن يحكم بينهم بالعدل الذي هو حكم الله المنزل كما في كتبه وكلامه.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ إن اخترت يا رسول الله! أن تحكم بينهم فليكن الحكم بينهم بالعدل...

ثم عقّب ذلك سبحانه ترغيباً وتبياناً، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ الله سبحانه يحب الذين يحكمون بالعدل وأنت يا رسول الله! خير من حكم بالعدل وأعز محبوب عند الله وأقربهم عنده...

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: الكتاب المنزل على موسى عليه السلام.

﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾: يعرضون.

﴿هُدًى﴾: الهداية: دلالة بلطف، قال الراغب: والهدى والهداية في موضوع اللغة واحد لكن خصّ لفظة الهدى بما تولاه هو.

﴿هَادُوا۟﴾: اليهود.

﴿ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾: مفرده رباني نسبة إلى الرب وهو الذي يعلّم الناس ويربيهم.

﴿ٱلۡأَحۡبَارُ﴾: جمع حبر: وهو العالم بأحكام الدين عند اليهود سمي بذلك لتَحبير الكلام وتحسينه.

﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾: بما طلب إليه حفظه والائتمان عليه.

﴿شُهَدَآءَ﴾: رقباء وحفاظاً.

﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ﴾: الخشية: خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه.

﴿بِـَٔايَٰتِي﴾: الآيات: هنا يراد بها كلامه سبحانه وما أنزله على نبيه موسى.

﴿كَتَبۡنَا﴾: أوجبنا وحكمنا وفرضنا.

﴿ٱلنَّفۡسَ﴾: يراد بالنفس: الإنسان وإن من قتل إنساناً قُتل به.

﴿ٱلۡعَيۡنَ﴾: عضو النظر والبصر.

﴿وَٱلۡأَنفَ﴾: عضو الشم.

﴿وَٱلۡأُذُنَ﴾: عضو السمع.

﴿وَٱلسِّنَّ﴾: جمعه: أسنان وهو ما يمضغ به الإنسان طعامه.

﴿وَٱلۡجُرُوحَ﴾: جمع الجرح: وهو أثر داء في الجلد ـ والشق ـ يصيب البدن.

﴿قِصَاصٌ﴾: القصاص: تتبع الدم بالقَود.

التفسير

﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾.

هذا استفهام فيه تعجب من فعلهم الذي لا يستند مستنداً صحيحاً ولم يكن على موازين العقلاء الذين درجوا عليه؟

كيف يحكمونك يا رسول الله! وعندهم التوراة يوجد فيها حكم الله نصاً صريحاً ثم يعرضون عن حكمك بعد صدوره لأنه لم يوافق هواهم ولم يتفق وما

يتطلعون إليه من تخفيف الرجم إلى الجلد على من زنا وكان محصناً . . . إنه من أعجب العجب أن يكون الحكم عندهم وفي كتابهم ثم يتركونه ويأتون إليك لتحكم بينهم وعندما تحكم بالحق يعرضون عن ذلك ويتركونه ولا يعملون به . . .

أبداً لم يكن قصدهم عندما حكّموك إرادة الحق المنزل من عند الله وإنما أرادوا التخفيف في الحكم ولو كان على غير حكم الله وحكم الحق . . .

ولا يخفى أن قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ معطوف على ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾ داخل في حكم التعجب . .

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نفي عنهم الإيمان لعدولهم عما في التوراة من الحكم بالحق ولإعراضهم عن حكم النبي لمّا حكم بينهم بالحق، فهم لم يؤمنوا بالأنبياء الذين تقدموا ولم يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ . . .

وقوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ جيء باسم الإشارة إيماءً إلى العلة التي بها لم يكونوا مؤمنين، وتحقيراً لهم وكأنهم أمامه يشير إليهم . . .

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ بيان لمنزلة التوراة العظيمة وعلوّ شأنها، فإنها منزلة من عند الله، وهو الذي أنزلها كما أنزل كل كلامه وكتبه وفيها الهدى الذي يرشد الناس ويهديهم إلى الحق والصواب، وكما أن فيها النور الذي يكشف الأحكام التي تحتاجها البشرية وتُوضّح من خلالها كل الإشكالات والالتباسات التي يمكن أن تقع بين الناس . . .

﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ بهذه التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام يحكم بها النبيون - موسى عليه السلام ومن بعده - لأنها أحكام إلهية نزلت لإصلاح الناس، وقد وصفهم الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ أي انقادوا لأحكام الله وأطاعوه فيما أحب وأراد ولا غرابة في وصف النبيين بأنهم أسلموا وانقادوا لله، فإنها صفة رفيعة عالية على مستوى العبودية التي وصف الله بها أشرف خلقه محمد ﷺ عندما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[1].

---

(١) الإسراء/ ١.

﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ فهؤلاء النبيون المنقادون لله يحكمون بهذه التوراة لهؤلاء الذين هادوا لـ«اليهود» الذين آمنوا بها وأرادوا الحق والصدق في الحكم...

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾.

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ معطوف على ﴿النَّبِيُّونَ﴾ والربّانيون المنسوبون إلى الرب لروحانيتهم وشفافيتهم. والأحبار هم: العلماء، فهؤلاء على سيرة النبيِّين في حكمهم بالتوراة كما هي وكما جاءت أحكامها من عند الله..

إن الله استودع هؤلاء ـ الربانيون والأحبار ـ كتابه التوراة وأمرهم أن يكونوا أمناء عليه يمنعون الأيدي أن تتلاعب به تحريفاً أو تخريباً أو حذفاً أو زيادة أو إسقاطاً أو غير ذلك... إنهم أمناء على حفظه ورعاية أحكامه وكانوا بحق وصدق شهداء عليه رقباء باستمرار يمنعون الأيدي الأثيمة أن تمتد إليه بسوء...

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ الخطاب لرؤساء اليهود نهاهم أن يخشوا الناس ويخافوا كلامهم فيعدلوا عن الأحكام الصحيحة النازلة في التوراة أو يكتموا صفات النبي مخافة منهم أن ينزلوهم عن مراتبهم أو يتخلوا عنهم.

ثم دعاهم إلى خشيته فقط، فإن من خاف الله واستعظم شأنه كفاه الله كل أموره في الدنيا والآخرة...

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هذا إشارة إلى ما كانوا عليه وفيه نهي لهم أن يبيعوا كلام الله وأحكامه بشيء من الدنيا ـ ومهما غلت الدنيا وما فيها ـ فهو ثمن حقير قليل مقابل الآخرة وما فيها من نعيم يفوت وعذاب عظيم.

إن من استبدل الأحكام الواردة في الكتاب بالمال أو الجاه أو السلطان أو أي شيء من أشياء الدنيا فهو قد باع الآخرة بشيء قليل تافه زهيد، والعاقل لا يرغب في مثل ذلك ولا يقدم عليه إلاّ لشك في تلك الآخرة وما فيها وما أعدّه الله لروادها أو لأن الدنيا أعمت بصره فلم يعد يرى سواها...

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الحكم بالكفر عام لكل

من لم يحكم بما أنزل الله سواء كان إنكاراً لأحكامه تعالى أو تعطيلاً لها أو استهانة بها وازدراء بصلاحيتها...

ويدخل تحت هذا من يعطل أحكام الله ويستبدلها بغيرها من القوانين الوضعية التي اجتهد فيها البشر وكانت مخالفة لأحكامه تعالى...

وقد وردت روايات في هذا المعنى.. منها ما ورد في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من حكم في درهمين بغير ما أنزل الله عز وجل ممن له سوط أو عصا فهو كافر بما أنزل الله عز وجل على محمد ﷺ.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ فرضنا وأوحينا في التوراة أن النفس البشرية إذا اعتدت عليها نفس فقتلتها بدون حق يقتص منها قتلة بقتلة فالنفس تقتل بالنفس.

﴿وَكَتَبْنَا﴾ - عُدّي - بعلى لتضمنه معنى الحكم أي حكمنا عليهم بذلك والباء للبدلية «والعين بالعين» إذا فقئت العين ظلماً وعدواناً بدون حق اقتص من الجاني بفقيء عينه..

﴿وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ﴾ فإذا جدع أحد أنف أحد ظلماً وعدواناً يجدع أنفه قصاصاً.

﴿وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ إذا صلمت أذنه وقطعت تقطع أذن المعتدي.

﴿وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ أي يقلع السن بالسن إذا كان القالع الأول معتدٍ ظالم...

﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ إذا اعتدي على أحد بالجرح فالقصاص من المعتدي جرحاً مثله يحكم به أصحاب الخبرة تقديراً وكيفية القصاص...

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أي فمن عفا عن حق عمّن له حق الاقتصاص منه فهو كفارة له يكفر الله بها عنه ذنوبه وخطاياه...

هذا ترغيب في العفو ودعوة إلى التسامح والتعبير عن ذلك «بالتصدّق» للمبالغة في الترغيب...

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ من لم يحكم بما أنزل

الله بكل ما أنزل الله سواء كان الحكم في قضية صغيرة أو كبيرة، ومنها عدم الحكم الذي كتبه الله في القصاص والحدود فأولئك هم الظالمون للحقيقة وللحكم الشرعي ولأنفسهم من حيث تركوا حكم العدالة واتبعوا الانحراف والظلم. . .

وحكم سبحانه بالظلم هنا لمخالفة الحاكم حكم الله تعالى عملاً وسلوكاً وتطبيقاً، بينما كان الحكم بالكفر - في الآية السابقة - إنما لأجل الإنكار وعدم الإيمان والتصديق بتلك الأحكام، فيكون الكفر لعدم الاعتقاد بها وللجحود والإنكار.

قــال تــعــالــى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

اللغة

﴿قَفَّيْنَا﴾: اتبعنا وعقّبنا.

﴿ءَاثَٰرِهِم﴾: مفرده الأثر، وهو ما يظهر من العمل حسّاً أو ما يحصل من الشيء مما يدل عليه، وآثار القوم: ما أبقوا من أعمالهم..

﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾: أعطيناه.

﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾: الكتاب المنزل على نبي الله عيسى عليه السلام.

التفسير

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أرسلنا عيسى بن مريم بعد الأنبياء وأتبعناه بهم فجاء خلفهم مصدقاً شاهداً بصدق التوراة التي سبقته وتقدمت عليه...

وكل نبي يأتي لا بد وأن يصدّق الأنبياء الذين سبقوه ويصدّق بما جاءوا به من كلام الله . . .

وقفى: تتعدى بنفسها وبحرف الباء، فتقول: قفا فلان أثر فلان: إذا أتبعه، وتقول قفيته بفلان: أي أتبعته إياه.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أنزلنا على عيسى عليه السلام الإنجيل فيه الهدى الذي يهدي إلى الحق ويكشف الظلمات ويرفع الإشكالات ويحلّ المبهمات. . .

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فالمسيح عليه السلام جاء مصدقاً ومعترفاً أن التوراة هي من عند الله، هو سبحانه الذي أنزلها وأمر بالعمل بها، وقالوا: إن هذا التكرار لأجل زيادة التقرير.

كما أن هذا الإنجيل هو الهدى الذي يهدي الناس إلى الحق ويرشدهم إلى سبل الخير. وكذلك هو الموعظة التي توقظ الضمير وتنفع المتقين من حيث يتأثرون بها فتشدهم إلى الله والخوف منه والرغبة بما عنده. . .

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ يأمر الله سبحانه من يدّعي أنه ينتمي إلى المسيح عليه السلام وأنه من أهل الإنجيل والمتبع له، يأمرهم أن يحكموا بما أنزل الله فيه من الحق والعدل ويظهروا الأحكام التي وردت فيه على الحقيقة دون تحريف أو صرف لها عن معناها الأصيل لأجل أهوائهم وشهواتهم. . .

وهذا الأمر بهذه الشدة يكشف أن النصارى كاليهود لم يحكموا بما أنزل الله في الإنجيل بل كانوا ينحرفون في الأحكام ويبدلونها على غير وجهها، وأهم ما أنزل الله في الإنجيل توحيده سبحانه ونفي الشريك عنه ونفي الولد والزوجة وكل أشكال الشرك وهذا قطعاً قد خالفه النصارى وجعلوا لله صاحبة وولداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ من لم يحكم بحكم الله وبما أنزله فأولئك هم الفاسقون الخارجون على أحكام الله المتمردون عليها، وإذا كان عدم حكمهم بما أنزل الله شكاً فيه فهو الكفر وعليه يكون الفسق، هنا بمعنى الكفر.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

اللغة

﴿وَمُهَيْمِنًا﴾: المهيمن: الرقيب على الشيء الحافظ له.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾: يقال: تبعه واتبعه: إذا قفا أثره.

﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾: الهوى: ميل النفس إلى الشهوة.

﴿شِرْعَةً﴾: الشرعة: السّنة والطريقة، يقال شرع لهم: أي سنّ لهم.

﴿وَمِنْهَاجًا﴾: المنهاج: الطريق الواضح.

﴿أُمَّةً﴾: جماعة.

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾: ليختبركم.

﴿آتَاكُمْ﴾: أعطاكم.

﴿فَاسْتَبِقُوا﴾: تسابقوا وتسارعوا.

﴿الْخَيْرَاتِ﴾: هي العقائد السليمة والأعمال الصالحة، والخير كما يقول الراغب: ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلاً والعدل والفضل، والشيء النافع. ضده الشر، ويطلق على المال إذا كان كثيراً.

﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مآلكم ومعادكم.

﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: فيخبركم ويعلمكم.

﴿تَخْتَلِفُونَ﴾: تتنازعون.

﴿يَفْتِنُوكَ﴾: يميلوا بك من الحق إلى الباطل.

﴿تَوَلَّوْا﴾: أعرضوا وأدبروا.

﴿يُصِيبَهُم﴾: يدركهم ويلحق بهم، وأصاب السهم: إذا وصل إلى المرمى بالصواب.

﴿ذُنُوبِهِمْ﴾: خطاياهم ومعاصيهم.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: هو كل حكم يخالف حكم الله.

﴿يَبْغُونَ﴾: يطلبون.

التفسير

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

فيما مضى ذكر سبحانه التوراة والإنجيل ووصفهما بالهدى والنور، وهنا يذكر القرآن والنبي محمد ﷺ باعتباره المكمّل لرسالات الأنبياء والمختوم به فلا نبي بعده...

﴿وَأَنزَلْنَا﴾ أضاف الإنزال إلى نفسه سبحانه تعظيماً له وترغيباً في قبوله والخطاب إلى النبي..

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو القرآن بالحق عقيدة وشريعة وأحكاماً.. أنزلناه حال كونه بالحق وفي الحق ومن الحق...

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ فهو مصدق لما تقدم عليه من التوراة والإنجيل وكل الكتب المنزلة باعتبار أنها كلام الله ومنزلة من عنده.. إن القرآن يصدّق ويحكم بصحة كل ما جاء من عند الله من كتب - إذا لم يطرأ عليها التحريف - ولم تعمل فيها أيدي الكذبة والدجالين..

إن القرآن يصدّق التوراة والإنجيل وكل الكتب الإلهية يُصدّقها في توحيد الله ونفي الشرك ويصدّقها في النبوات وفي الإيمان بيوم القيامة... كما يصدّقها في الأحكام التي لم تتلاعب بها الأيدي الآثمة كرجم الزاني المحصن وقتل القاتل وحرمة السرقة والربا، وهكذا. فهو مصدّق لها ومهيمن عليها يحفظها ويحفظ أحكامها المنزلة كما هي... فهو المرجع الصالح لبيان صحة تلك الكتب كما أنه الشاهد على سلامتها من التحريف أو على التحريف...

وهيمنة القرآن على غيره من الكتب فلأجل أنه الوثيقة الأخيرة والوصفة النهائية لهذا الإنسان فهو الذي يرفع بعض التكاليف التي وردت في الكتب السابقة وينسخ بعضها ويؤسس لتكاليف ستستمر إلى آخر أيام الدنيا..

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ إقض بينهم - بين الناس - أو بين اليهود بحكم الله المنزل عليك فإنه الحق، ولا تعدل عن ذلك أو تميل عنه إلى أهوائهم الباطلة المخالفة للحق، فإنّ أمنيتهم أن تصبح مثلهم بعيداً عن الحكم بالحق...

وفي الآية بيان للنفوس الصغيرة التي يحملها اليهود وكيف تتمّ محاولاتهم من أجل ليّ النبي عمّا هو عليه من الحق وصرفه عنه إلى أهوائهم وما يرغبون..

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ لكل أمة من الأمم فيما تقدم جعل طريقة معينة أنزل الله تنظيمها وتقويمها ووضع الأحكام التي تصلحها وتنفعها. . .

إن كل أمة محكومة بحسب الظرف التي تعيشه وبحسب وضعها الثقافي وقابليتها وما تتمتع به من قدرات وطاقات، فلذا كانت الشريعة تأتي بحسب تلك الظروف والقابليات والقدرات العقلية والمؤهلات.

وبهذا امتازت أمّة موسى عليه السلام عن أمة عيسى عليه السلام فأنزل سبحانه على الأولى التوراة وأجرت عليها أحكاماً تتوافق ومصالحها وما ينفعها، وأنزل الله على أمة عيسى عليه السلام الإنجيل وجعل فيه الأخلاق والآداب والروحية العالية التي افتقدها بنو إسرائيل جراء لهاثهم وراء المادة وتشبعهم بها ورغبتهم الشديدة بتحصيلها. .

وأخيراً جاءت الأُمة المسلمة، فكان القرآن هو الكتاب المنزل على نبيها محمد صلى الله عليه وسلم وجاءت بأعلى وأغلى تشريعات تتوافق مع طبيعة الإنسان كإنسان فجمعت كل خصائص العقيدة الصحيحة والتشريع السليم، وبهذا كانت الشريعة الخاتمة التي لا تنسخها شريعة ولا تأتي عليها الأزمنة إلاّ تجدداً وتقدّماً. . .

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لو تعلّقت مشيئة الله ـ وكان في ذلك مصلحة ـ لجعلكم جماعة واحدة متفقة في الأحكام والتشريعات ولجعلكم أصحاب عقول واحدة غير مختلفة، ولكن مشيئته لا تتعلق إلاّ بما فيه المصلحة لأنه الحكيم العليم الخبير. . .

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ جعل لكل أمة شرعة ليختبرها بما أعطاها وأنزل عليها، فإن آمنت وصدّقت وعملت فقد اهتدت وأفلحت، وإن كفرت وكذّبت وأهملت فقد تنكّبت الطريق وخسرت وشتان ما بين الجماعتين والقبيلتين. . .

﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ سارعوا وبادروا إلى فعل الخيرات وعمل الطاعات، فإنها الذخيرة النافعة في يوم المعاد يوم يقوم الناس للحساب وأخذ الجزاء. . .

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إلى الله مآبكم وإليه ميعادكم سترجعون إليه وتفتح كل ملفاتكم فيخبركم سبحانه بكل أمر كنتم فيه

تختلفون في دار الدنيا فيجازيكم بما تستحقون من صالح الأعمال أو عمل طالح وهذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أعاد سبحانه الأمر إلى النبي ﷺ أن يحكم بين اليهود - أو بين الناس - بما أنزل الله من أحكام صادقة صادرة عن الله سبحانه لم تتلاعب بها النفوس الضعيفة ولا الأيدي الآثمة...

المطلوب من النبي ﷺ أن يحكم بما أنزل الله وكما أنزل حُكماً، فصلاً، عدلاً، صدقاً وحقاً...

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ حذره من اتباع أهواء الذين كفروا من اليهود - أو من الناس - الذين يريدون أن يكون الحكم لصالحهم... إن أهواءهم تخالف الحق وتخالف ما أنزل الله إليك من أحكام، فلذا لا تتبع أهواء هؤلاء القوم...

والخطاب للنبي ﷺ والمراد به كل مسلم تولى الحكم وأعطي السلطة من حيث أن النبي ﷺ معصوم لا يمكن أن تؤثر أهواؤهم عليه وعلى الحكم الصادر منه...

﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ تنبّه يا محمدا من مكائد هؤلاء اليهود أن يصرفوك عن بعض ما أنزل الله إليك من أحكام، فتظن بهم الخير وأنهم يطلبون الإيمان والحق، وهذا التحذير لنبيه ﷺ يدل على مدى الكيد من اليهود ومدى المحاولات الحثيثة لكي يُحرِفوا النبي ﷺ عن أحكام الله إلى ما يوافق أهواءهم.

إن اليهود كانوا يكيدون للنبي ﷺ ويسعون للتشكيك في دينه ورسالته. وينقل أصحاب التفاسير أن أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد! قد عرفت إنّا أحبار اليهود وإنّا إن اتبعناك اتّبَعَنا اليهود كلهم وأنّ بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك! فأبى ذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآية:

وعلى كل حال سواء صح سبب النزول أم لم يصح فالآية تحكي محاولات

اليهود في صرف النبي ﷺ عن بعض القضايا التي أنزلها الله، وحاولوا أن يلووا به نحو ما تريد أهواؤهم فأبى النبي ﷺ أن يَلينَ لهم أو أن يساوم على ما أنزل الله عليه من الحق...

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ هذا تحذير لهم إن هم خالفوا ما يحكم به النبي ﷺ.. فإن تَوَلّوا ـ أعرضوا عمّا حكمت به مما أنزل الله ـ فإنهم بإعراضهم هذا يكتسبون ذنوباً سيلحقهم من جرائها عقوبات رادعة، كما أن ببعض ذنوبهم التي اقترفوها كانت تتوالى عليهم العقوبات والنكبات..

والتعبير ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ لعله إشارة إلى ما أرادوه من النبي فلما لم تستجب لهم تَوَلّوا عنه فعبّر عن ذلك تنبيهاً إلى أن لهم ذنوباً كثيرة وهذا واحد منها...

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ إنَّ كثيراً من الناس متمردون عاصون لا يطيعون الله إلا بما يخدم أهواءهم ويحقق أغراضهم...

وهذه الآية يجب أن تدفع المؤمنين إلى التأكد من سيرة الناس وطريقة تديّنهم وأن لا يغتروا بالكثرة التي تتبنى رأياً أو تذهب إلى طريقة فتكون الكثرة حجة على صحة ما تذهب إليه... إن من الخطأ القاتل أن تحكم على صحة أمرٍ لمجرد أن أكثرية الناس معه أو تذهب إليه فربما مشت بحسّ القطيع وربما تحركت معه لمصالحها وربما ابتدأت متابعة خوفاً واستمرت عادة، وهكذا.. فلا يجوز الحكم على أمرٍ أو مذهب أو طريقة إلاّ بعد دراستها وفحصها والبحث عنها حتى تنجلي الفكرة وتظهر صحتها من فسادها...

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ هذا استفهام إنكارٍ عليهم وازدراءٍ لهم، فإنهم إذا لم يقبلوا بحكم النبي ﷺ الذي أنزله الله عليه فلم يبقَ أمامهم إلا أن يطلبوا حكم الجاهلية وكل حكم غير حكم الله فهو حكم الجاهلية... يا للعجب لقوم يرفضون حكم الله فماذا يريدون؟!... أيريدون حكم الجاهلية الخاضعِ للأهواءِ والشهواتِ والقوةِ وشريعةِ الغابِ.. يريدون حكم الطاغوت الذي يخدم أهواءهم وميولهم ويشبع غرائزهم ونزواتهم؟!.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وهذا استفهامٌ على وجه الإنكار، وأنه ليس هناك أحسن من حكم الله أو أعدل منه لقوم يُصدّقون بالله وحكمته.

فالقومُ الموقنون المصدقون بالله ورسوله هم الذين لا يرونَ أَحسن وأكملَ وأتمَ من حكم الله فيأخذونه ويعملون به ولا يطلبون غيره مهما كانت ترغب فيه أنفسهم وتريده أهواؤهم.

وفي الكافي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: الحكم حكمان حكم الله وحكم الجاهلية، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وأشهد على زيد بن ثابت لقد حكم في الفرائض بحكم الجاهلية...

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾: الأخذ: تناول الشيء، وأخذ منه العلم: أي تناوله منه.

﴿أَوْلِيَاءَ﴾: أخلاء، وأصدقاء، وأحباب..

﴿مَّرَضٌ﴾: المرض: عدم اعتدال المزاج ـ وهنا يقصد به النفاق.

﴿يُسَارِعُونَ﴾: يبادرون.

﴿نَخْشَىٰ﴾: الخشية: خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه.

﴿دَائِرَةٌ﴾: واحدة الدوائر: وهي صروف الدهر ونوازله.

﴿أَسَرُّوا﴾: الإسرار: خلاف الإعلان، والسرّ: هو الحديث المكتم في النفس.

﴿نَدِمِينَ﴾: الندم والندامة: التحسّر من تغيّر رأي في أمر فائت.

﴿أَقْسَمُوا﴾: القسم: هو اليمين والحلف.

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: الجَهدُ والجُهد: الطاقة والمشقة، ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم.

﴿حَبِطَتْ﴾: بطلت وذهبت.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ في هذه الآية الشريفة يخاطب الله المؤمنين فينهاهم عن موالاة اليهود والنصارى، ومعنى الموالاة المنهي عنها.. أن يتخذ المؤمنون اليهود والنصارى أحبةً لهم وموضع ثقتهم يتولون شؤونهم وينوبون منابهم في إدارة شؤونهم والقيام بأمورهم...

وقد أشار سبحانه إلى علّة ذلك بقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فهم حلفاء بعضهم يقفون صفاً واحداً في مواجهة الحق وإعلان الحرب عليه إنهم يدٌ واحدة في حبك المؤامرات ودسّ الدسائس وزرع الفتن، فالكفر ملّة واحدة في مواجهة الإسلام وأهله...

ونحن قد رأينا ما بينهما ـ بين اليهود والنصارى ـ من عداء، ولكنهم يتوحّدون في مواجهة الإسلام وأهله ويتفقون على ضربه والقضاء عليه.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ هذا إنذار وتشديد شديد في مباينة اليهود والنصارى وأن من يتولاهم من المؤمنين ويعطيهم محبته وثقته وتصريف شؤونه وإدارة أموره فهذا يكون منهم وهذا تنزيل لمن تولاهم منزلتهم ويأخذ حكمهم في الكفر ويكون قد ظلم نفسه كما ظلموا أنفسهم خصوصاً في بداية الإسلام ونشوء مجتمعه الذي يفرض على كل فرد أن يكون إلى جانب أخيه من المسلمين تحت قيادة واحدة هي قيادة النبي لئلا تتوزّع الطاقات ويتسلّل من خلال بعض الثغرات بعض المندسّين فيؤثّرون على وحدة المسلمين ووحدة كلمتهم...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن الله يتخلى عمن يختار الظلم، ويتركه واختياره، لأنه سبحانه قادر على الرّدع، ولكن التكاليف منوطة بحرية الاختيار، ليتحمل المسؤولية كل مكلف، وبذلك حسن الثواب والعقاب وكانت الجنة والنار.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾.

هذه هي حالة المنافقين في كل عصر.. إنهم يريدون السلامة على كل حال، فلذا مع أنهم يَدّعون الإيمان ويعيشون في صفوف المؤمنين فإنهم يعقدون الاتفاقات مع الكفار ويربطون أنفسهم بهم في الواقع والعمق ويُصرّحون لهم عندما يختلون بهم بأنهم معهم ولكن المصالح والمنافع هي التي تحكمهم وتجعلهم في ذلك الطرف دون هذا الطرف...

إن المنافقين لا يقطعون علاقاتهم بالكفار بل يقيمونها بدقة وتنظيم وعن نظرة ساقطة يترفع عنها المؤمنون...

إن منطلق المنافقين وعمقهم يذهب إلى أنهم وإن كانوا مع المسلمين ظاهراً وفي صفوفهم كما يتراءى ولكنهم مع الكفر وأهله واقعاً إذ مَنْ يضمن لهم مصالحهم ومشاريعهم وتجاراتهم ومواقعهم إذا انقلبت الأمور وكانت لمصلحة الشرك والكفر؟!.

إنهم يخافون نوازل الدهر ونكباته وعثراته وسقطاته إذا حلّ ذلك بالمسلمين لمصلحة الكافرين فيحسبون حساب تلك الساعة، فلذا لا يتخلون عن الكفار ولا يقطعون علاقاتهم به بل يبقون القضيّة معلّقة ويتمنون انتصار الكفر على الإسلام والكفار على المسلمين...

والله سبحانه يحكي واقع هؤلاء المنافقين ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾ أي إنهم هم منهم ولكنهم ينتقلون في دركات النفاق ويحيكون المؤامرات بدقة وما عدوله سبحانه عن استعمال كلمة «إلى» يسارعون إليهم إلى كلمة «في» ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾ إلا ليقول أنهم منهم ولكن يتنقلون فيما بينهم وفي ضمنهم وفي مجتمعهم... إنه

مرض القلوب الذي يحمل معه الشك والتردد وهو بعض درجات الكفر والانحراف.

وحجة هؤلاء المنافقين ينقلها الله كما هي.

﴿نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ إنهم يخافون أن تنقلب الأمور لصالح الكفار، فإذا لم تكن لهم عندهم يد أو علاقات أو اتفاقيات فقد تسقط مصالحهم ويضر ذلك بواقعهم ويفقدون دورهم...

إن هذا المنطق السخيف قد أصبح نهجاً للكثيرين من الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم ويعيشون الشك والتردد ويفقدون مصداقيتهم في عداد الرساليين... بل تحولت دول وحكومات إلى هذا النهج ففقدت الإيمان بها وبحركتها وتوجهها...

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ﴾.

إنها بشرى للمؤمنين يزفّها الله لِيُطَمْئِنَ القلوب الطيبة التي أخلصت له، وأيضاً فيها بيان فساد ما يذهب إليه أولئك المنافقون...

عسى الله أن يأتي بالفتح: أي بالنصر العسكري الذي تنهزم فيه قوى الكفر والشرك سواء كان ذلك فتح مكة أو الانتصارات الأخرى... المهم أنه الفتح الذي يُعلي كلمة الله وكلمة المسلمين وتسقط عنده قوة الشرك والمشركين.

﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ تعلو كلمة الله فينتشر الإسلام ويدخل الناس فيه أفواجاً ويعمّ الإيمان ربوع الدنيا فيفتضح هؤلاء المنافقون وتظهر حقائقهم وتنكشف بواطنهم، وعندها...

﴿فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ﴾ فإذا علت راية الإسلام وانتصر وانتشرت عقائده وأحكامه وأسلم الناس، عندها سوف يأكل الندم نفوس هؤلاء المنافقين ويشعرون بكبر الخسارة التي مُنُوا بها جراء ما انطوت عليه نفوسهم من

شك وتردد ونفاق وما عقدوه في السر من علاقات بينهم وبين اليهود والنصارى...

وبدون شك من يعيش التذبذب والشك والتردد يعيش حياة قلقة غير مستقرة، يحسب كل صيحة عليه ويشعر أنه ملاحق باستمرار وعلى امتداد حياته وإن من أصعب حالاته عندما ينتصر الحق ويبسط سلطانه وتظهر قوائم العملاء وأسماء الطابور الخامس الذي كان يتحرك في الظلام ومن وراء الستار فلا شك عندها أن الندم سيأكل قلبه، وسيتأسف كثيراً عما كان منه وعن ممارساته الخاطئة التي كانت منه...

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴿٥٣﴾﴾ وعندما تنكشف الأوراق ـ أوراق النفاق ـ وتتضح الأمور بنصر المسلمين بالفتح الإلهي عليهم أو بإعلاء كلمة الله ونشر الإسلام، عندما يلتفت المؤمنون بعضهم لبعض. ويأخذهم العجب ويشدهم الاستغراب أن يكون هؤلاء المنافقون بهذه النفسية وهذا الموقف المشين.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ عجباً واستغراباً من تصرف المنافقين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أهؤلاء استهزاء بهم ومن مواقفهم.. أهؤلاء هم أنفسهم الذين كانوا يحلفون بالله ويؤكدون حلفهم ويشدّدون عليه بأغلظ الأيمان وأوكدها.

﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ هكذا كانوا يحلفون ويؤكدون قسمهم.. يحلفون أشد الأيمان أنهم معكم أيها المؤمنون.. إنهم يملكون ألسنةً حداداً لا تخاف الله ولا تراقبه أو تحسب له حساباً، فلذا تنطلق تلك الألسنة بأشد الأيمان لتؤكد على وحدتهم مع المؤمنين.

إن المؤمنين حقاً يُجِلّون الله عن القسم به، وإن كانوا محقين أمّا ضعفاء الإيمان وأهل الشك والريب يطلقون لألسنتهم العنان ويجعلون الله عرضة لأيمانهم يبيعون فيقسمون بالله ويشترون فيحلفون بالله، ولكل موقفٍ أو حركة أو سلوك يريدونه أو لا يريدون، يُدَعّمون ذلك الحلف بالله وبأوكد الأيمان.

المنافقون كانت طريقتهم أنهم يحلفون بالله وبأشدّ الأيمان، إنهم مع المؤمنين وفي صفوفهم لا يوالون غيرهم ولا يتحالفون مع أعدائهم، وأما الآن ـ بعد الفتح والإتيان بأمر الله ـ انكشفت الأوراق وتبيّن كذب إيمانهم، فأخذ المؤمنون العجب وراحوا يستهزؤن بهم وبما كانوا يقسمون به.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ بطلت أعمالهم بل لا أعمال لهم تقربهم من الله لأنهم صلّوا وصاموا وأدّوا الواجبات لغير الله... أدوها لدرء الخطر عنهم وليحفظوا خيوط رقابهم... أبداً لم يكن عملهم لله... بل ليس لهم عمل صالح يتقربون به إلى الله، وما ظهر من أعمالهم الصالحة كانت هياكل بدون حقيقة وشكلاً وصورة بدون معنى.

﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ خسروا الدنيا حيث كانت الدائرة لصالح المؤمنين على الكافرين وخسروا الآخرة لبطلان أعمالهم... إنهم خسروا الدارين وذلك الخسران المبين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَرْتَدَّ﴾: الارتداد: هو الخروج من الإسلام والدخول في غيره من الملل والنحل.

﴿أَذِلَّةٍ﴾: جمع ذليل: وهو المنقاد اللّين العطوف.

﴿أَعِزَّةٍ﴾: جمع عزيز، والعِزّة: الشدة والمنعة، والعزاز: الأرض الصلبة.

﴿أَذِلَّةٍ﴾: جمع ذليل: بمعنى العطوف اللين وليس بمعنى الهوان.

﴿لَوْمَةَ﴾: واحدة اللوم، واللوم: عذل الإنسان بنسبته إلى ما فيه لوم...

﴿يُؤْتِيهِ﴾: يعطيه.

التفسير

في الآية تهديد ووعيد للمؤمنين الذين يتركون الإسلام ويرجعون إلى الكفر...

والارتداد: أن يتخلى المسلم عن دينه وعقيدته وهذا يشكّل طعنة قوية للدين وتشكيكاً فيه وإساءة إلى المعتقد فيمتنع الناس عن الدخول فيه أو يتوقفون عن قبوله والرضا به أو حتى التفكير فيه ودراسته. ومن هنا كان للمرتد بقسميه - الفطري والملّي - من الأحكام الرادعة ما يكفيه، وهذا موكول إلى محله من كتب الفقه...

وعلى كل حال.. فالله سبحانه يحذّر المؤمنين من الارتداد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ وعقيدته التي يحملها ويعقد قلبه عليها ويتدين بها ألا وهو الإسلام فلن يضر الله شيئاً وهو غني عنه وعن إيمانه، وهذا هو الجواب للشرط وهو مفهوم من «الفاء» في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ﴾.

وبيّن سبحانه استغناؤه عن المرتد وعدم حاجته إليه. فالبديل جاهز باستمرار وأصحاب القلوب الطيبة التي تتقبل الإيمان وتعقد قلوبها عليه وتجاهد من أجل الدين. هؤلاء سيأتي الله بهم بديلاً عن المرتدّين يكونون أفضل منهم وأقوى عقيدة وأكثر جهاداً ودفاعاً عن الحق.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ هذه مواصفات القوم المستخلفين (عن المرتدين).. إنه الاستبدال بالأفضل والأعظم والأكرم، وما أجمل النسبة إلى الله وأنه سبحانه هو الذي يأتي بهم..

الله سبحانه سيختارهم على عينه يُربّيهم ويُوفّر لهم سُبلَ الهداية.. يرتقي بهم إلى درجة تؤهلهم إلى أن يختارهم لهذا الاستبدال ثم ذكر صفاتهم العالية وهي:

﴿يُحِبُّهُمْ﴾ ومحبة الله ثوابه وأجره وتوفير المقدمات التي بها يصبح العبد مؤهلاً لكل كرامة إلهية ومنحة ربانية..

ومن أحبه الله فيا سعداه ففي الدنيا يسعد وينجح وفي الآخرة تكون الجنة أقل حظوظه وأصغر جوائزه..

من أحبه الله اعتز واغتنى واكتمل وتسامى وجمع كل المكارم والفضائل

واستغنى بحب الله عن كل حب.. وهذا مخصوص في أفراد اختارهم الله لطيب ذاتهم وطهارة عنصرهم فكانوا الأنبياء والأئمة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام وبَعض الصالحين...

٢ ـ ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ إنهم قوم يحبون الله، وحب الله دعوى عريضة يصعب قبولها من كل أحد يدّعيها، ولكن القدر المتيقن أن عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو واحد ممن نص النبي صلى الله عليه وآله على أن الله يحبه وهو يحب الله، كما ورد ذلك عنه في فتح خيبر عندما عجز غيره عن فتح الحصن فعزّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وآله أن يرسل راية ولا تقدر على فتحه فقال صلوات الله وسلامه عليه مقولته التي لا يزال يدوّي صداها في عمق الزمن ويرددها الأجيال بكل افتخار، قال:

لأعطيَنَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كراراً غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه ثم دفعها إلى الإمام علي عليه السلام...

وفي لفظ البخاري من باب مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام القرشي الهاشمي، يقول: لأعطين الراية أو ليأخذنّ الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله أو قال يحب الله ورسوله يفتح الله عليه فإذا نحن بعلي وما نرجوه، فقالوا: هذا علي.

فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله ففتح الله عليه.

٣ ـ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أهل رحمة بالمؤمنين وعطف عليهم يلينون ويرفقون بهم ويخفضون جناحهم لجنابهم... وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾(١).

وليس المراد بالأذلة هنا أنهم مهانون بل مبالغة في وصفهم بالعطف والرّقة ولين الجانب للمؤمنين، وقيل: إن استعمال «أذلة مع حرف الجر ـ على» لأن كلمة ﴿أَذِلَّةٍ﴾ تتضمن معنى العطف أو للتنبيه على أنهم مع علو شأنهم وارتفاع مقامهم فهم خاضعون للمؤمنين...

(١) الفتح/٢٩.

ويبدو أن هذه الآية لا يتمتع بها إلا قلة قليلة من المتدينين فضلاً عن غيرهم.

فإننا نجد تكبّر المؤمنين على بعضهم واستعلاء الواحد على الآخر وامتناعه عن مساعدته أو خدمته بأبسط الأمور وأصغرها ويا ليت أهل الدين يقرؤون هذه الآية بدقة وهدوء وروية ويفكرون بها ثم يعملون بمضمونها لرأيت مجتمعنا بألف خير ولا نعكسَ ذلك تآلفاً وحباً ووحدة وانسجاماً.

٤ ـ ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أشداء عليهم أقوياء في مواجهتهم لا يلينون لهم ولا يستكينون في مقابلتهم وجهادهم... إنهم قوم يجمعون بين صِفتين: صفة الشدة والعنف على الكافرين، وصفة العطف ولين الجانب على المؤمنين.

٥ ـ ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجاهدون من أجل إعلاء كلمة الله ونشر دينه وهداية عباده، لا يطلبون مالاً ولا شهرة ولا استعلاءً ولا اعتداءً...

٦ ـ ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ فهم أشداء في دينهم أقوياء في عقيدتهم لا يلتفتون إلى أقوال الناس وتشكيكاتهم طالما أنهم لا يعملون إلاّ ما يرضي الله، وهكذا يجب أن يكون أهل الإيمان أن يجعلوا نظرهم إلى الله يتطلعون إليه ويسعون في سبيل رضاه لا يخافون ما تَقَوّلَهُ الناس عنهم ولا يتراجعون أمام الافتراءات والدعايات...

إن المؤمن أصلب من الجبال لأنه لم ينطلق في مواقفه إلاّ من عقيدة إلهية يفرضها الله عليه ولم يدخل في حرب إلاّ وأرادها الله منه ولذا لم يعد له علاقة بغير الله... انقطعت وشائج القربى والصداقة وسقطت المنافع والفوائد وكل شيء أمام هذا الهدف الرباني الكبير...

ولا يخفى أن الآية فيها تعريض بالمنافقين الذين كانوا يخافون الناس ويخشونهم...

إن الكثيرين منا يخافون حديث الناس عنهم بسوء... يخافون الاتهامات... يخافون تشويه سمعتهم.. يخافون سقوطهم عن مراتبهم... يخافون على معاشهم، وهكذا... وهذا يستدعيهم التراجع عن مواقفهم والتشكيك فيما

يذهبون إليه ويريدونه، هؤلاء ليسوا أهلاً للقيادة كما أنهم ليسوا من أهل هذه الآية. . .

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من استجمع تلك الصفات المتقدمة واتصف بها فذلك فضل من الله وإحسان منه يعطيه من يشاء من عباده ممن تؤهله ملكاته وأعماله لذلك.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ كثير العطاء والفضل لا يخاف نفاذ ما عنده عليم بمن يستحق ذلك فيفيض عليه من جوده وكرمه. . .

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿وَلِيُّكُمُ﴾: الأولى بكم والمتولي لأموركم.

﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: يُؤدُّونها كما يجب وقتاً وشكلاً ومن كل الجهات والنواحي بحيث تعطي أثرها..

﴿يُؤْتُونَ﴾: يعطون ويخرجون.

﴿رَٰكِعُونَ﴾: الركوع: هو الانحناء المعهود في الصلاة الذي وضعه الشارع كفعل من أفعالها...

﴿حِزْبَ ٱللَّهِ﴾: الحزب أصله من النائبة، وحزبه كذا: أي نابه، فكان أهل الحزب يجتمعون كما يجتمع أهل النائبة، وحزب الرجل: أصحابه.

آية الولاية:

هذه الآية المباركة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ تُسمّى آية الولاية.. وهي تعطي الولاية على الناس والقيام بأمرهم ـ يعني الآية تعيّن القيادة التي يجب

إطاعتها والتزام أمرها ويكون أمرها نافذاً لا يجوز مخالفته وهذا المعنى هو المستفاد من الآية المباركة، ولكن قبل بيان ذلك ينبغي أن ننقل ما ذُكر في أسباب نزولها فإنه يكشف الحقيقة ويوضح الأمور.

سبب النزول:

ما نذكره في سبب نزول هذه الآية ذَكَره الكثيرون من أئمة الحديث والتفسير وأصحاب السير وبطرق متعددة ومختلفة وكلهم ينهجون نهجاً واحداً، وأنا أنقل ما ذكره الثعلبي في تفسيره وذكره الرازي في تفسيره الكبير والنص هو: عن أبي ذر الغفاري قال: أما إني صليتُ مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام الظهر، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحدٌ شيئاً، فرفع السائل يديه إلى السماء وقال: اللهم اشهد إني سألت في مسجد نبيِّك محمد ﷺ فلم يعطني أحدٌ شيئاً، وكان علي رضي الله عنه في الصلاة راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وفيه خاتم فأقبل السائل فأخذ الخاتم من خنصره وذلك بمرأى من النبي ﷺ وهو في المسجد، فرفع رسول الله ﷺ طرفه إلى السماء وقال:

اللهم إن أخي موسى عليه السلام سألك فقال: رب اشرح لي صدري ويسرّ لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري واشركه في أمري فأنزلت عليه قرآناً ـ سنشدُّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما، اللهم وإني محمد نبيّك وصفيّك، اللهم واشرح لي صدري ويسرّ لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي عليّاً اشدد به ظهري.

قال أبو ذرّ رضي الله عنه: فما استتّم دعاءه حتى نزل جبرائيل عليه السلام من عند الله عز وجل وقال: محمد إقرأ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ انتهى..

أقول: وقد نظم شاعر النبي ﷺ حسان بن ثابت بهذه المناسبة أبياته التي سارت بها الركبان وحفظتها حتى ربات الحجال، والأبيات هي:

أبا حسن تفديك نفسي ومهجتي وكلُّ بطيء في الهدى ومسارع

أيذهب مدحي والمحبين ضايعاً وما المدح في ذات الإله بضايع
فأنت الذي أعطيت إذ أنت راكع فدتك نفوس القوم يا خير راكع
بخاتمك الميمون يا خير سيد ويا خير شارٍ ثم يا خير بايع
فأنزل فيك الله خير ولاية وبيّنها في محكمات الشرايع

ثم نظم الشعراء هذه الواقعة بعد حسان بن ثابت وإلى يومنا هذا لا يزال الشعراء ينظمون هذا المعنى في أشعارهم. ونزولها في علي عليه السلام مما لا يقبل الشك إلاّ من مرضى القلوب والنفوس كيف وقد روى صاحب كتاب «غاية المرام» ٢٤ حديثاً من طرق أهل السنة و١٩ حديثاً عن طرق الشيعة وتجاوزت عدد الكتب التي أوردت هذه الأحاديث الثلاثين كتاباً وكلها تنقل إنها نزلت في علي عليه السلام فقضية نزولها في علي عليه السلام لا يجب أن يطرأ عليها شك..

التفسير

هذه الآية تعطي الولاية العامة لله الخالق البارىء المصوّر الذي بيده الأمور وإليه المصير.

وتعطي الآية الولاية لرسول الله صلى الله عليه وآله الذي أرسله من عنده وأنزل عليه وحيه.

وأخيراً تعطي الولاية - لعلي بن أبي طالب عليه السلام بمقتضى نزولها فيه، والخلاصة: إن الأولى بكم والمتولي لأموركم الله ورسوله والذين آمنوا الذين اتصفوا بهذه الصفات التي ذُكرت لهم في الآية وهي أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة حالة كونهم راكعين - وهو علي عليه السلام كما ذكرنا في أسباب النزول...

إن سبب النزول يُعيّن المراد من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وإذا ورد التفسير وهو نص واضح ظاهر فلا يبقى للاجتهاد دور أو مجال.. لأنه مرفوض بإجماع الأمة إذ لا اجتهاد في مقابل النص.

فوائد

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ يراد بالولاية هنا الأولى بالتصرف والمتولي لشؤونكم وإدارة أموركم ـ يعني الآية تعطي السلطة والحكم لله ولرسوله وللمؤمنين ـ أصحاب المواصفات التي تذكرها الآية ـ وهذا المعنى هو المتعيّن هنا ـ وذلك إننا لوعدنا لسبب النزول وقرأنا قول النبي ﷺ: اللهم إن أخي موسى سألك فقال: رب إشرح لي صدري ويسرّ لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي.. إلى قوله ﷺ اللهم وإني محمد نبيّك وصفيّك، اللهم واشرح لي صدري ويسرّ لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً اشدد به ظهري.. وكيف نزلت الآية.. إنما وليكم الله... فهل لعربي له أدنى إلمام باللغة أو له أقلّ معرفة بفنّ المحاورة والتخاطب؟ يفهم غير ما يُفهم من ﴿وَلِيُّكُمُ﴾، إنه الأولى بكم ومن له الحاكمية والسلطة وتدبير الشؤون، فإن هذا المعنى هو المتعيّن من معنى ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ ولا يصح غيرها من المعاني الأخرى لأن تلك المعاني سارية بين جميع المؤمنين وهنا واردة في مورد خاص.. حيث أن المؤمنين هنا ـ علي عليه السلام ـ لهم مواصفات خاصة لم توجد في غير من نزلت فيه...

٢ ـ ينبغي أن يُعلم أن أداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد حصر الولاية في الله ورسوله وعلي ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني ليس لكم ولي إلاّ هؤلاء الثلاثة..

٣ ـ ينبغي أن يحمل الركوع في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾على أنه حال من ﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: أي يؤتونها وهم في حال ركوعهم في الصلاة، وقرينة ذلك سبب نزولها حيث كان علي عليه السلام في ركوعه عندما أعطى الزكاة.

٤ ـ إن قيل إن قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، جمع فكيف يراد منها الواحد ـ وهو علي عليه السلام ـ قيل في جواب ذلك: إن استعمال الجمع وإرادة الواحد قد وردت في الأدب ووردت في الشعر، ويكفي أنها وردت في القرآن.. حيث يجمع

المفسرون على أن المراد بالناس في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ فإن الناس الأولى يراد بها الواحد وهو نعيم بن مسعود الأشجعي..

وكذلك في قوله تعالى في آية المباهلة.. ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ فإن المراد بـ ﴿وَنِسَآءَنَا﴾ هي فاطمة الزهراء عليها السلام فحسب وكذلك ﴿أَنفُسَنَا﴾ أريد به علي عليه السلام خاصة فأطلق الجمع وأريد به الواحد ولا غضاضة في ذلك أن يحمل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وإن كان جمعاً على علي عليه السلام ويراد هو بنفسه فحسب، فإن علوّ المقام وعظمة الكمال تستدعي الإتيان بالجمع ويراد الواحد...

٥ ـ قيل: إن الآية يلزمها على مبناكم ـ من أنها تدل على إمامة علي عليه السلام ـ يلزمها أن يكون الإمام آمراً ناهياً حاكماً على الناس متولياً لشؤونهم وهذا ما لم يكن.

قيل في الجواب: كما يذكر ذلك شيخنا الطوسي في تبيانه ويتبناه ونحن نتبعه في هذا الأمر، قال: إن الآية دلّت على فرض طاعته واستحقاقه للإمامة وهذا كان حاصلاً له، وأما التصرف فموقوف على ما بعد الوفاة ـ للنبي صلى الله عليه وآله ـ كما يثبت استحقاق الأمر لولي العهد في حياة الإمام عليه السلام الذي قبله وإن لم يجز له التصرف في حياته انتهى كلام الطوسي: وبعبارة أخرى منا ـ يعني ـ هو إمام فعلاً مع وقف التنفيذ حتى تنتهي مدة النبي وحياته من الدنيا...

٦ ـ إن فعل عليه السلام الإمام اتيانه الزكاة التصدُّق بالخاتم = وهو في الصلاة = لا يتنافى مع الصلاة لأن كلاً منهما عبادة فتداخلت العبادتان. وهذا يعلمنا ـ كما يقول الزمخشري في تفسيره: ليُنبّه على أن سجيّة المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البر والإحسان وتفقّد الفقراء حتى إن لزمهم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة لم يؤخروه إلى الفراغ منها..

٧ ـ إنما إفرد ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ ولم يقل «أولياؤكم»، لبيان أن هذه الولاية طولية

وليست عرضيّة يعني أن الولاية لله أولاً وبالذات وللنبي ﷺ والإمام علي عليه السلام بالتبع ولو قال «إنما أولياؤكم» لم يكن أصل وتبع. . .

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ هذا بيان واجب الأمة ـ بعد بيان من له الولاية عليها، فأولاً تعيّنت القيادة لله ورسوله وللمؤمنين أصحاب المواصفات الخاصة التي تعيّنت في علي عليه السلام بعد هذا حدّدت هذه الآية واجب الأمة نحو هذه القيادة، وإن مَنْ يأتمر بأمرها ويعمل بإرادتها وينفذ مشيئتها فإنه من حزب الله ـ من أنصاره وأتباعه وأهل طاعته، وحزب الله هم المنتصرون. . لأن الله معهم وهو ناصر لهم لا محالة لأنه غالب قاهر لا يُغلب ولا يُقهر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٞ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾: لا تجعلوا.

﴿هُزُوٗا﴾: سخرية.

﴿لَعِبٗا﴾: اللعب كما في القاموس ضد الجد: وهو العبث وبدون فائدة.

﴿نَادَيْتُمْ﴾: النداء: برفع الصوت.

التفسير

شخصية الإنسان متقومة بما يحمل من عقيدة وما يعتقد من مفاهيم وأفكار.. إن الطول واللون والشكل والجمال والقبح كلها تأتي قهراً عن الإنسان بالوراثة وليس باستطاعته أن يغيّرها أو يتلاعب بها فهو محكوم لذلك، ولذا العقلاء لا يطعنون في شخص بشيء من ذلك لأنه لم يقع تحت اختياره وليس له فيه يد.

وأمّا العقيدة والدين والأفكار والمفاهيم فهي التي تكوِّنُ شخصية الإنسان

وإليها تتوجه الانتقادات فيسقط إنسان ويهبط لاختياره السيء ويتقدّم إنسان ويعلو نتيجة اختياره الحسن.

والعقيدة الدينية هي قوام شخصية الإنسان في الدنيا والآخرة بها يستحق الإنسان صفة الإنسانية، ومن هنا إذا عَاب الإنسان عليك عقيدتك وما تذهب إليه من أفكار فقد أسقط أعزّ ما لديك وبالتالي أسقط وجودك، فمن هنا من عاب دينك وعقيدتك واستهزأ بك وبدينك وعقيدتك فلا يمكن أن تتعامل معه بأي وجه من وجوه المعاملة بل لا تقدر على حبه وموالاته والانتصار به وأخذه صديقاً تعتمد عليه...

نعرف أن الآخرين إذا لم يعتقدوا بما تعتقد به قد يكون لقناعة حصلوا عليها ووصلوا إليها فلا غرابة ولا عجب ويمكن أن تفتح باب الحوار معهم.

وأمّا الإنسان الذي يهزأ بك وبعقيدتك ويتخذها لهواً ولعباً يتفكّه بها ليضحك الآخرين، مثل هذا لا يمكن أن تتعامل معه بأي شكل من أشكال المعاملة.. يجب أن تسقطه من حسابك وتواجهه بأسلوبه وبطريقته حتى يرتدع ويكفّ... ومن هنا كان النهي المتوجه إلى المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً أحباباً وأولياء وأخلاء.

ثم بيّن سبحانه من هم هؤلاء ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ إنهم اليهود والنصارى الذين أنزل الله على أنبيائهم كتبه.. إنهم أصحاب الكتاب تذكيراً لهم أن من كان بهذه الصفة يجب أن يكون بعيداً عن السخرية والاستهزاء بأهل الإيمان الذين هم مثله ممن أنزل الله على نبيهم كتاباً من عنده...

إن أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ أحق الناس أن يعرفوا محمداً وأمته ويبتعدوا عن هذا الصغار وهذه الضعة وهذا الإسفاف...

إن أهل الكتاب والكفار المشركين من العرب الذين لم يتديّنوا بدين قد تساووا في هذا المقام.. إنهم جميعاً يستهزؤون بالدين والمتدينين ويسخرون من الشعائر التي يتوجّه بها المؤمنون من أمة محمد ﷺ إلى ربهم بالعبادة والخشوع

والخضوع، ولذا نهى الله عن موالاتهم - أهل الكتاب والكفار - لأنهم شركاء جريمة بشعة مفادها إبعاد الناس عن الإسلام وتنفيرهم منه وتشكيك من يكون له القابلية للدخول فيه والإيمان به...

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ اجتنبوا معاصيه ومنها أن لا توالوا أهل الكتاب والكفار إن كنتم بصدق وحق من أهل الإيمان، لأن الإيمان يفرض عليكم تقوى الله ومنها هذه القضية، أو إن كنتم مؤمنين بوعده ووعيده وأن هناك ثواباً وعقاباً وجنة وناراً فاتقوه بدفع عذابه ودفع كل ما يسقطكم من حسابه...

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ هذه مفردة واضحة قد وقع الاستهزاء بها من قبل أهل الكتاب والكفار يذكرها الله، ويُذكّر الله بها المؤمنين. فإنه إذا ارتفعت أصوات المؤمنين بالآذان إلى الصلاة وكان النداء لإقامتها كان الاستهزاء بهذا النداء الإلهي المنبعث من القلب الذي يُذكّر الناس بعظمة الله وعلوّ مقامه ولذا يعبثون ويستهزءون ويروحون يعملون ما يسيء لهذا النداء ولهذه الصلاة... إنه الإستخفاف بشعائر دين المسلمين فكيف يمكن أن تصفى لهم القلوب ويتخذهم المؤمنون أولياء وهم يحملون هذه النفوس الخبيثة والأعمال القبيحة والحركات السيئة المسيئة...

يبقى أن نشير إلى أنه قد قيل في سبب نزول هذه الآية أنه عندما كان المؤذن ينادي للصلاة يقوم المسلمون إليها يقول اليهود: قد قاموا لا قاموا فإذا رأوهم ركعوا وسجدوا استهزؤوا بهم وضحكوا منهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ هذا رد من الله عليهم يصغّر فيه قدرهم ومقولاتهم بتصغير عقولهم لأنهم لو كانوا أصحاب عقل لردهم عقلهم إلى التفكير فيما ذهبوا إليه ولردّهم حلمهم وعقلهم عن هذا التصرف الأحمق...

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿تَنقِمُونَ﴾: تنكرون وتعيبون.

﴿فَاسِقُونَ﴾: خارجون عن طاعة الله.

﴿أُنَبِّئُكُم﴾: أخبركم وأعلمكم.

﴿بِشَرٍّ﴾: الشر: نقيض الخير وهو اسم جامع للرذائل والخطايا.

﴿مَثُوبَةً﴾: جزاءاً وثواباً، وثاب إليه: إذا رجع، وسمي الجزاءُ بذلك لأنه يرجع لصاحبه.

﴿لَّعَنَهُ﴾: اللعن: الطرد والإبعاد.

﴿ٱلۡقِرَدَةَ﴾: مفرده القرد: وهو الحيوان المعروف بحسن تقليده لغيره وبه يضرب المثل في الدمامة والقبح.

﴿وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾: جمع خنزير: وهو الحيوان الكريه المنظر الذي تشمئز منه النفوس.

﴿ٱلطَّـٰغُوتَ﴾: الطاغوت: كل معبود من دون الله.

﴿أَضَلُّ﴾: الضلال: ضد الهدى، الباطل.

﴿سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾: السبيل: الطريق، وسواء السبيل: قصد السبيل.

﴿يَكۡتُمُونَ﴾: يخفون ويسترون.

﴿يُسَـٰرِعُونَ﴾: يبادرون.

﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾: كل معصية، وقيل: ما يعود ضرره على الفاعل فحسب بخلاف العدوان، فإن ضرره يعود أيضاً على غير الفاعل.

﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾: تجاوز الحد بالظلم والاعتداء.

﴿ٱلسُّحۡتَ﴾: المال الحرام كالرشوة ومال الربا.

﴿يَنۡهَىٰهُمُ﴾: يزجرهم ويمنعهم.

﴿ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ﴾: مفرده رباني نسبة إلى الرب وهو الذي يعلّم الناس ويربيهم.

﴿ٱلۡأَحۡبَارِ﴾: جمع حبر: وهو العالم.

﴿يَصۡنَعُونَ﴾: الصنع: فعل الشيء عن خبرة ودراية...

التفسير

﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَـٰسِقُونَ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ لكي يكشف لأهل الكتاب ـ اليهود

والنصارى ـ أسباب نقمتهم على المسلمين وعيبهم عليهم إنه سبحانه من وراء هذا الأمر للنبي ﷺ يريد أن يكشف حقيقة هذا العداء للمسلمين الذي يجهر به أهل الكتاب.

لم يكن لأهل الكتاب من سبب لمواجهة المسلمين بهذه النقمة وهذا العيب إلاّ عقدة النقص في نفوسهم... إنهم ينظرون إلى المسلمين وقد استجمعوا الإيمان بالله وبكل الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من عند الله فغاظهم ذلك وكان هو السبب لهذه النقمة عليهم.

إنكم لا تنقمون منّا إلا أن آمنّا بالله وما أنزل إلينا على قلب محمد ﷺ وما أنزل من قبل على موسى وعيسى والأنبياء ﷺ وهذا هو سبب النقمة وهذه هي دوافع الحقد والحسد على المسلمين...

﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي خارجون عن حدود الشرع غير ملتزمين به ولا عاملين بمضمونه وهذا هو الذي يجب أن تعابوا به أنتم لا أن نعاب نحن لإيماننا بالله وبكل رسل الله...

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ قل لهم يا محمد! هل أخبركم بشر مما تنقمون علينا وتعيبون به ديننا إن شر من ذلك ما أعده الله لكم من العقاب وسوء الجزاء.

وقد عبّر «بالمثوبة» التي هي الثواب عن العقاب ازدراءً وتهكماً بهم.

﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ هذا بيان للشر الذي نبأهم به سابقاً، من طرده الله من رحمته، وأبعده عن ساحة قدسه.

﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ سخط عليه وأسقطه من عينه لسوء عمله وخبث سريرته.

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ منهم قردة ومسخ منهم خنازير وهم اليهود الذين اعتدوا في السبت فقال الله لهم ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾[1].

(١) البقرة/ ٦٥.

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ أي عبدوا من دون الله إلهاً وقد يراد به عبدة العجل من اليهود الذين ارتدوا عن دين الله بتلك العبادة...

﴿وَعَبَدَ﴾ معطوف على صلة - مَنْ - أي ومن عبد الطاغوت. وقيل: إن هنا موصولاً تقديره أي ومن عبد الطاغوت.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من لعنهم الله وكانت فيهم تلك القبائح أولئك شر مكاناً ممن رميتموهم إذ مَنْ عبتوهم لا عيب فيهم ولا شر عندهم، وجعل سبحانه - مكانهم شراً - ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ليكون أبلغ في الدلالة على شرهم...

﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أبعد عن طريق الحق والهدى والمنهج الواضح المستقيم.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وهذه واحدة أخرى تمنع موالاتكم لهم وعدم الاطمئنان إليهم... إنهم إذا جاءوك يا رسول الله! وحضروا إلى مجلسك انطلقت ألسنتهم بقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ إنهم يقولون ذلك يريدون من ورائه إيهام المسلمين بأنهم معهم وعلى دينهم وأن عقيدتهم هي عقيدتُهم وأنهم على رأيهم وما يذهبون إليه..

ولكن الحقيقة يكشفها الله ويبيّن واقع هذه الفئة وكيف تلبس قناعاً مزيفاً تظهر به الإيمان ولكنها تبطن الكفر والنفاق واقعاً.

﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ دخلوا حاملين الكفر ومتلبسين به، وأيضاً هم قد خرجوا به كما دخلوا ولم يتأثروا بكلامك يا محمد! ولم يبدّلوا من كفرهم أو يغيّروا من عقيدتهم وسلوكهم... إنهم خرجوا من عندك كما دخلوا عليك. دخلوا بالكفر وخرجوا به لم يؤثر فيهم كلامك وبيانك.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ تعظيم لما يكتمون في أنفسهم من كفر وجحود ومن مؤامرات ودسائس - وفيه وعيد لهم -.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ وهذه من جملة ممارساتهم القبيحة السيئة التي يخزيهم بها الله ويعاقبهم عليها، إنك ترى كثيراً منهم - وحتى في معتقدهم ودينهم - يسارعون في الإثم - أي يتسابقون فيما بينهم أيهم يرتكب المعاصي أكثر. . . إنهم لا يستحون في ارتكاب المعاصي بل أكثر من ذلك يتسابقون إليها ويتبارون أيهم يجمع من الإثم أكثر.

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ هي كل معصية وذنب، فالإثم عام.

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ فرد من المعصية وذكره لأنه أبرزها مع السحت وهو أكل الحرام كالرشوة والربا وغيرها.

وقيل: إن «الإثم» ما يعود على مرتكبه فحسب بينما العدوان يعود على «الغير» أيضاً، وقيل غير ذلك.

﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي يسارعون إلى الارتشاء وأكل المال الحرام من الربا أو ما لا يحل. . .

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ هذا ذم لأفعالهم. . . بئس العمل عملهم الذين كانوا يعملون لأن فعلهم قبيح ونيتهم سيئة والمضارع - يعملون - يدل على استمراريتهم على فعلهم القبيح. . .

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

هذه الآية كما قال «ابن عباس» ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية - على العلماء -.

ففي الآية حضّ لعلماء أهل الكتاب - الربانيون والأحبار - وذم لهم لتقصيرهم في هذه الفريضة العظيمة فريضة النهي عن المنكر. . .

أين هم الربانيون والأحبار عن زجر هؤلاء اليهود والنصارى عن قول الإثم - الباطل والانحراف والكفر والضلال وأكلهم السحت - أي الحرام؟. . أين هؤلاء

الربانيون والأحبار عن حمل رسالة النهي عن المنكر والزجر عنه؟ إنهم شركاء جريمة بل هم مخططوها وراسموا طريقها، والعوام على طريقهم يسيرون وفيما رسموا وخططوا يقتفون. . .

إن على العلماء أن لا يقبلوا الانحراف أو يوافقوا عليه بل يجب عليهم أن يقفوا في وجهه وفي وجه كل من يمارسه ويردعوا عنه باللسان ثم بالسّنان بحسب القواعد الناجعة والمفيدة - لمثل ذلك - في الدعوة إلى الله. . .

﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ طائفتان من العبّاد والعلماء في المجتمع اليهودي وهم الأمناء على الدين، فإذا أهملوا وظائفهم فسد المجتمع وعمّ الكفر والانحراف، ولذلك كان هذا التوبيخ الشديد لهم ولمواقفهم المتواطئة مع أهل الشر والمعاصي. . .

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ بئس الصنيع صنيعهم وأقبح به من صنيع وهذا ذم لهم وتوبيخ. . .

بقي أن نذكر أن في هذه الآية قال تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ بينما في الآية المتقدمة: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقالوا: إن الفرق بينهما أن الصنع ما كان عن معرفة وخبرة ودراية وفن، ومن هنا نسبه الله إلى علماء أهل الكتاب لأنهم يعرفون اللعبة بدقة، ويعرفون حرمة سكوتهم وعدم جواز غض النظر عمّا يقع من أهل ملتهم من انحراف في العقيدة والعمل، ومن هنا عبّر عن ذلك «بالصنع» بينما عبّر عن فعل العوام والرعية بالفعل «لبئس ما كانوا يعملون».

قــال تــعـــالـــى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿مَغْلُولَةٌ﴾: من الغل: وهو القيد الذي يوضع في اليدين. ومغلولة هنا: أي مقبوضة وممسكة عن العطاء بخلاً.

﴿لُعِنُوا۟﴾: طردوا من رحمته وأبعدوا عن ساحته.

﴿يَدَاهُ﴾: مثنى يد: وهي الجارحة التي يتناول بها الإنسان الأشياء.

﴿مَبْسُوطَتَانِ﴾: البسط: خلاف القبض. ويداه مبسوطتان: كناية عن كرمه وبذله وعطائه.

﴿يُنفِقُ﴾: الإنفاق: إخراج المال عن الملكية وإعطائه للغير.

﴿طُغْيَٰنًا﴾: الطغيان: تجاوز الحد والإسراف فيه.

﴿وَأَلْقَيْنَا﴾: ألقى الشيء: رماه وطرحه.

﴿ٱلْعَدَٰوَةَ﴾: حالة في النفس توجب النفرة وعدم الإلتئام.

﴿وَالْبَغْضَآءَ﴾: ضد الحب، والبغض: نفار النفس عن الشيء.

﴿أَوْقَدُوا﴾: إيقاد النار: إشعالها.

﴿أَطْفَأَهَا﴾: الإطفاء: الإخماد حتى لا يبقى هناك أثر.

﴿يَسْعَوْنَ﴾: السعي: المشي السريع ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شراً.

﴿فَسَادًا﴾: الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال ويضاده الصلاح ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة.

التفسير

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ هذه مقولة شنيعة صدرت من اليهود بحق الله تعالى.. إنهم تعدّوا على الناس وافتروا عليهم وألصقوا بهم شتى التهم ولم يتورعوا عن كل رذيلة وفعل كل قبيح وقد دسوا الدسائس وحبكوا المؤامرات ثم تجاوزوا ذلك وتعدّوه إلى ذات الله المقدسة... إنهم فئة لم تتوقف عن سَوْقِ التهم حتى لله، فهي هنا تنسب البخل إليه تعالى وترميه بالشح كما رمته مرة أخرى، فقالت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[1] إنها تصف الله جل جلاله بما يتعالى عنه ويتنزه مقامه عن الاتصاف به.

إن الله مالك الملك... مالك السماوات والأرض وخالقهما.. مالك الدنيا والآخرة من فيض كرمه كان الوجود وكان كل موجود... الله سبحانه وتعالى الغني الكريم ترميه اليهود بالبخل والشحّ.. إنها النفوس التي تعيش هذه الحالة في عمقها تريد أن تصف الله بهذه الصفة.. البخل من طبع اليهود عليه جبلوا، وبه تحركوا وتقلبوا فأرادوا وصف الله بهذه الخصيصة القبيحة فيهم...

---

(١) آل عمران/ ١٨١.

إنهم لم يراعوا الأدب مع الله بل لم يحفظوا عليه صفاته ومنها كرمه وجوده وفيضه وعطاؤه، ولعل ما ذكره من أسباب النزول يكشف عن ذلك حيث نُقل: أن اليهود عندما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾[١] قالوا: لو احتاج إلى القرض لكان فقيراً عاجزاً فحكى الله عنهم قولهم هذا.

وعلى كل حال.. صحّتْ أسباب النزول أم لم تصح فالله أصدق القائلين ينقل مقالتهم الباطلة وردّ عليهم رداً يتناسب وهذه الفِرية القبيحة...

يبقى أن نذكر أن غل اليد وبسطها كناية عن البخل والجود إطلاقاً للسبب على المسبب.

﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ ردّ عليهم سبحانه بهذا الدعاء عليهم: أُصيبوا بالبخل والشح وطردوا من رحمة الله بسبب قولهم الباطل وافترائهم عليه عزّ اسمه، وقد يراد على احتمال بعيد أن يكون قوله:

﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ على الحقيقة وأنهم يقعون في الأسر، وتغل أيديهم: أي توضع فيها الأغلال المقيدة لهم كما يُفعل بالأسرى.

ثم رد سبحانه عليهم وحكى واقع ما هو فيه سبحانه وما يجب أن يعلمه اليهود وكل من كان على شاكلتهم مقلداً لهم ومقتدياً بهم.

﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ بل هو عين الجود والكرم وبفيض كرمه كان هذا الوجود والموجود.. إنه أهل الكرم والجود ينفق كيف يشاء بحسب المصلحة وبما فيه نفع وفائدة فربما أعطى إنساناً لمصلحة له أو لغيره وربما منع آخر لمفسدة تعود إليه أو إلى غيره... إن عطاءه خاضع لتقديره من المصلحة والمفسدة ومعرفته بهما، متى تكون هذه ومتى تكون تلك، ومن يتحملها فلا تبطره وتفسده ومن لا يقدر على تحملها، وهكذا فالأمر بيده وله الحرية المطلقة في المنع والعطاء...

---

(١) البقرة/ ٢٤٥.

يبقى أن نذكر أن تثنية ﴿يَدَاهُ﴾ التي جاءت خلاف قولهم ﴿يَدُ ٱللَّهِ﴾ تدليلاً على أنه سبحانه في غاية الكرم والجود مبالغة من الكريم في كرمه إذا أراد ذلك كان العطاء منه بكلتا يديه.

كما أنه يمكن أن يحمل قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ على نعم الدنيا ونعم الآخرة، أو على ما يعطي للإكرام وما يعطي للاستدراج، فتكون إشارة للنعم بشكل عام..

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ إن آيات الله وكلماته يجب أن تكون وسيلة للهداية وزيادة الإيمان والتقوى وترويض النفس على الطاعة. ولكن هذه الآية نفسها التي تفعل فعلها في القلوب السليمة والنفوس الطاهرة ترى اليهود ـ لقلوبهم المريضة ولما تحويه نفوسهم من حقد وضغينة ـ تجدهم كيف يزدادون بها حقداً وتعدّياً وتمرداً وكفراً؛ إن القلوب كالأبدان فكما أن البدن المريض يضره الطعام الجيد الطيب فكذلك الأرواح المريضة تضرّها الآيات الكريمة النافعة المفيدة بل تزيدها هذه الآيات كفراً وعتواً وتمرداً...

ولذلك يقول سبحانه مؤكداً ذلك بلام القسم ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ على ما هم عليه من الكفر والعداوة والحقد والتجاوز في الخصام ـ ليزيدنهم.

﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من الآيات.

﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ تجاوزاً في العداوة وزيادة في الكفر وولوجاً فيه...

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ اختلفوا في كلمة ﴿بَيْنَهُمُ﴾ إلى من يرجع الضمير فيها هل يرجع إلى أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ فتكون العداوة والبغضاء بين أهل الديانتين أم إلى اليهود خاصة؟ والظاهر الذي يساعد عليه الاعتبار وقواعد المحاورة أنها راجعة إلى اليهود خاصة ـ وهو القول الثاني ـ لأن الحديث عنهم ولهم توجّه الخطاب.

وعلى كل حال.. فلشقاق اليهود وعنادهم وحقدهم وحسدهم وطبائعهم الجشعة الأشعبية وبخلهم المتأصل في نفوسهم كانت النتيجة.. أن الله تخلّى عنهم فانتشرت العداوة فيما بينهم وسرت البغضاء بين عصاباتهم وستبقى هذه

الحالة كما قضى الله خبرهم إلى يوم القيامة فيوقفهم الله للحساب حيث يؤمر بهم إلى النار. . .

سيبقى اليهود أعداء لبعضهم وإن جمعتهم الأهداف العدوانية والمنافع الاقتصادية وقتاً محدوداً وسينفجر الصراع مجدداً وتظهر العداوة والبغضاء بينهم ولبعضهم في وقت ما. . .

﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ كلما أراد اليهود إشعال نار الحرب ضد الإسلام ورسوله وضد المسلمين فالله سبحانه هو الذي يتولى إخمادها، وهكذا كان. فما أعلنه اليهود حرباً على النبي ﷺ حتى هزمهم الله إلى أن بلغ بهم الأمر أن المسلمين أجلوهم عن المدينة وما جاورها وأبعدهم النبي عن مواقعهم التي يمكن أن تشكل خطراً على الإسلام والمسلمين وعلى الناس والإنسانية. . . بعد أن كان اليهود هم القوة الضاربة في جزيرة العرب يعتضد بهم كل قبيلة وتستعين بهم كل طائفة وتعتز بعلاقتها معهم كل فرقة أضحوا أشلاء فارغة وأجساداً ممزقة يخافون على أنفسهم وعلى أموالهم حتى طردهم المسلمون من بين أظهرهم وشردوهم في أماكن متباعدة ومدن متشتتة. . .

وإن لنا الأمل العريض في أن يكون اجتماعهم في فلسطين ولقاء الشتات منهم فيها عملية إلهية مرسومة بدقة من أجل القضاء عليهم وعلى مؤامراتهم التي أفسدت المجتمعات وحلّلتها من قيمها وأبعدتها عن أديانها. . .

إن كل حرب من اليهود ستبوء بالفشل، وهذه هزائمها المتتالية تبدو طلائعها على أيدي المجاهدين المسلمين في جنوب لبنان حيث شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام يقفون أعظم المواقف في مقارعة اليهود ومطاردتهم وقتلهم وإذلال جنودهم ولم تستطع كل قوى اليهود ووراءها أمريكا وأوروبا أن تصدّ هؤلاء المجاهدين أو تلوي ذراعهم أو تُسقط سلاحهم. . .

﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يكاد يكون هذا الوصف ينحصر باليهود فهم مجدّون بكل ما يملكون من قوة في إفساد الأرض ومن عليها. . . إن اليهود

أقوى الناس في الشر والفساد وقد استغلّوا كل وسائل الإعلام ووضعوا أيديهم عليها من التلفزة والراديوات والصحف والمجلات وكوّنوا إمبراطوريات خاصة فيهم ضمن هذا العالم يوجّهون الإعلام كما يريدون مما يخدم مصالحهم وما يدرّ عليهم المال والسلطان وما الابتلاءات التي وقعت فيها البشرية من تحلل في الأخلاق وتسيّب في الجنس وتفكك في الأُسرة واعتداء على الحق وسلب للكرامات إلاّ وكان وراءها اليهود...

إن ما أصاب البشرية اليوم من نكسات وهزائم على مستوى التدين والأخلاق والآداب والحشمة والسلوك كان وراءه اليهود الذين أرادوا من وراء ذلك أن يتخلى الناس عن دينهم وعقيدتهم لتسهل السيطرة عليهم واحتلال أرضهم واستعباد شعوبهم.

إن أصول الفساد من اليهود وإن كل اضطراب أو فوضى فهو منهم وإذا لم تقف البشرية كلها والأسرة الدولية بحكوماتها وشعوبها وتدفع شرهم فيا ويلها مما ستلاقيه منهم وعلى أيديهم...

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ والله يكره المفسدين وسيحاسبهم ويجزيهم العذاب الأليم وهؤلاء اليهود مصاديق حيّة وحقيقية للمفسدين، بل هم أظهر أفراد المفسدين الذين لا يحبهم الله وسيعاقبهم لفسادهم...

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿كَفَّرْنَا﴾: سترنا ومحونا.

﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: جمع سيئة: وهي الفعلة القبيحة وهي ضد الحسنة.

﴿أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: عملوا بما فيها على أتم وجه وأكمله.

﴿أُمَّةٌ﴾: جماعة.

﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾: معتدلة.

﴿سَآءَ﴾: من السوء: وهو كل ما يغمّ الإنسان وهو القبيح.

التفسير

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾

هذا وعد من الله لأهل الكتاب - اليهود والنصارى - إنهم إذا آمنوا حق الإيمان بصدق ويقين وكما هي العقيدة التي جاء بها موسى وعيسى وتوافق عليها العقلاء وقبلها العقل ثم اتقوا الله بأن عملوا بمتطلبات هذا الإيمان من الأحكام فلم يتجاوزوا الحلال إلى الحرام. . .

أو لو آمنوا بمحمد ﷺ واتقوا الله فيه بحيث لم يخالفوا ما جاءهم من البينات التي تثبت رسالته.

لو آمنوا واتقوا ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فالله يغفر لهم ما وقع منهم من مخالفات ويستر تلك القبائح والعورات، بل لا يكتفي سبحانه بذلك حتى يكمل نعمته عليهم.

﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ لتتم عليهم نعمته في الآخرة بشكل كامل، فإنه - بهذا الإيمان والتقوى منهم - يدخلهم الجنة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ وهذا وعد آخر نتيجته نعم الدنيا وسبوغها عليهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ خطاب إلى النصارى واليهود إنهم إذا عملوا بهما كما أنزلهما الله - بدون تحريف أو تلاعب بالنصوص - وما أنزل إليهم من ربهم من كتب ماضية أو ما هو بين أظهرهم مما نزل على النبي محمد. . لو آمنوا بجميع ذلك ليفتح الله عليهم الرزق من كل جانب ولأوسع عليهم رزقه فعاشوا في سعة وبحبوحة ورغَدٍ من الخيرات والبركات.

وفي قوله: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أقوال: اخترت منها قولين:

١ - منها: أنها مبالغة في رغد العيش وسعة الرزق وسبوغ النعم، كما يقال في العرف فلان يرفل بالنعمة من رأسه إلى أخمص قدميه، يُكنى بذلك عن أنه في سعة من الرزق وعيش رغيد ولا تقصد المعنى الحقيقي، فكذلك قوله: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ فلا فوق ولا تحت بالمعنى الحقيقي.

وهذا المعنى هو الأقرب إلى الفهم العرفي والتي جرت عليه البلاغة ومنها: أن يراد بالفوق السماء وما ينزل منها من مطر ومن تحت يقصد بها ما تنبته الأرض فتلتقي بركات السماء وخيرات الأرض وهذا لا يكون إلا في أيام الخصب والرخاء...

ولا يخفى أن هذه الآية تكشف أن الإيمان والعمل أصيلان في سعة الرزق وسبوغ النعمة وسببان يتكرّم من خلالهما الله بالرزق الوفير والعطاء الجزيل بالإضافة إلى نعمة الآخرة التي هي دخول الجنة والوصول إلى نعيمها وما فيها من سرور ولذة...

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ من أهل الكتاب جماعة معتدلة توفرت على نفسها فثقّفتها وهذّبتها ولم تأخذها العصبية ولم تتأثر بالمصالح الوقتية والمنافع المادية فآثرت أن تكون مع الحق فآمنت بمحمد وبما جاء به من عند الله.

وأما الباقي وهم الأكثرية فهم همج رعاع أخذتهم العصبية فلم تتأثر نفوسهم وراحوا في عنادهم يسيئون في عملهم وسلوكهم.

﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ ما أسوأ عملهم حيث أقاموا على الكفر والعناد ولم يتأثروا بكلام الله وكلام رسوله..

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾.

اللغة

﴿بَلِّغۡ﴾: من بلّغ، والبلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد، وبلّغ: أي أوصل الأمر كما هو إلى الناس.

﴿يَعۡصِمُكَ﴾: يحفظك ويحميك.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ نداء تشريف وتعظيم من الله إلى رسوله محمد ﷺ وقد وصفه بأعظم الصفات وأكرمها عنده، وهي الرسالة في إشارة منه إلى أن ما يقوم به إنما يقوم به بهذا الاعتبار الإلهي بعيداً عن كل الاعتبارات الأخرى التي يمكن أن تختلج فيها النفس أو تحتملها الميول والأهواء...

يا رسول الله بلغ إلى الناس وأخبرهم ما أنزل الله إليك من ربك!..

ما هو الذي أنزله الله؟

ولماذا هذا الأمر والنبي مؤتمن ولم يقصّر؟!

ولماذا في أواخر حياته؟

لا بدّ وأن يكون أمراً مهماً له خطر كبير يهدّد الرسالة ويعرضها لخطر كبير، وإلاّ فكيف يوجّه الله خطابه لرسوله بصيغة التهديد المنبئة عن عظمة هذا الأمر وجلالته.

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ إن لم تقم بتبليغ هذا الحدث العظيم الذي أُنزل إليك من ربك إلى الناس فكأنك لم تؤدِّ رسالة الله ولم تبلّغها لأهلها...

إن مجموع الرسالة وكل جهادك وأتعابك وكل عذاباتك وتضحياتك بل كل الأحكام التي بلّغتها إلى الناس تسقط عن الاعتبار وتسقط من سجلك وتتحول رماداً وكأنها لم تُبلّغ إلى الناس من جراء عدم تبليغك هذا الأمر المهم...

إن كل الرسالة وكل ما تحمّلته من تبليغها وكل ما أوصلت من أحكام إلى الناس تسقط هذه المرة كلها إذا لم تقم بتبليغ هذا الأمر المهم العظيم...

إنه أمر جليل يعادل تبليغه تبليغ الرسالة التي أدّيتها إلى الناس..

تبليغ هذا الأمر للناس يعادل تبليغ الرسالة كلها وعدم تبليغه يسقطها كلها وكأنه لم يكن هناك تبليغ لها...

إنه أمر عظيم وخطير استوجب رهن تبليغ الرسالة كلها به...

ثم إضافة إلى ذلك تكفل الله له أن يحفظه من الأخطار ويحميه من كل اعتداء.

﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ دليلاً على أن النبي كان يشعر بخطر عظيم من جراء تبليغ هذا الأمر مما استدعى من الله أن يأخذ القضية على عاتقه ويتكفل هو سبحانه بحمايته والدفاع عنه..

ثم زيادة في الحضّ على تقبل هذا الأمر ولخطره وعظيم شأنه عقّبه سبحانه بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ جعل سبحانه من يرفض هذا الأمر ويتمنّع عن قبوله والخضوع له والاستسلام لمشيئة الله فيه جعله بحد الكفر وبمستواه..

إن من يكفر بهذا الأمر ويرفضه فلن يوفقه الله أو يهديه لأن من يرفض ما أنزله الله في هذه القضية المهمة فهو قد كفر باختياره، واختار هذا الطريق الضال، والله لن يجبر أحداً على الإيمان أو الكفر...

إن الكفر هنا هو نفسه الكفر في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] تدليلاً على عظمة هذا الفعل وأهميته ودوره...

هذا هو مدلول الآية بشكل عام ولكن لم نستفد منها فائدة مهمة طالما أننا لم نعرف ذلك الأمر المهم المأمور بتبليغه النبي ﷺ إلى الناس...

إن المعركة تتجلى في بيان المراد ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ما هو ذلك الشيء الذي أنزله الله وأمر نبيه أن يبلّغه للناس؟..

إنها قضية هامة حسّاسة تبقى مجملة إن اقتصرنا على النص القرآني ولن نتوصل إلى نتيجة بدون الرجوع إلى السنة الشريفة وخصوصاً ما ورد في أسباب النزول...

إن ما ورد عن طريق الشيعة في نزول هذه الآية وأطبقت عليه مصادرهم وأجمعوا بفضّهم وقضيضهم عليه حتى عرفته المخدرات في بيوتها والأطفال في أحضان أمهاتها فضلاً عن غيرهم، إنها نزلت في شأن ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام وإن الله أمر نبيه أن ينصب علياً خليفة من بعده فخاف إرجاف المرجفين وكيد المنافقين والإنقلاب على الرسالة والشك فيها بتهمة النبي ﷺ أنه قد حابى ابن عمه فعيّنه من نفسه خليفة له فكانت العصمة له من الناس وكان ترتيب الحكم بالكفر لمن لم يقبل مثل هذا الأمر العظيم الذي به قوام الرسالة واستمراريتها وحفظها من الشوائب ودفع المبطلين عنها...

---

(١) آل عمران/ ٩٧.

إنك لا تجد تفسيراً لكتاب الله إلاّ وتجد انحصار سبب نزولها في ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام كما أنك تجد الشعراء والأدباء وأهل الحديث قد ملأوا مطاميرهم ومجاميعهم بذكرها...

إن أهم كتب الشيعة وأوثقها وأعظم رجالهم ومفكريهم وأرباب العلم والمعرفة فيهم قد بحثوا في هذا الأمر وتوصلوا بقناعة تامة كاملة دون تعصب، وصلوا إلى أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام حينما جهر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بولايته وأعلن أنه الخليفة له من بعده...

والشيعة لا تنقصهم الأدلة على إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام فهناك ألف دليل ودليل من العقل وألف دليل ودليل من النقل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكنهم رغم ذلك يعودون إلى روايات أهل السنة لإفادتها زيادة تقرير القضية وزيادة إثباتها فمن هنا نذكر بعض ما ورد عنهم ونذكّرهم أن ينظروا بعين الإنصاف والعدل من حيث يقبلون رواية واحدة يثبتون بها نزول الآية وإنها نزلت في هذا الأمر أو ذاك الشخص أو هذه الحادثة أو تلك القضية فلذا يجب أن يجروا نفس هذه القواعد على هذه الروايات التي تثبت أن الآية نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام..

إن الروايات الواردة في إثبات نزول هذه الآية في حق الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كثيرة اقتصر منها على بعض ما ذكره العلامة الأميني في كتابه الغدير.

١ ـ روى نزول الآية في حق الإمام محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠ هـ أخرجه بإسناده في كتاب (الولاية) في طرق حديث الغدير عن زيد بن أرقم قال: لما نزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بغدير خم في رجوعه من حجة الوداع وكان في وقت الضحى وحر شديد أمر بالدوحات فأقيمت ونادى الصلاة جامعة فاجتمعنا فخطب خطبة بالغة، ثم قال:

إن الله تعالى أنزل إليّ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وقد أمرني جبرائيل عليه السلام عن ربي أن أقوم

في هذا المشهد وأعلم كل أبيض وأسود أن علي بن أبي طالب أخي ووصيي وخليفتي والإمام بعدي، فسألت جبرائيل أن يستعفي لي ربي لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذيين لي واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي وشدة إقبالي عليه حتى سمُّوني أذناً؟! فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[١] ولو شئت أن أسميهم وأدلّ عليهم لفعلت ولكني بسترهم قد تكرمت فلم يرض الله إلاّ بتبليغي فيه فاعلموا.

معاشر الناس! ذلك.. فإن الله قد نصّبه لكم ولياً وإماماً وفرض طاعته على كل أحد ماض حكمه، جائز قوله، ملعون من خالفه، مرحوم من صدّقه، إسمعوا وأطيعوا، فإن الله مولاكم وعلي إمامكم ثم الإمامة في ولدي من صلبه إلى يوم القيامة.. إلى آخر ما يذكره العلامة الأميني نقلاً عن الطبري..

٢ ـ نقل الحافظ ابن أبي حاتم أبو محمد الحنظلي المتوفي سنة ٣٢٧ بإسناده عن أبي سعيد الخدري أن الآية نزلت على رسول الله يوم (غدير خم) في علي بن أبي طالب.

٣ ـ الحافظ أبو عبد الله المحاملي المتوفي سنة ٣٣٠ عن ابن عباس.

٤ ـ الحافظ أبو بكر الفارسي الشيرازي عن ابن عباس.

٥ ـ الحافظ ابن مردويه المتوفي سنة ٤١٦ بإسناده عن أبي سعيد الخدري.

٦ ـ أبو إسحاق الثعلبي النيسابوري في تفسيره «الكشف والبيان» عن أبي جعفر محمد بن علي (الباقر).

٧ ـ الحافظ أبو نعيم الأصبهاني.

٨ ـ أبو الحسن الواحدي النيسابوري عن أبي سعيد الخدري.

٩ ـ الحافظ أبو سعيد السجستاني من عدة طرق عن ابن عباس.

---

(١) التوبة/ ٦١.

١٠ ـ الحافظ الحسكاني أبو القاسم عن ابن عباس وجابر الأنصاري.

وبالجملة فقد نقل هذه الرواية بمضمونها أكثر من ثلاثين من علماء السُّنة وبطرق متعددة حتى أن ما ورد عن أبي سعيد الخدري وابن عباس جاءت عن أحد عشر طريقاً.

واختلفت الطرق كثرة وقلّة من غير هذا الطريق.. وعلى كل حال فإن من لم يستطع أن يهرب منها ويرفضها لثبوتها أخذ يشكك في مدلولها ولكن وضع الآية في هذا الموقع إذا دقق العالم فيه يكتشف أنها جاءت لأمر عظيم ومهم هو الولاية العامة التي بها تناط مسيرة الإسلام...

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: إقامة التوراة: العمل بما فيها على أتم وجه.

﴿طُغْيَٰنًا﴾: الطغيان: تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه.

﴿تَأْسَ﴾: تحزن من أسي يأسى.

التفسير

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾.

يأمر الله نبيه أن يواجه أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ بالحقيقة الصادقة، وهي أنهم ليسوا على شيء من الدين.. إنهم بدون دين ونفي الشيئية نفي لكل أثر من آثار الدين تحقيراً لسلوكهم وازدراء بهم.. أنهم ليسوا على شيء من

الدين حتى ينفذوا أحكام التوراة والإنجيل وما أنزله الله على الأنبياء مَنْ مضى منهم ومَنْ هو قائم بين أظهرهم وهو رسول الله ﷺ . . .

إذا أراد أهل الكتاب أن يكونوا على شيء من الدين عليهم أن يؤمنوا بكل كتب الله المنزلة، وإذا آمنوا بذلك جرّهم ذلك إلى الإيمان بالنبي محمد ﷺ وكتابه ورسالته . .

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ السلام في ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾ لام القسم فالله سبحانه يبيّن هذه الحقيقة التي سيصل إليها كثيرون من أهل الكتاب . . . أنهم لعنادهم وحقدهم وحسدهم سوف يسدّون آذانهم عن سماع الحق والتفكير فيما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ . . .

إن ما أنزله الله على رسوله يجب أن يكون وسيلة هداية وطريق إيمان، وهكذا هي طبيعة رسالات الله عندما يحملها الأنبياء إلى الناس تدفعهم إلى الإيمان والتقوى والعمل الصالح، ولكن ما فيه الحياة والإيمان ـ مما أنزله الله ـ إذا صادف قلوباً مريضة تعيش الحقد والحسد والبغضاء سوف يضرها ما أنزله الله وسوف يزيدها كفراً وعناداً وظلماً تماماً كالطعام الطيب الحلال النظيف إذا أكلته البُنى المريضة فإنه يضرها ويزيد من مرضها . .

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ ولكن بصيغة أن لا تحزن عليهم يا رسول الله! ولا تتأثر بما يفعلون فإنهم قوم كفروا بالله ولم يؤمنوا برسالاته وكتبه والله سبحانه سيحاسبهم على كفرهم ويجزيهم بفعلهم . . .

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿هَادُوا۟﴾: اليهود.

﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾: عبدة الكواكب والملائكة.

﴿ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: أتباع المسيح.

التفسير

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله محمد وما أُنزل عليه من كلام ربه.

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ هم اليهود الذين اتبعوا نبي الله موسى عليه السلام.

﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾: هم عبدة الكواكب الذين لهم جذور ترجع إلى الأنبياء.

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: هم أتباع المسيح وأنصاره.

هؤلاء الأربعة أصناف ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ منهم واعتقد بوجوده ووحّده.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فآمن بيوم الحساب وأن الناس لا بدّ وأن ترجع بعد الموت

من أجل أن ترفع حسابها إلى الله وستحشر إمّا إلى الجنة أو إلى النار وفقاً للطريق الذي اختارته وسارت عليه وتبنّته.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أيضاً لا بد وأن يعمل العمل الصالح الذي أراده الله منه ورسمه له وهو لا يتجلى إلاّ بمعرفة الرسول الذي يجب أن يؤمن به في وقته. فمن كان في زمن موسى عليه السلام وعمل العمل الصالح الذي أراده الله منه على لسان رسوله يكون قد عمل صالحاً، وكذلك من كان في زمن عيسى عليه السلام يجب أن يعمل كل واحد بما ورد على لسانه من عمل صالحاً. وإذا جاء النبي محمد فعلى البشرية أن تعمل بقوله وتأتمر بأمره لتحقق موضوع العمل الصالح فلا يمكن لشريعة نسخها الله كشريعة موسى وعيسى أن يقول أتباعهما أننا نعمل صالحاً بمقتضى ما أنزل الله إلى موسى وعيسى بل بعد مجيء النبي محمد ﷺ ونسخ الشرائع التي تقدمته انحصر العمل الصالح فيما جاء في كتابه وسنته وسيرته ومن هنا كان لهذا الشرط أهمية عظيمة في ترتب الآثار التي تعقبها وتكون كنتيجة لها وهي.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا يخافون عذاب الله وعقابه بل هم في مأمن من ذلك ومنجاة منه لأنهم أطاعوه إيماناً وعملاً.

وكذلك ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا يصيبهم الحزن والأسى لما فاتهم من متع الدنيا وملذاتها لما يحصلون عليه من لذات الآخرة ونعيمها...

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْمِيثَٰقَ﴾: العهد المؤكد.

﴿تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾: هوى النفس: ميلها إلى الشهوة وما ترغب فيه مما لا يرضى به الله.

﴿فَرِيقًا﴾: جماعة.

﴿وَحَسِبُوٓا۟﴾: ظنوا.

﴿فِتْنَةٌ﴾: عذاب.

﴿فَعَمُوا۟﴾: العمى: فقدان البصر.

﴿وَصَمُّوا۟﴾: من الصمم: وهو من يُخلق عادماً لحاسة السمع.

التفسير

أخذ الله على بني إسرائيل العهود المؤكدة على أن يؤمنوا بالله ورسله ويعملوا بما أراد. . . إنه ميثاق شرف وعهد مؤكد على بني إسرائيل أن يكونوا عقيدة وعملاً كما أراد الله وهذا الميثاق يلتزم به أهل الإيمان والهدى والتقى. ولكن بني إسرائيل لا عهود لهم فلا يلتزمون بعهود أو يفون بوعود، كما أنه ليس لهم شرف يحمي هذه العهود.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أخذنا العهود منهم مرة بعد أخرى، على الاستمرار بالإيمان وطاعة الرحمٰن.

﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ تعددت الرسل إلى بني إسرائيل لكي يحموهم من السقوط ويحفظوا عليهم تعاليم الله وأحكامه.

أرسل الله سبحانه إلى بني إسرائيل من الأنبياء ما لم يرسله لأمة أخرى ولكنهم لم يرعوا هذه النعمة ولم يحفظوها أو يشكروا الله عليها، بل كانت طريقتهم.

﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لم يكتفوا بالسكوت والهروب إلى الأمام، بل كلما جاءهم رسول من عند الله يحمل إليهم أوامره ونواهيه، نظروا فإن كانت لا ترغب بها نفوسهم ولا توافق أهواءهم وأمزجتهم ولا تخدم مصالحهم وما يريدون عمدوا إلى قسم من أولئك الأنبياء فرفضوا دعوتهم وكذبوهم، إمّا بأصل بعثتهم وإمّا فيما لا ترغبه نفوسهم. وفريق آخر من الأنبياء إذا كان يشكل خطراً فعلياً على مصالحهم كانوا يقتلونه. .

إن بني إسرائيل طريقتهم وطبيعتهم وديدنهم تكذيب الأنبياء أو قتلهم ولذا جاء قوله تعالى:

﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ فيما مضى ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ أي الآن والمستقبل لبيان طبيعتهم وأنها هذه هي طريقتهم المستمرة ومسيرتهم الدائمة. . .

إن تكذيب الأنبياء وقتلهم هو اعتداء على الله وعلى الإنسانية التي جاء هؤلاء الأنبياء لإنقاذها من الجهل والأخذ بيدها إلى الخير والهدى. . .

ثم إنهم يرتكبون هذه الجرائم المتنوعة ـ تكذيباً وقتلاً ـ ويذهبون في ظنونهم إلى أنهم في مأمن من عذاب الله.. إنهم يظنون أن الله لن يأخذهم بهذه الجريمة... إن الغباء وصل بهم إلى أن يغفلوا عن عقوبة ما يعملون من قبائح وسيئات وتكذيب الأنبياء وقتلهم..

إن حسبانهم ذلك جعلهم عمياً لا يبصرون الآيات والبيّنات والزواجر والنواهي والأثر السيء لأفعالهم.

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ حسبوا أنهم بمنجاة من العذاب مع تكذيبهم فريقاً من الأنبياء وقتلهم فريقاً آخر.

﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ عميت أبصارهم وفقدوا أسماعهم فلم يتدبروا ما يفعلون ولم ينظروا فيما يقومون به من القبائح والسيئات ولم يسمعوا كلام الله ويعتبروا به فأخذهم الله بالعذاب والنكال الأليم، وبعد أن مسّهم العذاب وذاقوا وبال أعمالهم رجعوا إلى أنفسهم وتابوا.

﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ إنهم ذاقوا العذاب فتابوا فتقبّل الله توبتهم ولكن نفوسهم الشريرة عادت من جديد إلى فعل ما ألفته واعتادته، فالخلف على سيرة السلف ولذا...

﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ من جديد... إنها طريقتهم عندما يمسهم العذاب يتوبون ويرجعون ولكن لم تكد العقوبة تُرفع عنهم ويأمنوا بعض الوقت حتى يعود كثير منهم من جديد إلى التمرد والعصيان ونسيان كل ما مرّ بهم وعليهم من عذاب شديد... إن التمرد والعصيان طبيعة يعيشها كثير من اليهود لا يستطيعون المداومة على طاعة الله لأن النفوس الشريرة لا تستطيع أن تقبل الفضيلة باستمرار، فلذا تتمرد عليها وترفضها وتعود إلى العمى والضلال وتصمّ آذانها عن سماع الحق والهدى.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ هذا تهديد لهم بأن الله يرى كل أعمالهم وسيحاسبهم عليها ويجزيهم بها.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ
الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ
ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ
كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا
أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿كَفَرَ﴾: الكفر: هو الخروج من الدين.

﴿يُشْرِكْ﴾: الشرك: أن يجعل مع الله غيره أو يعبد معه غيره.

﴿حَرَّمَ﴾: منع وحظر.

﴿وَمَأْوَاهُ﴾: مرجعهم الذي يؤون إليه ومثواهم الذي يعودون إليه.

﴿أَنصَارٍ﴾: أعوان.

﴿ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾: واحد من ثلاثة.

﴿يَنتَهُواْ﴾: ينزجروا ويرتدعوا ويكفوا.

﴿لَيَمَسَّنَّ﴾: المس: هو اللمس بالعضو ويستعمل في العذاب.

﴿خَلَتْ﴾: مضت.

﴿صِدِّيقَةٌ﴾: مؤنث صدّيق: وهو المبالغ في الصدق، وصدّيقة: صدّقت بكلمات ربها.

﴿انظُرْ﴾: تأمل وفكر.

﴿نُبَيِّنُ﴾: نكشف ونظهر.

﴿الْآيَاتِ﴾: الأدلة والبراهين.

﴿يُؤْفَكُونَ﴾: يصرفون عن الحق، يقال: أفكه: إذا صرفه.

﴿تَغْلُواْ﴾: الغلو: التجاوز في الحدّ.

﴿تَتَّبِعُواْ﴾: يقال: تبعه واتبعه: إذا قفا أثره.

﴿سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾: قصد السبيل.

التفسير

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الكفر بالله رأس الجرائم وأعظمها على الإطلاق كل كبيرة تصغر عنده وكل عظيمة تقل في جنبه.. الكفر اعتداء على الله وتصغير لمقامه وبالتالي يتغير برنامج الحياة كلها انطلاقاً من الإيمان به أو الكفر به...

والله سبحانه هنا يذكر معايب النصارى ومعتقداتهم الباطلة ويحكم عليهم بما هم أهله من الكفر والانحراف وبالتالي التعاسة في الدنيا والخسارة في الآخرة.

﴿لَقَدْ﴾ بلام القسم وقد التأكيدية والموصول الذي فيه معنى الصفة المشعرة بالعلة يكون الحكم قطعياً يصدر من الله.

لقد كفر بالله وخرج من الدين الذين قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم ونسبته إلى أمه تشعر بقبح هذه الدعوة من حيث أنه ينتسب إلى امرأة معروفة مولودة ووالدة تتأثر بكل ما يعرض على الإنسان الممكن من الفقر والحاجة.

ثم إن الله يحكي كلام عيسى وفيه إيقاظ للعقول والضمائر، وكيف أنه لا يرتضي عبادته بل هو يوجه بني إسرائيل - وهو منهم - يوجههم الوجهة الصحيحة والسليمة التي بها يصل الإنسان إلى غايته النبيلة.

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ فالله رب العالمين وإليه يجب أن نتوجه جميعاً بالعبادة! فهو وحده الذي يستحقها وإليه يجب أن تكون...

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ سواء كان شركاً في الذات أو شركاً في العبادة - من يجعل لله نداً أو شريكاً أو من يشرك به في العبادة.

﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ فالجنة محظورة على المشركين بربهم وهم ممنوعون عنها لأن الجنة لا تقبل الخبيثين - والشرك أعظم الخبائث - والمشركون أسوأ العصاة المتمردين.. إن الجنة دار التوحيد والإيمان والعمل الصالح فلا تقبل فيها مشركاً أو كافراً ملحداً...

﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ فإذا حرّم الله الجنة على من يشرك بالله فليس معنى ذلك انتهاء القضية بل سوف يضعه الله في النار... إن مرجع المشرك بالله إلى النار فيها مقامه وفيها استقراره.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ الشرك من أعظم الظلم كما قال الله تعالى فيما ينقله عن لقمان من وصيته لابنه ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[١].

---

(١) لقمان/ ١٣.

والظالمون تتقطّع بهم الأسباب، ليس لهم من يدافع عنهم أو ينصرهم بالشفاعة أو غيرها من عمليات الإنقاذ وقوارب النجاة. . .

فقد الظالمون الأنصار والأعوان واستقروا في جهنم وعذابها. . .

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ﴾ القول بالتثليث وإن الله ثالث ثلاثة الأب والابن وروح القدس وهو ما يذهب إليه النصارى وهو كفر بهذا النص القرآني. . .

من يقول إن الله واحد من ثلاثة! ويعتقد به فهو كافر لا مرية في ذلك!

إن عقيدة التثليث من أفسد العقائد، وهي عقيدة وثنية ينسفها العقل ولا يرتضيها صاحب نظر.

وقد قرأت قبل مدة أن أحد علماء الرياضيات رفض الإيمان بالمسيحية، وقال: إن الإيمان بها يجعلني أتخلى عن عقلي فلما قيل له: ولم؟ قال: لأن في الرياضيات لا يمكن أن تصبح الثلاثة واحداً فكيف يمكن أن أقول أب وابن وروح قدس إلهاً واحداً. . ثلاثة يساوي واحد معناه جنون وأنا لا أرضى لنفسي الجنون. . .

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ﴾ باعتبار أن قولهم باطل وكفر رد الله عليهم وصحّح لهم الخطأ بأوجز عبارة وأفصحها وأدلّها على التوحيد. . . ليس هناك إله أبداً في الوجود إلاّ إله واحد هو المستجمع لصفات الوجوب وهو الله، ويلاحظ أن «ما» للنفي ثم جاء الاستثناء ثم «من» لاستغراق هذا النفي ثم ما في تنكير ﴿إِلَّآ إِلَٰهٌ﴾ من حيث دلالته على استجماع صفات وجوب الوجود. . .

فالله إله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. . .

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إن لم يكفوا ويمتنعوا عن عقيدة التثليث التي يقولون بها ويذهبون إليها ليمسن الذين كفروا منهم وبقوا عليها لهم عذاب أليم موجع مؤلم في الدنيا والآخرة.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤﴾ هذا الاستفهام فيه تعجب من إصرارهم على الشرك وأنهم لماذا لا ينتهون عن هذه الجريمة الكبيرة ويتوبون إلى الله منها بتوحيده ثم يستغفرونه عمّا وقع منهم، ثم أطمعهم سبحانه وفتح لهم أبواب مغفرته ورحمته بقوله:

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو كثير المغفرة لمن رجع وتاب وهو كثير الرحمة بعباده يحب لهم الخير، فلذا يدعوهم إليه...

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ هذه هي حقيقة المسيح كما هي وكما هو الصحيح فيها وهي عقيدة المسلمين فيه وفي أمه...

ليس المسيح إلهاً ولا ثالث ثلاثة، أبداً ليس هو كذلك، وما هو إلا رسول من قبل الله إلى الناس مثله مثل الرسل الذين تقدموا عليه وأدّوا رسالتهم ثم ماتوا...

وصفه بالرسول هذه الصفة التي هي أعظم صفة لإنسان يختاره الله وحصره في هذه الصفة بحيث لا يتعداها إلى غيرها من صفات الله كما يذهب إليه النصارى.

ثم ألحقه بغيره من الرسل الذين تقدموه، ألحقه بهم من جهة البشرية وإن ما جرى لهم يجري له وما جاءهم من معجزات فقد جاءه مثلها وإذا اختلفت نوعاً فإنها كلها من عند الله وبيده.

ووصف أمه بأنها ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ فانحصرت في الصديقية كما قال تعالى في حقها: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾[1] فليس لها خصوصية ترفعها إلى مصاف الآلهة أو مشاركة الله ـ نعوذ بالله ـ في صفاته.

ثم وصفهما الله بصفات البشر وعوارضهم وأنهم يخضعون لقانون الإمكان وقواعد الحاجة والافتقار، فقال:

---

(١) مريم/١٢.

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ فهما كالبشر في حاجتهما إلى الطعام لقوام جسميهما ولكي يكملا شوط الحياة، ومن كان بحاجة إلى أكل الطعام كيف يكون إلهاً؟! وكيف يمتاز على غيره من البشر وهو محكوم بالحاجة كما هم محكومون لها؟. إن الله غني بذاته وبصفاته يتنزه عن الأكل والشرب والحاجة إلى شيء أبداً...

وقد ورد أن قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ كناية عن قضاء الحاجة وأنهما يذهبان إلى الغائط، ومن كان بحاجة إلى أن يذهب إلى الخلاء ليخرج فضلاته كيف يكون إلهاً...

وهذه الكناية لا بأس بها ولكن لسنا بحاجة إليها طالما الأكل يكشف عن الحاجة والافتقار. والله هو الغني بالذات والصفات فلا يقع موقع الحاجة والافتقار في حال من الأحوال...

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أنظر إلى هذه الأدلة والبراهين التي قدّمناها، إن كنت من أهل النظر والرأي والتأمل.. انظر إليها بدقة لتجد وضوحها وظهورها وكيف تُلحق المسيح وأمه بالبشر وتنفي عنهما كل صفة إلهية... إنه مما يثير العجب أن نقدم الأدلة على بشرية عيسى وأمه وهما في المقابل لا يكفّون ولا يرتدعون.

﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون نظرهم عنها ولا يفكرون فيها.. إن ما نسوقه من الأدلة عجيب وأعجب منه أنهم لا يعطونه بالاً ولا يفكرون فيه لسوء نياتهم وخبث سرائرهم ولإصرارهم وعنادهم على الكفر الذي ألفوا عليه آباءهم فعزّ عليهم أن يفكروا فيه فضلاً عن أن يتركوه..

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ قل لهم يا محمد! أتتوجهون بالعبادة إلى غير الله؟! إنه السّفه والحمق، والاستفهام للازدراء بهم..

كيف تتوجهون إلى ما لا يملك لكم نفعاً ولا ضراً؟ بل كيف تتوجهون إلى ما

لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً؟ فالمسيح باعتقاد النصارى أنه أُخذ وصلب ولم يقدر أن يدفع الصلب عن نفسه، وعليه فكيف يدفع الضر عن غيره أو يجلب لهم النفع؟! إن الله سبحانه هو دافع الضر والبلاء وبيده الأمور يحمي إبراهيم الخليل فلا تحرقه النار! ويحمي موسى من كيد فرعون! ويحمي حبيبه محمداً من عتاة قريش ومردة العرب كما أنه سبحانه هو الذي يعطي الصحة للناس ويغدق عليهم المال والجاه والسلطان! فمن كان بيده الضر والنفع هو الله، وأما من لا يملك ذلك لنفسه فضلاً عن غيره كيف يصح أن يؤلهه ويتوجه إليه بالعبادة؟ ومن يفعل ذلك فلنقص في عقله وقصور في تفكيره أو لغلبة العادة والبيئة أو الوراثة والمجتمع الذي يعيش فيه فيسد عليه منافذ التفكير ويمنعه أن يشمّ رائحة الحرية في البحث والدراسة والتحقيق. . .

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ هذا فيه تهديد لهم لأقوالهم وأفعالهم وإن الله هو السميع للأقوال العليم بالنفوس والمعتقدات فهو يجازي عليها ويؤاخذ بها. فإن كانت صحيحة وسليمة ومما يرتضيها الله والعقل فصاحبها إلى الجنة وإن كانت مما تُغضب الله وتتنافى والعقل فصاحبها إلى النار. . .

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ بعد أن بيّن سبحانه افتراءات اليهود وافتراءات النصارى وتجاوزاتهم القبيحة كان هذا الأمر لنبيه محمد ﷺ أن يخاطبهم معاً وبصيغة.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الجامعة لهما معاً، أن لا يغلوا في دينهم غلواً باطلاً وذلك بأن يدعي اليهود أنهم الأمة المختارة وأن دينهم هو الدين الوحيد الذي لا يقبل الله سواه، وكذلك النصارى لا تذهب بهم المذاهب إلى القول أن عيسى عليه السلام إلههم وأن النصرانية بها الخلاص ولا يقبل الله غيرها من الأديان. .

هذا الغلو الباطل الذي يحمل التطرف للأشخاص وللأديان منهيٌّ عنه غير مقبول ولا مرضي. . .

إن الإنسان إذا أثبت حججه على أحقية ما يعتقد وما يذهب إليه من دين؟

فهذا مقبول وهو غلو مرضي، أما أن يكون ذلك بالباطل وبغير الحق فلن يكون ذلك مقبولاً. . .

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ نَهْيٌ لهم أن يتبعوا أسلافهم الذين اتبعوا أهواءهم وخالفوا وصايا أنبيائهم وما جاءوا به من عند الله، فإن اليهود الذين عاشوا قبل بعثة رسول الله ﷺ هم الذين ضلوا وانحرفوا واتبعوا أهواءهم وما يشتهون ضاربين تعاليم السماء عرض الجدار، فالخطيئة بهم تبتدىء ومنهم تخرج وإليهم تعود. . .

﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ أضلوا كثيراً ممن اتبعهم واطمأن إليهم وسار على خطاهم. . . إنهم أئمة الضلال! سار الضالون وراءهم بدون علم ولا معرفة فقد ابتدع الرهبان في المسيحية ألوهية المسيح فجاء من بعدهم من صدّق ذلك فأخذه أخذ المسلّمات ولم يفكّر في ذلك أو يحلّله أو يحاكم هذه الفكرة بشكل نزيه وموضوعي. . .

وكذلك اليهود انغلقوا على أنفسهم وراحوا يرسمون إلههم الخاص فيهم الذي لا يشاركهم فيه غيرهم. . لقد حصروا الله فيهم وقصروه عليهم وراحوا يقولون إنهم أبناء الله وأحباؤه، وهكذا ضلوا وأضلوا غيرهم.

﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وضلوا عن الطريق المستقيم الذي هو الإسلام حيث أنكروا رسوله وحاربوه وأنكروا الإسلام كدين يجب عليهم أن يتديّنوا به. .

قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى
ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ
فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ
كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لُعِنَ﴾: اللعن: الطرد والإبعاد.

﴿عَصَوا﴾: من عصى عصياناً: إذا خرج عن الطاعة.

﴿يَعْتَدُونَ﴾: من الاعتداء: وهو تجاوز الحد بما لا يجوز.

﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾: من النهي: وهو الزجر عن الشيء، ويتناهون: يزجر بعضهم بعضاً عن المنكر.

﴿مُنْكَرٍ﴾: المنكر: كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه أو تتوقف فيه فتحكم الشريعة بقبحه.

﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾: التولي: الحب والنصرة وكونه المتولي لأموره.

﴿سَخِطَ﴾: السَّخَط والسُّخط: الغضب الشديد المقتضي للعقوبة.

التفسير

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ هذه بعض مخازي بني إسرائيل وانحرافاتهم، وقد لعنهم الأنبياء الكرام... إن الأنبياء لا يلعنون إلاّ من استحق اللعن فمن طمس الله على قلبه وفقد كل خير فاستحق الطرد من رحمة الله.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهم أسلاف الحاضرين في زمن النبي ﷺ على لسان داود فلعنهم داود عندما اعتدوا في السبت، ولعنهم عيسى بن مريم عندما قالوا: أنزل إلينا مائدة فأكلوا منها ورفضوا الإيمان.

ثم بيّن سبحانه سبب دعاء الأنبياء عليهم وطردهم من رحمة الله.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ ذلك اللعن كان بسبب عصيانهم وتمردهم وطغيانهم وأفعالهم الشنيعة وتجاوزاتهم المسيئة.. كان ذلك بسبب المعاصي التي ارتكبوها والمحرمات التي اجترحوها.

﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ هذه واحدة من المعاصي التي ارتكبوها، بل هي إحدى الكبائر العظيمة التي فعلوها.. إنهم لم يكونوا يردعوا بعضهم عن الحرام عندما يرون الحرام يمارس أمامهم.. كان أحدهم يفعل المنكر فلا يجد من يردعه عنه أو يرده عن فعله حتى فشى هذا المرض الخطير في ذلك المجتمع... لقد تحوّل المجتمع الإسرائيلي إلى مجتمع مريض بالمعاصي والانحرافات وسكت الناس عن بعضهم لأنهم كلهم شركاء في هذا الحرام فكانت عاقبتهم الطرد من رحمة الله والعذاب الأليم...

من هنا كان الواجب على كل فرد في الأمة إذا رأى انحرافاً أو معصية تمارس أو حراماً يُرتكب أو أمراً واجباً لا يقام أن يبادر إلى ردّ المرتكب للحرام وردعه

عنه وعدم تمكينه من فعله، وإذا رأى واجباً لا يقام فعليه حمل الناس على فعله، وبهذه الطريقة ـ طريقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ نمنع غضب الله أن يصيب هذا المجتمع ونرفع عنه عذابه...

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ اللام لام القَسَم تأكيداً لقبح وسوء فعلهم الذي كانوا يفعلونه، وهل هناك أعظم من الكفر بالأنبياء المستوجب لتوجيه اللعن منهم على الكافرين؟! وهل هناك أعظم من انتشار الانحراف والمعاصي في المجتمع ولا تجد من ينكر أو يردع أو يرد؟!..

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهذه موبقة كبيرة ومعصية عظيمة، وهي أن كثيراً من بني إسرائيل في زمن النبي ﷺ تراهم يتولون الذين كفروا من المشركين فيعقدون معهم الأحلاف ويستنصرون بهم ويتعاونون معهم في مواجهة المسلمين الذين تجمعهم وإياهم وحدة الرسالات الإلهية...

إن الله ينعي على كثير من اليهود ـ يوم كان النبي ﷺ حياً ـ على أنهم يتحالفون مع المشركين من العرب ضد المسلمين...

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ هذا ذم لليهود الذين ساروا خلف أنفسهم المريضة.. يا قبح ما زينته لهم أنفسهم حيث كانت ثمرة هذا التحالف بينهم وبين المشركين غضب الله والإساءة للحق.. إنها تقدمة سيئة من أنفسهم يحصدون نتائجها في النار...

﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ هذه نتيجة ما قدمت لهم أنفسهم أنهم حصلوا على غضب الله وعذابه وحصدوا نقمته وعقابه وفي العذاب ـ عذاب النار ـ هم دائمون مخلدون.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ لو كان بنو إسرائيل يؤمنون بالله والنبي موسى وما أُنزل إليه من التوراة وكلام الله لرفضوا موالاة المشركين لأنه ليس بينهما جامع لا في العقيدة ولا في الدين والشريعة... إن أبسط قواعد الإيمان وصحيح المعتقد يفرض عليهم الوقوف إلى جانب

المسلمين والتعامل معهم على الوقوف مع المشركين والتعاون معهم، ولكن متى كان لليهودي دين يتديّن به؟ نعم كان ولا يزال يبحث عن الفوائد والمنافع والاستثمارات بعيداً عن العقيدة وعن الالتزام بالشريعة فلا غرابة بعد هذا أن تقوم التحالفات بين اليهود والمشركين..

﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وفسْقُ الكثير منهم هو الدافع لهم للوقوف إلى جانب المشركين وموالاتهم لأنهم بحثوا عن الدنيا وما فيها مما يحفظ عليهم رئاستهم وجاههم وما يتمتعون به في دنياهم...

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ
تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا
لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ
اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿مَّوَدَّةً﴾: محبة.

﴿قِسِّيسِينَ﴾: مفرده قس وقسيس، وجمع تكثيره: قساوسة: وهو العالم بدين المسيحية.

﴿وَرُهْبَانًا﴾: الرهبان: جمع راهب وهو المتعبد المنقطع إلى ذلك.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: لا يترفعون، لا يضعفون.

﴿تَفِيضُ﴾: الفيض: إنصباب عن امتلاء.

﴿فَأَثَابَهُمُ﴾: الإثابة: المجازاة، وهي لا تكون إلاّ عن عمل.

﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: النار الشديدة الإيقاد.

التفسير

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ آية تكشف حقيقة اليهود والذين أشركوا.. إنها تدخل إلى قلوبهم وتتبع آثارهم ثم تحكي واقعهم الذي يحملونه على المسلمين وما تنطوي عليه نفوسهم.

«بلام القسم ونون التأكيد الثقيلة» تبدأ الآية حكايتها عنهم: والله لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود لما يحملون في طبائعهم من خبث ولما يعيشونه من حقد وحسد... إنهم قتلوا الأنبياء وكذبوهم واعتدوا على المحرمات وحرّفوا كتاب الله وعاثوا في الأرض الفساد، وهذا وأمثاله سوف يخلق نفسية مريضة لا تحب الخير لأحد بل تكيد لجميع الناس وتنصب لهم المكائد والحيل وتزرع الفوضى والفتن، فإذا كانت حالهم مع كل الناس هكذا فهي مع المسلمين أشد حقداً وحسداً وعداوة ويكفي أن نضرب بنظرنا إلى تاريخ الدعوة الإسلامية وملاحظة ما مرّ على المسلمين من محن وكيف كان اليهود وراء كل ذلك... إنهم ألّبوا المشركين ودفعوهم لمواجهة المسلمين وعندما لم يفلح الشرك بادروا بأنفسهم إلى إعلان الحرب وشنّها، وهكذا حتى أخزاهم الله فأخرجهم من أرضهم وديارهم أذلاّء صاغرين.. وتقديم ذكرهم في العداوة عن الذين أشركوا لعله لهذه النكتة..

ثم تأتي عداوة الذين أشركوا.. إنهم يجتمعون مع اليهود في العداوة.. تجمعهم المصالح وتوحّد فيما بينهم المغانم.. لقد شكّلوا جبهة موحدة في وجه المسلمين ونصبوا لهم العداوة التي لا نزال نرى آثارها في فلسطين وفي كل مكان، لليهود فيه يد قادرة على القهر والبطش...

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ في مقابل اليهود والمشركين «الذين هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا» هناك النصارى الذين هم أقرب مودة إلى المسلمين لأنهم بعيدون عن التعلق بالدنيا وعندهم إنصاف وعدل ورؤية سليمة للأمور...

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ هـذا هـو السـبـب الموجب لمودة النصارى للمسلمين وقربهم منهم، ذلك لوجود علماء في الشريعة لهم معرفة بالكتاب (الإنجيل) وقد رأوا البشارات تنقلها الأيدي النظيفة بظهور نبي يكون في آخر الزمان تنطبق على النبي محمد ﷺ مدعومة بالمعجزات التي تثبت صحة ما جاء به وما يدّعيه...

ومنهم رهباناً قد انقطعوا عن الحياة وراحوا في عزلة يناجون ربهم ويمارسون رياضتهم الروحية للتقرب منه... إنهم أصحاب أرواح شفّافة تستجيب لنداء الحق وتقبل به عندما تراه بدون تكبُّر أو تجبُّر... إنهم يحملون الانقياد للحق في طبعهم وطبيعتهم..

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ هذا المقطع من الآيات نزل قطعاً كما يقول المفسرون في فئة خاصة من النصارى وهم النجاشي وأصحابه أهل (الحبشة) ولا يعمّ كل النصارى..!

فإن جعفر بن أبي طالب عندما هاجر مع المسلمين إلى الحبشة قرأ على النجاشي آيات من سورة مريم وما ورد في القرآن بشأن عيسى وأمه فبكى النجاشي. وبكى من كان حوله من البطارقة ورجال الدين وآمنوا بالنبي ﷺ..

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ إن آيات القرآن حركت فيهم مكامن الوجد والحنين للرسول الأمين وعرفوا صدق ما جاء به من الحق فأثّر ذلك في القلوب فكشفت عنها العيون...

وإفاضة العيون بالدمع مبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت كأنها تفيض ما بأنفسهم.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ تنطلق ألسنتهم بالإيمان وإعلانه بدون خجل أو حياء.. ربنا آمنا بك وبما أنزلت على رسولك محمد ﷺ وما جاء به رسولك من عندك...

﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ إجعلنا شهداء لك بالوحدانية ولمحمد بالرسالة، أو فاكتبنا مع أمة محمد الشاهدين على الأمم وعلى أنفسهم طبقاً لقوله تعالى مخاطباً المسلمين ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[1].

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

إنكار على أنفسهم وأنه كيف لا يدخلون في الإيمان مع قيام موجباته فهو يدل على شدة رغبتهم وميلهم للدخول فيما دخل فيه الصالحون؟!.

كيف لا نؤمن بالله وما جاءنا منه على لسان رسوله ﷺ؟ ومع ذلك نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين. إذا كنا نطمع بالدخول مع الصالحين فما علينا بعد إقامة الحق إلا الإيمان بالله وبما جاء به النبي محمد ﷺ من عنده...

﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

هذه نتيجة مترتبة على صدق إيمانهم وما ذهبوا إليه بحق...

لقولهم: ﴿آمَنَّا﴾ الكاشف عمّا في قلوبهم من يقين صادق بهذا القول، جزاهم الله في مقابله جنات تجري من تحتها الأنهار، وأيضاً جعلهم فيها خالدين، وهذا هو جزاء المحسنين في أقوالهم وعقائدهم وأعمالهم وجميع شؤونهم...

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ لمّا تقدم ذكر الذين آمنوا وصدّقوا بالنبي ﷺ وما ترتب على ذلك من الجزاء العظيم، ذكر سبحانه هنا في المقابل الذين كفروا وكذّبوا بآيات الله المنزلة على رسوله ورتب لهم على ذلك هذا العقاب الأليم...

إن في مقابل ذلك الترغيب يأتي هذا الترهيب.. وما أشد الفرق بينهما، بين نعيم وجحيم وبين جنة ونار...

---

(١) الحج/٧٨.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾: الحرام: هو الممنوع منه، المحظور.

﴿طَيِّبَاتِ﴾: الطيبات: ما تستلذه النفس وتستطيبه.

﴿أَحَلَّ﴾: أباح، والحلال: هو الجائز تناوله خلاف الحرام.

﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾: لا تتجاوزوا المشروع إلى غيره.

التفسير

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الخطاب للمؤمنين بأشرف أوصافهم وأكرمها عند الله «الإيمان» أن لا يحرّموا على أنفسهم طيبات أباحها الله لهم ورخّص في تناولها.

وتحريم الطيبات تارة يكون بتشريع تحريمها على النفس ليصبح التحريم البشري في مقابل الحل الإلهي ومثل هذا ـ نعوذ بالله ـ أن يُقدم أحد من

عامة المسلمين عليه فضلاً عن المؤمنين، لأنه يؤدي إلى الكفر والخروج من الدين..

وتارة يكون التحريم بمعنى أن يلتزم الترك للطيبات بدون اعتقاد التحريم بل تنزهاً عن الملذات وتجنباً للطيبات من أجل قهر النفس وترويضها على الصبر في مواجهة رغباتها.

وبالطبع الآية متوجهة إلى هذا النوع من الالتزام، والنهي عنه نهي عن قاعدة يمكن أن يأخذها الضعفاء فتؤدي إلى الإساءة بالنفس وقد تضر بالغير خصوصاً إذا قبلنا ما ورد في أسباب النزول التي تقول: نزلت هذه الآية في علي أمير المؤمنين عليه السلام وبلال وعثمان بن مظعون فأما أمير المؤمنين فحلف أن لا ينام بالليل أبداً. وأما بلال فحلف أن لا يفطر بالنهار أبداً. وأما عثمان بن مظعون فحلف أن لا ينكح أبداً.

فدخلت امرأة عثمان على عائشة، فقالت عائشة: ما لي أراك معطلة؟ فقالت: ولمن أتزيّن فوالله ما قاربني زوجي منذ كذا وكذا فإنه قد ترهّب ولبس المسوح وزهد في الدنيا، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرته عائشة بذلك فخرج فنادى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات ألا وإني أنام بالليل وأنكح وأفطر بالنهار فمن رغب عن سنتي فليس مني.

فقام هؤلاء وقالوا: فقد حلفنا على ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وسواء صح سبب النزول أم لم يصح فإنه يلقي بأضواء تساعد على كشف المراد من الآية، كما ذهبنا إليه في تفسيرها بالمعنى المتقدّم.

فإن الامتناع عن الطعام وعدم نكاح الحليلة قد يكون مضراً ومسيئاً فلا يجوز...

ومن هنا لا يجوز أن يسنّ المؤمن قاعدة تضرّ به أو بغيره نعم يجوز أن يترك تارة ويفعل أخرى متوخياً المصلحة التي ينشدها وهي تختلف بحسب الظروف والأشخاص والأحوال...

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ باعتبار أن الالتزام بترك الطيبات على نحو القاعدة وبشكل مطلق يشكل إساءة كما قلنا سابقاً، لذا ينهي الله هنا عن تجاوز الحدود المشروعة والدخول في تلك القاعدة لأنها تشكّل اعتداء لما رسمه الله وتجاوزاً لخط الاعتدال إلى تطرّف لا يرضاه الله.

ثم يعقّب سبحانه ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ إشعاراً بالعلة وأن من يعتدي على ما وضعه الله وسنّه في تناول الطيبات يكون من المعتدين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ فلا تكونوا منهم ولا تدخلوا فيهم فلا يحبكم!..

وحب الله لعبده.. إعطاؤه الثواب والأجر، وبغضه لآخر.. عقابه وعذابه له...

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ لأن المؤمنين امتنعوا عن أكل الطيبات التي أحلها الله. أمر سبحانه هنا بتناولها تأكيداً على النهي السابق، فإن رزق الله مباح لعباده، وهو حلال طيب فعليهم أن يأخذوه ولا يمتنعوا عنه وتكون «ما» بيانية لا تقيدية...

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ اتقوا الله في الامتناع عمّا أحلّه الله ولا تسلكوا الدروب والسنن المخالفة للوسطية التي يتبناها الإسلام والتي يرفض من خلالها جانبي الإفراط والتفريط... إن من آمن بالله عليه أن يلتزم بنهجه الذي يرسمه له في كتابه أو في سنة نبيه والمعصومين من آله دون غلو أو تقصير...

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ﴾: لا يعاقبكم ولا يجازيكم.

﴿اللَّغْوِ﴾: اللغو: في اللغة ما لا يعتدّ به ـ وهنا يراد به ما يسبق إليه اللسان أو اعتاده بدون قصد فيقول: لا والله وبلى والله بدون قصد معناها.

﴿إيمانكم﴾: جمع يمين من اليُمن: وهو البركة سماها الله بذلك لأنها تحفظ الحقوق وهي تذكر وتؤنث...

﴿عَقَّدتُّمُ﴾: من عقد اليمين والعهد: إذا أكّده بأن قصد مدلوله.

﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾: الكفارة: من الكفر وهو الستر وهي أعمال تستر هذه الذنوب وتمحوها.

﴿مَسَاكِينَ﴾: فقراء.

﴿أَوْسَطِ﴾: المراد بالوسط في الطعام: أي بدون مبالغة في الجودة أو الرداءة.

﴿أَهْلِيكُمْ﴾: جمع أهل، وأهل الرجل: من يجمعه معهم نسب.

﴿كِسْوَتُهُمْ﴾: الكسوة: اللباس.

﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: عتق عبدٍ أو أمة.

﴿حَلَفْتُمْ﴾: الحلف: هو القسم واليمين.

﴿يُبَيِّنُ﴾: يظهر ويكشف.

التفسير

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أسقط الله في هذه الآية الكريمة الحساب والعقاب وكل التبعات عمن يحلف لغواً وبدون قصد.

واللغو في الأيمان ما كان سهواً أو عادة. فهو يحلف: نعم والله وبلى والله لاعتياده على ذلك دون القصد إلى مدلوله ومعناه.. إنها كلمات تقال على اللسان لم يعقد عليها الحالف قلبه ولم تنطلق عن نية صادقة أو دراية بمدلولها...

في الكافي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول في هذه الآية: قول الرجل لا والله وبلى والله ولا يعقد على شيء.

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ المؤاخذة والمحاسبة والملاحقة تكون على الإيمان ـ الحلف واليمين ـ الصادر عن عقد القلب بما يقول ويتلفظ. فإذا حلف قاصداً المدلول والمعنى من اليمين انعقد ذلك اليمين ووجبت المحاسبة عليه، فإن حنث أي خالف ما أقسم عليه كمن حلف أن لا يشرب التن ـ الدخان ـ قاصداً مدلول ومعنى القسم ثم خالف فشرب فهنا لا تمر الأمور بسهولة بل رتب الله لمن حنث كفارة تسمى كفارة يمين وهي في قوله تعالى:

﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ هذه أُولى خصال كفارة اليمين، فإذا حنث الإنسان الحالف وخالف يمينه فعليه أن يُطعم عشرة

فقراء من المؤمنين من أوسط الطعام الذي يُطعم به أهله، وهذا يقدّر بحسب سعة الرجل وعسره، فتارة يأكل اللحم وأخرى يأكل البرغل وثالثة بأكل الرز، وهكذا فما يكون وسطاً هو المطلوب وما زاد ففيه فضل وخير.

يجب ذلك وجبة واحدة حتى يشبع الفقير أو يُسلّم إلى الفقير ثلاثة أرباع الكيلو من القمح أو الطحين أو اللحم أو الأرز، فإذا أتم تمليكه هذا المقدار من هذه الأعيان برأت الذمة.

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أي كسوة عشرة مساكين، والكسوة: ما يستر البدن ويقدره العرف بحسب الأوقات والظروف.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ هذه ثالثة خصال كفارة اليمين.. أن يعتق رقبة مؤمنة أي يحرّرها من رق العبودية ويطلق سراحها وهذا فقد موضوعه الآن حيث لا رق ولا عبيد...

ثم ذكر سبحانه أنه إذا عجز عن هذه الخصال الثلاثة إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة عندها ينتقل إلى بدل آخر ذكره سبحانه بقوله تعالى:

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ فمن لم يجد القدرة على واحدة من الثلاثة المتقدمة فعليه أن يصوم ثلاثة أيام كفارة عن يمينه التي خالفها ولم يفِ بها...

﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ ما ذكرناه وعددناه من الإطعام أو الكسوة أو تحرير الرقبة فإن كان هناك عجز عنها فصيام ثلاثة أيام ذلك الذي فرضناه كفارة هو كفارة أيمانكم إذا حلفتموها ولم تفوا بها...

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ صونوها عن الابتذال فلا تحلفوا إلاّ في مورد الضرورة كأن تكون لإثبات حق أو دفع باطل.

أو احفظوا أيمانكم إذا حلفتم فلا تحنثوا وتخالفوا ما حلفتم عليه.

أو احفظوها حتى إذا خالفتموها كفرتم عنها...

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كما بيّن الله لكم آياته في مسألة

الأيمان ومتى لا تنعقد وتكون لغواً ومتى تنعقد وكيف يمكن حلها والخروج منها بالكفارة كذلك وبهذه الطريقة الإلهية الكاشفة عن الحلول يبين آياته لعلكم تؤدون شكرها وشكر أمثالها من النعم الإلهية...

وأخيراً فإن اليمين له باب مستقل وضعه الفقهاء في رسائلهم العملية كما بحثوه في موسوعاتهم وأشبعوه تحقيقاً وتدقيقاً وتفصيلاً مع ذكر كل الخصوصيات والجزئيات والخلافات، فمن أراد هذا الموضوع فليرجع إلى (جواهر الكلام) و(الحدائق) وغيرهما من الموسوعات الفقهية...

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلۡخَمۡرِ﴾: سميت بذلك لكونها ساترة للعقل وهي اسم لما اتخذ من العنب والتمر وعند البعض إنها اسم لكل مسكر.

﴿وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾: القمار.

﴿وَٱلۡأَنصَابُ﴾: أصنام أو أحجار كان أهل الجاهلية ينصبونها وتذبح عندها الذبائح.

﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾: سهام من خشب يقترعون بها.

﴿رِجۡسٞ﴾: هو اسم لكل ما استقذر من عمل، والإقذار: رجس لأنها قذارة ونجاسة.

﴿يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ﴾: الوقيعة: القتال.

﴿ٱلۡعَدَٰوَةَ﴾: حالة في النفس توجب النفرة وعدم الالتئام.

﴿ٱلۡبَغۡضَآءَ﴾: ضد الحب، والبغض: نفار النفس عن الشيء.

﴿يَصُدَّكُمۡ﴾: يمنعكم.

﴿وَٱحۡذَرُواْ﴾: أمر من الحذر: وهو احتراز عن مخيف.

﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾: أعرضتم.

﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾: من بلغ، والبلاغ والبلوغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد وبلّغ أوصل الأمر إلى الناس كما هو.

﴿ٱلۡمُبِينُ﴾: الواضح الظاهر.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ يريد الله لهذا الإنسان النجاح والفلاح ويريد له أن يتكامل ويصل إلى قمة السعادة فلذا يدلّه على الدرب الصحيح ويرسم له المسار الموصل إلى تلك السعادة وذلك الكمال...

ومن جملة عناية الله بهذا الإنسان أنه يدلّه عمّا يبطّؤه عن الوصول إلى هدفه وبصيغة النهي والزجر تتوجه الأوامر إلى ترك كل الأمور التي تقف حواجز دون تحقيق الوصول أو تكون حجر عثرة في بلوغ ذلك المرام.

من هنا كانت عملية تحريم الخمر على المؤمنين كما حرّم عليهم الميسر والأنصاب والأزلام...

إنها جملة من قائمة المحرمات لو درسها الإنسان بفكر ورويّة سيعود مقتنعاً. إنها لصالحه ولصالح وجوده ولصالح سعادته ولصالح كماله المنشود له...

الخمر رجس من عمل الشيطان... تعاطي الخمر وشربها من إغراءات الشيطان وتزيناته... إنه يوسوس لهذا الإنسان لكي يشربها، تارة يوسوس له بأن

بها يهرب من مشاكله وهمومه وما يعيشه من أيام صعبة وتارة يغريه بشربها للذتها وما تحمله من نشوة وتبعثه من سرور. . . إنه الشيطان يعزف على كل نغم يحرك في الإنسان الإقدام على تناولها وشربها ويدفعه إلى ممارستها وتعاطيها - والخمر - ليس محصوراً فيما يعصر من العنب أو التمر، بل يعمّ كل مسكر مائع بالأصالة له خاصية السكر فما كان كذلك حَرُم قليله فضلاً عن كثيره. . .

إن كمال الإنسان بعقله، وهذا العقل هو الجوهرة اليتيمة التي بها وعلى أساسها شرّف الله هذا الإنسان وكلّفه بالمسؤولية فأمره ونهاه وزجره وبعثه وبه يكتسب طاعة ربه وبه يدخل الجنة وله توجه الخطاب كما في الحديث «عندما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر. فقال له: وعزتي وجلالي بك أثيب وبك أعاقب».

العقل مناط التكليف والتشريف من الله لهذا الإنسان. . هو أن يكون عاقلاً واعياً لتصرفاته وحركاته. ولذا أسقط الله كل تكليف. وبالتالي كل مسؤولية عن المجنون فلا يؤاخذ في منطقه ولا يحاسب على فعله ولا تجري عليه القوانين الموضوعة للعقلاء. . .

إن هذا العقل يجب أن يبقى في رأس هذا الإنسان المكلّف الذي شرّفه الله وكرّمه وأسجد له ملائكته. . . هذا العقل لا يجوز أن يفقده الإنسان باختياره ولو لحظة واحدة لأنه يُسقط إنسانيته ولو خلال هذه اللحظة ومن أسقط إنسانيته لحظة أو قَبِلَ بإسقاطها ولو لحظة انحطت مرتبته ونزلت مكانته وكشف ذلك عن نفسية مريضة يجب عليه أن يعالجها. . .

إن الله لا يرضى لعباده المؤمنين أن يُسقطوا إنسانيتهم ولو لحظة واحدة ولذا حرّم عليهم شرب الخمر ومنعهم من تناولها. . .

وقديماً قال الشاعر:

واهجر الخمرة إن كنت فتى ... كيف يسعى في جنون من عقل

وباعتبار أنه سبحانه منع منها ولم يرتضيها لعباده فلم يكتف بجانب إصدار

التشريع بالمنع فحسب بل شدّد على ذلك بوضع «حد» عقوبة تردع مَنْ يتعاطاها وترده إلى واقعه السليم والصحيح. . .

﴿الْخَمْرِ﴾ رجس ـ قذارة ـ وسقوط وهبوط عن مستوى الإنسانية وفعلها من إغراء الشيطان فيجب على الإنسان أن يجتنبها ـ أي يبتعد عنها ـ ويضعها جانباً مهملاً لها.

﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ وهو القمار وقد استقبحه العقلاء ونهوا عنه كما نهى الله عنه. فإن اكتساب المال له طرق شرعية وعقلائية يجب أن يسلكها طلابه وروّاده ولا يجوز الحصول عليه من موارد وطرق غير مشروعة. . .

إن القمار كما قيل قطعة من النار يريد من خلاله أهل البطالة أن يحصلوا على المال بأيسر السبل وأسهلها ولا يكلّفوا أنفسهم مشقة التعب والكد والنصب. . . إنك ترى المقامر يتخلى عن شرفه وكرامته ومقدساته في سبيل أن يلعب دورة واحدة وكم من أخبار مسيئة نقلتها وسائل الإعلام في شأن بعضهم حتى قرأت قبل مدة أن رجلاً قامر على زوجته فخسرها فما كان على الرابح إلاّ أن يأخذ المرأة من زوجها. . . إنك أمام رجل قد يبيع وطنه ومقدساته وأعز ما لديه، فكيف يؤتمن مقامر على حبة حنطة أو ذرة ملح فضلاً ائتمانه على كبريات القضايا ومهماتها. . .

﴿وَالْأَنصَابُ﴾ وهي الأصنام التي نُصبت للعبادة أو أنها الأحجار التي نصبها أهل الجاهلية حول الكعبة وكانوا يذبحون عندها ويلطخونها بالدماء فنهى الله عن هذه العادة السيئة التي تأخذ الأحجار من خلالها التعظيم وتحتلّ من نية المؤمن ونفسه وتوجهه التكريم. فأسقط الله احترامها وانتزع كل قدسية لها وجعلها مع الخمر والميسر في رتبة واحدة من الحرفة. . .

﴿وَالْأَزْلَامُ﴾ وهي القداح التي كانوا يستقسمون بها وهي عادة جاهلية تدخل تحت عنوان القمار يقتسم المتبارون بالأزلام لحوم الحيوان المراهن عليه وطريقتها التي كانت سائغة ومتداولة هي قداح عشرة سبعة منها لها أسهم وثلاثة

لا أسهم لها فمن لم تخرج أسهمه كان عليه أن يدفع قيمة الحيوان المذبوح وهي الميسر.

جعل سبحانه هذا الفعل حراماً وما يأخذه المسلم بهذه الطريقة أيضاً لا يحلّ ولا يجوز.

﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أي أنها خبائث وأعمال ساقطة زيّنها الشيطان وروّجها حتى ارتكبها الضعفاء والسفهاء.. إن الشيطان أغراهم بها فأطاعوه. ولذا نهى الله عنها فقال:

﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أي ابتعدوا عنها واجعلوها جانباً مهجورة مهملة غير مكترثين بها ولا ملتفتين إليها..

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تفوزوا برضا الله وما أعده للمطيعين له العاملين بأوامره ووصاياه في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ الخمر والميسر فعلان أثرهما عظيم على الشخص المتعاطي لهما وعلى المجتمع ومن حيث ضررهما العظيم أعاد سبحانه ذكرهما ونبّه على خطرهما فذكر سبحانه بعض تلك الآثار والأخطار.

إن الشيطان من وراء إغرائه للإنسان بالخمر والميسر يريد أن ينشر العداوة بين الناس فتتنافر القلوب وتنتشر البغضاء «التي هي الشحناء» في النفوس فيفسد الود وترتفع المحبة والوئام...

إن معنى أن تنتشر العداوة والبغضاء بين الناس معناه فساد المجتمع لفساد القلوب فيختل النظام ويعيش الإنسان حالة من الطوارىء يشعر خلالها أنه مطارد من قبل الآخرين. وهذا يشكل خطراً كبيراً على استقرار الناس وهدوء أعصابهم.

إن المتعاطي للخمر والميسر يتصاغر وتضعف إرادته ولا يبقى لديه من مقومات الجدية والرجولة شيء. فشارب الخمر إذا سكر تجاوز بالاعتداء على

الآخرين ضرباً وشتماً ومهانة ويتعاطى الرذائل والموبقات بدون وعي أو إحساس، وكم تترك هذه الحالة القبيحة من أثر سيء ومن عداوة وبغضاء...

والميسر: القمار، فإن من خسر أمواله في ساعات كيف يصفو ودّه لمن سبّب له ذلك وتملك أمواله بهذه الطريقة.. إنهما حالتان خطرتان في الحياة الدنيا وعلى الحياة الآخرة.

أما ما يتركانه من أثر على الدين فإنهما بمساعي الشيطان الخبيثة يمنعان عن ذكر الله وعن الصلاة وهذا واقع لا محالة. فمن يشرب الخمر يفقد عقله ومن فقد عقله سقطت من حسابه الصلاة كما يسقط ذكر الله...

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ استفهام إنكاري يراد به أن كل الأعذار قد انقطعت وتعطلت فلا حجة لمن يرتكب شرب الخمر أو يتعاطى بالميسر بعد قيام هذه الحجج والبينات...

قيل: إن هذا النوع من الاستفهام الذي يراد به النهي من أبلغ ما يُنهى به.

وقد ذكر جملة من علماء التفسير من أهل السنة أن «عمر» لما نزلت هذه الآية قال: «انتهينا» أقول: كأنه كان لا يزال يزاولها إلى ذلك الوقت ولم تكفه الآيات الأخرى المحرّمة لها...

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ أطيعوا الله فيما أمر... وطاعته بالأصالة، وأطيعوا الرسول في كل ما جاء فيه وطاعته متفرعة عن طاعة الله واحذروا مخالفتهما فإن من خالفهما شقي وابتلي بالعذاب وأصيب في دنياه بالهوان وفي آخرته بعذاب النيران...

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي أعرضتم عن الطاعة لله ولرسوله ولم تمتثلوا ما أرادا منكم.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي إن ضرر مخالفتكم وعصيانكم لا يعود إلاّ عليكم. وأمّا ما على الرسول فهو البيان والبلاغ وإيصال التكليف إليكم وهو قد أدّى الأمانة وأوصل الرسالة...

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿جُنَاحٌ﴾: إثم.

﴿طَعِمُوا﴾: طعم الشيء يطعمه: ذاق طعمه عن طريق الأكل أو الشرب.

النزول

ذكر أرباب التفسير ومن ألّف في أسباب النزول أنه لما نزلت الآيات السابقة في تحريم الخمر والميسر وورد التشديد في أمرهما قال ناس من المهاجرين والأنصار: يا رسول الله! قُتل أصحابنا وهم يشربون الخمر وقد سماه الله رجساً وجعله من عمل الشيطان! وقد قلت ما قلت: أفيضرّ أصحابنا ذلك شيئاً بعد ما ماتوا؟ فأنزل الله هذه الآية، فهذا لمن مات أو قُتل قبل تحريم الخمر، والجناح: هو الإثم على من شربها بعد التحريم...

ثم بعد ذكر سبب النزول اختلفت أقوال المفسرين...

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله وما تتطلبه العقيدة من التوحيد والعدل والمعاد وكل شؤون وشجون الرسول والرسالة.

﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قاموا بالأعمال الصالحة، وهي جميع الواجبات من صلاة وصوم وحج وزكاة وقضاء حاجات الناس ومساعدتهم وردّ الظلم والاعتداء عنهم، وهكذا اختلفت أقوال المفسرين في هذه الآية فمنهم من قصرها على مورد النزول وقال: إن كل من تناول حراماً قبل تحريمه فلا إثم عليه إذا توقف عنه وامتنع عن ممارسته وحافظ على إيمانه وأعماله الصالحة...

ومنهم من خرج عن سبب النزول وخصّها بالأمور المحللة مهما تمتع بها الإنسان إذا كان مؤمناً عاملاً للصالحات... ولكن الحق أن الآية تشمل كلا الأمرين وتشمل ما لو صدرت من الإنسان معصية من شرب خمر أو كسب حرام في ساعة غفلة أو عن عمد ـ دون إصرار ـ فعاد إلى إيمانه وعمل الصالحات وتشمل الآية التوسعة في المباحات كالدار الواسعة والمركوب الفاره الثمين والأكل الطيب، وهكذا...

وتكون الآية من باب الامتنان على الخلق وأنه سبحانه رؤوف بهم لا يلاحقهم في التوسعة والمباحات أو لخروجهم عن طاعته طالما أنهم عادوا إلى رحابه وحافظوا على عقيدتهم وإيمانهم وتابعوا أعمالهم الصالحة...

وأما تكرار التقوى فقد تعددت الأقوال فيها ولا دليل قاطع على أحدها وإنما هي احتمالات، والأرجح أنها للمبالغة وللتأكيد على هذه الصفة وفضل الإتصاف بها والمحافظة عليها... إلى آخر قائمة الأعمال الصالحة.

﴿جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا﴾ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات إثم أو عقوبة تلحقهم إذا شربوا الخمر أو تناولوها لأنهم شربوها قبل التحريم أو شربوها في ساعة غفلة أو حالة ضعف ثم عادوا إليه ولم يتزلزل إيمانهم أو تهتز عقيدتهم... وإنما الإثم على من شربها بعد التحريم أو استمر على تناولها تمرداً وعصياناً...

﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ليس عليهم جناح إذا اتقوا الله فلم

يرتكبوا محرماً وقاموا بكل متطلبات الإيمان من الأعمال الصالحة. وقيل: إن هذه أولى مراتب التقوى - وهي تقوى الظاهر -.

﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا﴾ اتقوا الله في ترك الحرام.

﴿وَءَامَنُوا﴾ صدقوا ذلك التحريم وهذا تأكيد على التقوى، وقيل: إنها التقوى التي تدخل القلب وتنفذ فيه وهي أقوى من الأولى...

﴿ثُمَّ ٱتَّقَوا﴾ بالاجتناب تأكيداً للهروب من الحرام، وقيل: هذه التقوى أرفع التقوى وأعظمها، ولذا لم يتبعها بالإيمان وإنما بقوله:

﴿وَأَحْسَنُوا﴾ أي احسنوا إلى أنفسهم أو إلى غيرهم بالأعمال الصالحة، فكأن الإيمان قد فُرغ منه وقد ثبت واستقر إلى حيث لا يحتاج إلى ذكر وإنما تجاوزه إلى الإحسان الذي هو فضل وزيادة خير.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ كأنه علة لقوله: ﴿وَأَحْسَنُوا﴾.

فائدة

ذكر بعضهم: أن التقوى على ثلاثة أوجه:

١ - التقوى في الله: وهي ترك بعض الحلال فضلاً عن الشبهة وهي تقوى خاص الخاص.

٢ - والتقوى من الله: وهي ترك الشبهات فضلاً عن الحرام وهي تقوى الخاص.

٣ - التقوى من خوف النار والعذاب: وهي ترك الحرام وهي تقوى العام.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾: ليختبرنكم، والابتلاء: هو الاختبار.

﴿الصَّيْدِ﴾: مصدر عومل معاملة الأسماء وأوقع على الحيوان المصيد.

﴿تَنَالُهُ﴾: تدركه.

﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾: جمع رمح، والرمح: عود طويل في رأسه حربة.

﴿حُرُمٌ﴾: أي محرمون بحج أو عمرة.

﴿مُتَعَمِّدًا﴾: تعمّد الشيء: قَصَده، وعمد للشيء: إذا قصد فعله.

﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾: قال الراغب: الجزاء: ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ، والجزاء: الغِناء والكفاية.

﴿ٱلنَّعَمِ﴾: قال الراغب: النعم: مختص بالإبل وجمعه أنعام وتسميته بذلك لكون الإبل عندهم أعظم نعمة لكن الأنعام تقال على الإبل والبقر والغنم.

﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ﴾: يقضي ويفصل به.

﴿ذَوَا﴾: مثنى ذو: بمعنى صاحب.

﴿هَدۡيَۢا﴾: الهدي: هو الأضحية التي يهديها المحرم في حج أو عمرة.

﴿بَٰلِغَ﴾: وصل الأمر موصلة الحد.

﴿مَسَٰكِينَ﴾: جمع مسكين: وهو الفقير.

﴿عَدۡلُ ذَٰلِكَ﴾: مساو له.

﴿لِّيَذُوقَ﴾: الذوق: وجود الطعم بالفم وأصله فيما يقلّ واستعمله الله في الكثير والقليل والمقصود به هنا العذاب.

﴿وَبَالَ أَمۡرِهِۦ﴾: سوء فعله.

﴿سَلَفَ﴾: مضى.

﴿فَيَنتَقِمُ﴾: الانتقام: العقوبة، وانتقم منه: أي عاقبه.

﴿أُحِلَّ﴾: الحل: الطلق.

﴿مَتَٰعٗا﴾: منفعة.

﴿وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾: جمع سيار: وهو المسافر.

﴿وَحُرِّمَ﴾: الحرام: هو المحظور.

﴿ٱلۡبَرِّ﴾: خلاف البحر، وهي اليابسة.

﴿تُحۡشَرُونَ﴾: تجمعون وتساقون إليه.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾. قيل: إن هذه الآية نزلت عام الحديبية عندما أحرم المسلمون للعمرة وأداء فريضتها فكثر الصيد حتى كادوا يأخذونه بأيديهم فجعله الله ابتلاء لهم واختباراً لإيمانهم فكانت الآية الكريمة...

الخطاب للمؤمنين وهي عامة سواء كانوا محرمين أم لا والمهم أن يكونوا في الحرم ـ وإن كان نزولها والحال أنهم محرمون..

إن الله يخاطب المؤمنين بأحب صفاتهم ومن خلالها يذكّرهم بما يجب أن يكونوا عليه ليحفظوا مضمون هذا اللقب الشريف.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والله ليختبرنكم ببعض الصيد الذي يسهل عليكم التقاطه باليد «كما هو الحال في بيض الطير وصغاره» أو بالرماح «وهو ما كان كبير أو مستعصياً» وما كانت سهولة الصيد ويسر تناوله ووقوعه تحت اليد إلاّ لأجل امتحانكم بل كان الامتحان به أصعب خصوصاً في تلك الظروف الصعبة التي كان المسلمون فيها بحاجة إلى الصيد وقد بيّن سبحانه سبب هذا الابتلاء والامتحان إنه من أجل أن تظهر حقائق الإيمان وينكشف للإنسان نفسه ولغيره من الناس مدى ارتباطه بالله ومدى إيمانه به وليعرف من يخشاه ويجلّه في عالم الغيب حيث لا رقيب ولا حسيب ممن لا يخشاه ولا يجله إلا بحضور الناس، فإن ذلك يكشف عن هشاشة الإيمان أو قوته...

إن الإيمان بالله يفرض على الإنسان أن يتعاطى مع كل ما يصدر عن الله من أوامر ونواهي وأحكام وتشريع على أساس قوة العقيدة التي لا يتأثر بها الإنسان سواء شاهده الناس أم لم يشاهدوه وسواء علموا بذلك أم لم يعلموه.

إن الإيمان بالله لا يتجزأ وأكثر ما يتجلى عندما تغيب أنظار الناس وينفرد الإنسان في مسؤولياته فينكشف عندها هذا الإيمان حيث تبقى رقابة الله في الخلاء كما هي في العلن...

يبقى أن نشير إلى أن بعضهم حمل قوله: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ التناول باليد على وجه الحقيقة كما أشرنا إليه في التفسير ناسياً أن هذا كناية عن سهولة صيده ويسر تناوله، وإلاّ لانتفى أن يكون صيداً. . .

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فمن تجاوز بعد هذا البيان الإلهي ومارس الصيد اعتداءاً على الحكم الشرعي وانتهاكاً لهذا الحظر فله عذاب مؤلم موجع.

يبقى أن نشير أن قوله: ﴿بِشَىْءٍ﴾ إشارة إلى التصغير لهذا الابتلاء والتحقير له بالنسبة إلى غيره من الابتلاءات الأخرى كالجهاد المسلح وملاقاة الأبطال وما ينتج عن ذلك من قتل وأسر وجراحة. .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ نهى سبحانه المؤمنين عن قتل الصيد وهم محرمون قد لبسوا ثياب الإحرام ودخلوا في عمرة أو حج. .

والإطلاق ـ للصيد ـ يشمل مأكول اللحم وغير مأكول اللحم.

كما أن الصيد لا يشمل الحيوانات الأهلية فيجوز ذبحها والاستفادة منها.

ولا يخفى أن التسبيب بالقتل يحرم أيضاً كما تحرم المباشرة.

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

هذه الآية تبيّن حكم من عصى الله وتمرد عليه وخالف النهي المتوجه إليه «بحرمة الصيد وهو محرم» فإن من ارتكب مثل ذلك الأمر مخالفة لله فيما نهي متعمداً قاصداً ـ لنزول الآية فيمن تعمد ـ وإن كان المراد الأعم حتى المخطىء ـ فعليه ما يعادل المقتول من النعم ـ وهي الإبل والبقر والغنم فمراده سبحانه من قوله:

﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ أي مثله في الحجم والشكل ـ إن كان له مثل. . . ولما كانت الأشكال مما تختلف فيها الأنظار بحسب التقدير والتساوي أمر الله أن يفصل في هذا الأمر ويكون تعيين ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ بيد عدلين من عدول المؤمنين

حافظين لدينهما مطيعين لربهما من أهل الخبرة والدراية في هذا الموضوع فما حكما به من المشابهة ينفذ وعليه تجري الأمور وهو جزاء العصيان والتمرد الذي وقع فيه من قتل الصيد. . .

وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾[1] قال: في النعامة بدنة وفي حمار وحش بقرة وفي الظبي شاة وفي البقرة بقرة.

ـ وفي حديث آخر عن أبي[2] عبد الله عليه السلام: في الظبي شاة وفي البقرة بقرة وفي الحمار بدنة وفي النعامة بدنة وفيما سوى ذلك قيمته.

وهناك أحاديث كثيرة تناولت بالتفصيل كفارات الصيد وغيره كما أن الفقهاء قد استنبطوا أحكاماً كثيرة تعرضوا لها في أحكام الحج. . .

ثم بيّن سبحانه أن هذه الكفارة التي تكون جزاء الصيد العمدي إنما تكون هدياً يذبح عند الكعبة والمقصود بها مكة ضمن الحرم المكي، هذا إذا كان المحرم في إحرام العمرة، أما لو كان الإحرام للحج فيفدي في منى. . .

وفي الحديث عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: من[3] وجب عليه فداء صيد أصابه وهو محرم فإن كان حاجاً نحر هديه الذي يجب عليه بمنى وإن كان معتمراً نحره بمكة قبالة الكعبة.

وطبعاً لا يتناقض أو يتنافى هذا الحديث مع الآية التي تعيّن الذبح عند الكعبة لأن الآية نزلت في عمرة التمتع فالتفصيل لا ينافيه. . .

﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ من لم يقدر على المثل لعجز وعدم قدرة أو لفقدانه وعدم وجوده فيكفّر بإطعام مساكين تقدر بقدر الكفّارة الواجبة عليه.

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ١ من أبواب كفارات الصيد، حديث ١ ـ ٢.
(٢) نفس المصدر
(٣) نفس المصدر، حديث ١.

فإن كان جزاؤه بدنة ولم يجدها فعليه إطعام ستين مسكيناً لكل مسكين مد.

وإن كان جزاؤه بقرة فلم يجدها فعليه إطعام ستين مسكيناً.

وإن كان فداؤه شاة ولم يجدها فعليه إطعام عشرة مساكين.

والسُّنة الشريفة تناولت تفصيل الإطعام.

﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ فإن عجز عن الإطعام المتقدم عدل عنه إلى الصيام وقد تقدّرت في الأحاديث...

فمن عجز عن البدنة كفارة له عن النعامة صام ثمانية عشر يوماً..

ومن كان عليه كفارة بقرة ولم يقدر عليها صام تسعة أيام.

ومن كان عليه كفارة شاة ولم يقدر عليها صام ثلاثة أيام..

وهناك في كتاب الحج من الفقه تفاصيل كثيرة لكفارات الصيد من الأرنب والثعلب والحمامة والعصفور وغير ذلك، كما أن هناك لمن ارتكب أمراً محرماً من محرمات الإحرام كالجدال والنظر إلى المرأة بشهوة والاستمناء والجماع والطيب وليس المخيط والكذب وقتل الحشرات وهوام الجسد والتظليل للرجال وغير ذلك، وقد استوفى فقهاؤنا رضوان الله عليهم البحث في ذلك في مجاميعهم الفقهية وأتوا على كل التفاصيل والخصوصيات بما لا مزيد عليه فمن أراد ذلك فليطلبه من مظانه كالجواهر والحدائق والمستمسك وغيرها من الموسوعات...

﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي إنما فرض على المحرم القاتل للصيد عمداً ما فرضه من الكفارات ـ مثله من النعم أو الإطعام أو الصيام ـ ليشعر بالعاقبة السيئة التي اقترفها من فعله والمعصية الكبيرة التي لم تذهب بدون جزاء...

والوبال: سوء العاقبة للفعل المحرّم الذي قام المحرم بقتله للصيد عمداً...

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ ما كان من الصيد في المرة الأولى كان جزاؤه ما تقدم من كفارة معينة جزاؤه مثل ما قتل أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ـ وهذا قد عفا الله عنه وسامح فاعله واكتفى منه بهذا القدر.

وقيل: عفا الله عمّا سلف مما وقع في زمن الجاهلية أو ما كان عن خطأ.

والأقرب الأول بقرينة قوله تعالى فيما بعد:

﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ المفسر بأن من عاد إلى الصيد وقتله عمداً في المرة الثانية فلا كفارة عليه في الإحرام الواحد إلاّ كفارة واحدة في الصيد الأول أما من عاد متعمداً الصيد في المرات الأخرى فهذا أمره إلى الله فهو المتولي للانتقام منه والقصاص مما انتهكه من الاعتداء والظلم وارتكاب المحرّم...

الآية الكريمة ترعب الإنسان وتجعله يرتجف خوفاً وفزعاً لأن الله لم يقبل كفارة لمن ثنى في قتل الصيد عمداً وتولى هو سبحانه الانتقام منه والتعذيب له نستجيره من عذابه ونلجأ إليه من نقمته...

في الحديث عن أبي عبد الله[١] عليه السلام قال: المحرم إذا قتل الصيد فعليه جزاؤه ويتصدق بالصيد على مسكين، فإن عاد فقتل صيداً آخر لم يكن عليه جزاؤه وينتقم الله منه، والنقمة في الآخرة...

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ والله مقتدر بقوته ممتنع بسلطانه لا يفوته عاصٍ ولا متمرد يأخذ من يشاء ممن يستحق العقاب بألوان العذاب...

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ الآية تبيح للمحرم صيد البحر بعد أن منعت الآية المتقدمة من صيد البر، فهي ناظرة إلى أصل تشريع الفعل فحسب ولم تنظر إلى أن ما يُصطاد يجوز أكله أو لا يجوز فهي غير واردة في مقام بيان هذه الجهة حتى يستدل بها على حلّية كل ما في البحر من حيوانات أو لا فهذا يتكفل به بيان آخر؟

والمراد من ﴿طَعَامُهُۥ﴾ ما يصنع طعاماً مما صيد وكان حلالاً.

---

(١) وسائل الشيعة، كتاب الحج، باب ٤٨ من أبواب كفارات الصيد.

وفي بعض الأخبار أنه السمك المملح اليابس يأخذه المسافرون معهم في أسفارهم ورحلاتهم. . .

ويمكن أن يكون قوله: «لكم وللسيارة» إشارة إلى ذلك فيكون لكم الطري المصيد جديداً وللسيارة ﴿طَعَامُهُ﴾ المملح اليابس.

وهناك تفسيرات أخرى لا نرى موجباً لذكرها لعدم فائدتها إذ هي أقوال استحسانية بدون دليل صحيح يدل عليها أو يدعمها.

«والسيارة»: هم المسافرون الذين يتركون بلادهم ويحتاجون إلى طعام يحملونه معهم. . .

والمتاع هنا يقصد به القوت والمنفعة وما يستفيد منه الإنسان من طعام لذيذ يسدّ حاجته. . .

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ هذا تأكيد على حرمة صيد البر، وأنه لا يجوز الصيد ولا أكل المصيد من الحيوانات ما دام الإنسان مُحرماً بعمرة أو حج. . .

﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ هذا تهديد وتوعيد بأن يحذر الإنسان من عذاب الله فيترك الحرام ويفعل الواجب ومنه ما مرّ من تركه صيد البحر ثم أننا جميعاً سنعود إلى الله وسيكون حسابنا عليه، فكيف نعود هل سنعود مع الذنوب التي سيحاسبنا عليها وتتلقى جزاءنا عذاباً وهواناً؟ أجارنا الله من كل ذلك وشملنا بعفوه ومغفرته. . .

قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ
وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
(٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩)﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿جَعَلَ﴾: صيّر ووضع.

﴿الْكَعْبَةَ﴾: سميت الكعبة بذلك لأنها مربعة أو لأنها بارزة مرتفعة.

﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾: هي الكعبة الشريفة.

﴿قِيَامًا﴾: ما به يقوم الأمر ويقوى ويدوم.

﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾: اسم للشهور التي يحرم فيها القتال وهي أربعة: ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، رجب.

﴿الْهَدْيَ﴾: ما يهدي المحرم في الحج والعمرة من الأضحية.

﴿الْقَلَائِدَ﴾: جمع قلادة: وهو ما يعلّق في العنق، والمقصود هنا ما كان يعلق في عنق الأضحية لتميزه بأنها لذلك.

﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾: من بلغ، والبلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد، وبلّغ: أوصل الأمر إلى الناس كما هو.

﴿تُبْدُونَ﴾: تظهرون.

﴿تَكْتُمُونَ﴾: تخفون، وكتم الشيء: أخفاه وستره.

التفسير

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ هذه الآية تجعل للكعبة شرفاً عريضاً وكرامة عظيمة ينتقل الإنسان فيها إلى منطقة مباركة وبقعة آمنة خالية من كل الإثارات والحروب والمعارك حتى أن هذا السلم يسري إلى الحيوانات وإلى كل ذي نفس حية تتحرك في ذلك المكان المبارك...

وصف سبحانه الكعبة بالبيت الحرام تشريفاً لها، ثم جعلها محور عزة الناس ومركز صلاحهم وسبب انتعاشهم.. إن قوتهم وعزتهم وسؤددهم وما به وجودهم الصحيح والسليم الذي يحفظ عليهم تقدمهم واستمرارية وجودهم الكريم إنما يكون في ظلال هذا البيت الحرام والتردد إليه وزيارته وتكريمه إذ ليس هناك بقعة أشرف منها يلتقي فيها المسلمون من شتى بقاع الدنيا يعقدون فيها مؤتمرهم السنوي يدرسون فيه قضاياهم ومشاكلهم ويسعون في حلّها ويدرسون ما ينفعهم ويفيدهم فيخططون له وللوصول إليه...

إن الكعبة ـ أعزها الله ـ هي محور قوة المسلمين وراية عزهم بها يقوى الإيمان ويجدّد الإنسان خلال أداء واجبه فيها الميثاق لله فتشتد العزائم وترتفع الهمم وينال بذلك الأجر والثواب...

إن الكعبة هي نقطة الدائرة التي تحفظ التوازن بين كل الجهات وتصون المسلمين من كل خلل أو سوء...

يقصد الكعبة الزُّهاد والعُباد ويقصدها التجار، يقصدها الخائفون والمذنبون والتائبون.. يقصدها كل طالب حاجة لدينه ودنياه...

إنها بأخصر تعبير لأوسع مدلول وأعمقه جعلها سبحانه ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ بكل ما تحمل كلمة ﴿قِيَـٰمًا﴾ من انبعاث وقوة ومنعة وعزة وكرامة وصلاح و....

﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ الألف واللام للجنس ليشمل الأشهر الحرم الأربعة وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب فإن الله سبحانه كما حرّم بقعة معيّنة ومنع الاعتداء فيها حرّم قطعة زمنية معيّنة وهي هذه الأربعة أشهر حرّم الله فيها القتال ليأمن الناس على أرواحهم فيتحركون بحريّة لتأمين معاشهم. ففي هذه الأشهر تقوم حياة الناس وتستقر ويكون بها استمرارية وجودهم ودوام بقائهم المناسب لهم كبشر محترمين...

﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ وهي الأضاحي التي تذبح وكذلك ﴿ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ وهي الحيوانات التي تُقلّد بوضع علامة في عنقها تدليلاً على أنها أصبحت في حكم الأضحية. فهذان الصنفان الهدي والقلائد يوفران للناس حاجاتهم في موسم الحج كما أن بهما انتعاش أصحاب الحاجة والعوز في تلك البلاد...

﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما جعله الله من حرمة للبيت الحرام وللشهر الحرام وللهدي والقلائد وما وضع فيها من تشريع إنما هو لعلمه بحكمة هذا التشريع الذي يدخل تحت علمه العام وهو علمه بكل ما في السموات والأرض من أشياء ومخلوقات وما جلّ منها وما دقّ.. إنه سبحانه يعلم ما في السماوات وما في الأرض بدقة وتفصيل وبكل الخصوصيات لأنه الخالق المبدع المصوّر فهو العالم بكل ذلك يعلم بما يصلح هذا الكون وما يصلح هذا الإنسان وينفعه فهو يضع التشريع المناسب الذي يحفظ هذا الوجود ويحفظ ما فيه وهو الذي وضع تشريع حرمة الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد حسب المصلحة التي يعلمها سبحانه.

ثم أخيراً أكد علمه بقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فهو العالم بكل الجزئيات والتفاصيل والخصوصيات لا يغيب عن علمه ذرة في السماوات ولا في الأرض...

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ضعوا في أفكاركم وخذوا العلم الأكيد أنه سبحانه وتعالى شديد العقاب لمن عصاه وتمرد على أمره لأن مخالفة الكبير كبيرة وأن الله غفور رحيم لمن تاب وعاد ورجع إلى الله.. إنه سبحانه قرن الترهيب بالترغيب والرجاء مع الخوف لتستوي شخصية الإنسان فلا تسقط تحت الخوف ولا تطغى وتبطر إذا آمنت واطمأنت...

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ مهمة الرسول أن يوصل الأمانة إلى الناس.. إنه يحمل كلام الله ويبلّغه إليهم وهذه المهمة بدون شك قد أدّاها الرسل على أكمل وجه ولم يبق على الناس إلاّ الاستجابة والقبول ومتابعتهم فيما جاءوا به، فإن أطاعوا فازوا وإن رفضوا سقطوا...

إن مهمة الرسول إيصال ما كُلّف به إلى الناس والمكلف نفسه هو الذي يتحمل مسؤولية تقصيره كما ينال جزاء استجابته وطاعته...

ثم من باب التهديد، وإنه سبحانه يعلم بواطن هذا الإنسان وظواهره وما يسره ويبطنه حذّره بقوله:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فهو يجازي كل فاعل وما انطلقت منه أفعاله ويحاسب أصحاب الشر وما يكتمونه ويخططون له في الخفاء كما يحاسب أصحاب الشر ممن يعلنون ويظهرون...

قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لَّا يَسْتَوِى﴾: لا يتساوى أو يتعادل.

﴿ٱلْخَبِيثُ﴾: الرديء.

﴿ٱلطَّيِّبُ﴾: الحلال الخالص.

﴿أَعْجَبَكَ﴾: سرّك وراق لك، الإعجاب: السرور.

﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أصحاب العقول.

﴿تُفْلِحُونَ﴾: الفلاح: الفوز والنجاح.

التفسير

قاعدة عامة يضعها الله أمام النبي ويأمره أن يبلّغها للناس لا يتساوى في ميزان الله الرديء والجيد من كل شيء سواء كان ذلك في الأفكار أم في الأعمال أم في الأعيان أم في غيرها...

لا يتساوى فكر التوحيد بصفائه وطهره وآثاره مع فكر الشرك ولوثات الجاهلية بكل أنواع الشرك وأصنافه سواء كان ذلك شركاً في التوحيد أو العبادة في تثنية الله أو تثليثه أو غير ذلك...

ولا يستوي العمل الصالح مع العمل الفاسد.. مساعدة الفقراء وأهل العوز لا تتساوى مع ظلم الناس والاعتداء عليهم.. لا يتساوى شرب الخمر مع العبادة والتهجد...

لا يتساوى الخمر الحرام والشراب الحلال ولا التجارة الحلال والربا الحرام ولا الاكتساب بكدّ اليمين وعرق الجبين مع السرقة والاحتيال...

ولا يستوي أهل الإيمان والتوجّه إلى الله مع أهل الكفر والمعصية والتمرد على الله ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والفجّار...

نفي المساواة بين الطيب والخبيث قاعدة عامة يجب أن يتنبه لها أهل الحق فلا يغتروا بكثرة الباطل فتعجبهم كثرتهم فيكون ذلك مثار فتنتهم وفتنة غيرهم.. لا تعجبك كثرة الكفار فتظن أن الحق معهم وإلى جانبهم ولا تذهب بك المذاهب إلى أن الفسق قد انتشر بين الناس وأصبح أهله أكثر من أهل الإيمان فتقول إن الحق إلى جانبهم...

إن الربح من الحرام كالربا وبيع الخمر قد يكون أكثر من الربح الناتج من الأشياء الحلال فيعجبك كثرة الربح من الحرام فتقدّمه على الحلال وتغترّ به وتصبح من أهل الفساد...

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اجتنبوا معاصيه واعملوا بأوامره.

﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ يا أصحاب العقول السليمة التي تنتفعون بها وتكسبون الآخرة بالعمل بوحيها.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إذا تابعتم سيركم وفق الحق إلى آخر الشوط سيتحقق فوزكم ونصركم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن
تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا
قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

اللغة

﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾: تظهر وتنكشف.

﴿تَسُؤْكُمْ﴾: تضركم وتؤذيكم من السوء: وهو كل ما يغمّ الإنسان من الأمور الدنيوية والأُخروية النفسية والبدنية.

التفسير

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

سبب النزول:

قالوا: إن سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ قد خطب، فقال: إن الله كتب عليكم الحج. فقال عكاشة بن محصن ويروي سراقة بن مالك: أفي كل

عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثاً فقال رسول الله ﷺ: ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبتْ ولو وجبت ما استطعتم ولو تركتم كفرتم فاتركوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه...

صح السبب أم لم يصح فالعبرة بعموم النص والآية ظاهرة المعنى واضحة الدلالة قد نستشهد بها كثيراً في حياتنا العملية فحينما نروي قصة أو نرفع قضية أو يتحرك بعض الناس ببعض الأسئلة التي تمسهم أو تؤذيهم إما لعلاقتهم بالقصة أو لأمر يتعلق بهم من خلالها نقرأ الآية لهم، ونقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ لا تسألوا عن أشياء وتبحثوا عنها بدقة لأنها إذا انكشفت لكم وعرفتموها تؤذيكم فلو بقيت في طيات الجهل لكانت من الخير لكم...

﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ إذا كان سؤالكم عن هذه الأشياء في أوقاتها المناسبة تظهر لكم وبدون أذية أو إساءة كما لو كانت الآيات تنزل في أمر فيجهله بعضهم، فلو سأل عندها مستفهماً ومستوضحاً لكان في ذلك السؤال منافع وفوائد ولم يكن فيه أذية.. ولو سأل عن تفاصيل ما وقع مما نزل به القرآن أيضاً تنكشف الأمور وبدون إساءة.

وبعبارة أخرى أن بعض الأسئلة تأتي في غير أوقاتها أو في خلاف السِّياق أو يكون فيها السائل متعنتاً فهذه أسئلة قد تكون الإجابة عنها مسيئة للسائل وأمّا إذا كانت في موقعها الطبيعي وفي وقتها وظرفها المناسب فلو ظهرت لم يكن بها بأس بل قد يكون فيها النفع والفائدة.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ صفح الله عن تلك الأسئلة وسامح أصحابها الذين أساءوا استعمالها فكانت في غير محلها.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يغفر السيئات ويتأنى فلا يعاجل الناس بالعقوبة لعل هناك من يتوب أو يرجع...

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴿١٠٢﴾﴾ هذا تأكيد لمضمون المعنى في الآية السابقة بذكر شاهد عليه وأنّ هناك قوماً ممن سبقنا من بني إسرائيل سألوا أنبياءهم عن أشياء فلما كشفوها لهم أساءتهم، كما سأل بنو إسرائيل نبيهم موسى ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾[1] أو كما سأل قوم صالح نبيهم آية فبعث الله الناقة... وهكذا فلما جاءهم الجواب كفروا به ولم يعملوا بما سألوا فكانت المعصية وكان التمرد والكفر فلا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسوءكم وتضر بدينكم وعقيدتكم وحسن توجهكم...

---

(١) النساء/١٥٣.

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿بَحِيرَةٍ﴾: البحيرة من البحر وهو الشق، وهنا يقصد بها الناقة يشقون أذنها إذا أنتجت خمس أبطن امتنعوا عن ركوبها وذبحها.

﴿سَآئِبَةٍ﴾: الناقة التي تترك لآلهتهم بنذر.

﴿وَصِيلَةٍ﴾: الوصيلة في الغنم: هي الشاة إذا ولدت أُنثى فهي لهم وإذا ولدت ذكراً كان لآلهتهم وإذا ولدتهما معاً لم يذبحوا الذكر إذا وصلته بأخته، وقيل في تفسيرها غير ذلك.

﴿حَامٍ﴾: الفحل الذي يولد من ظهره عشرة أبطن، يقولون: حمي ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء أو مرعى.

﴿يَفْتَرُونَ﴾: الإفتراء: الكذب.

﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾: من العقل: وهو القوة التي تهيأت لقبول العلم.

﴿تَعَالَوْا﴾: هلموا.

﴿حَسْبُنَا﴾: يكفينا.

التفسير

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ ما شرع الله وليس في دينه تحريم هذه الأمور التي اعتادها أهل الجاهلية... إنها ميراث الأسلاف انتقل إلى الأبناء بدون سند شرعي أو عقلي ولذا نهاهم الله عن تحريم هذه الأمور أو الذهاب إلى تحريمها تمشّياً مع تقاليد الآباء الذين لم يتلقوا ذلك عن رسول ولم يكن من منطلق سليم.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ وهي الناقة التي أنتجت خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أي شقوها وحرّموا ركوبها والانتفاع بها حتى على صاحبها وهذه واحدة من انحرافات الجاهلية في العادات..

﴿وَلَا سَائِبَةٍ﴾ وهي ما كانت تُوقف لآلهتهم بنذر وشبهه فتترك بحيث لا يستفاد منها.

﴿وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ وهي من ولدت توأم ذكر وأُنثى قالوا وصلت أخاها وحرموا الذكر.

﴿وَلَا حَامٍ﴾ وهو كما يذكرون الفحل إذا أنتج عشرة أبطن من ظهره قالوا: حمي ظهره وتُرك فلا يمنع من ماء أو مرعى...

هذه أمور كانت جارية كعادات يتداولها ذلك المجتمع الجاهلي وتأخذ في بعض وجوهها منهجاً عبادياً يتدينون به، ومن هنا جاء الإسلام لكي يمحو كل آثار هذه الجاهلية ويقضي على كل بقاياها السيئة فأبطلها وعطّل العمل بها ولم يسمح بشيء منها.. لا بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام إنها كلها باطلة لا يجوز العمل بها أو تداولها أو التديّن بها. إن كل مفردة من هذه المفردات يحرم العمل بها لأنها ليست من شرع الله ولا نزلت في دينه.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ إن هذه العادات التي كانت الجاهلية تتبناها وتعمل بها كانت تطغي عليها صبغة شرعية افتراها الجاهليون، إنهم مارسوا هذه الانحرافات وقالوا إن الله شرّعها لنا، فنحن نعمل بما شرع الله، ولكن الله كذّبهم وبيّن سبحانه أنهم يكذبون في دعواهم ـ أن الله شرعها. إنهم يريدون تبرير هذه الأعمال المحرّمة بحجة أن الله قد شرعها لهم ولكنهم يكذبون في هذا الادعاء ويفترون في هذا القول.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أكثر هؤلاء المفترون الكذبة لا يفكرون بعقولهم ولا يحللون هذه العادات وإنما قلدوا بها أسلافهم وتقبلوها بدون دراسة وتحليل، وهذا هو الخطأ فيهم والقبيح في تصرفهم...

ثم إن هؤلاء إذا أراد أحدٌ أن يصحّح لهم أخطاءهم ويردهم إلى الصواب من أمرهم لم يقبلوا ذلك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ إنها دعوة ناصحة من أجلهم ومن أجل تصحيح معتقداتهم وما يذهبون إليه.. إذا قيل لهم هلُمّوا إلى ما أنزل الله في كتابه من تحريم لهذه العادات وإلى ما حرمه الرسول منها قالوا:

﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ إنها مقولة جاهلة سَدّت على العقل منافذه وعلى الوعي طرقه، بدل أن يفكّروا فيما قيل لهم اكتفوا بأسهل الطرق وإن كان فيها تعاستهم وسوء اختيارهم. إنهم قالوا: يكفينا تراث الآباء والأجداد وما وجدناهم عليه من عادات في هذه المجالات. إنها وثنية التقليد للآباء والأجداد تلغي من خلالها كل الشرائع السماوية والرسالات الإلهية وهذه الوثنية لا تزال حية تعيش في كثير من المجتمعات البشرية حتى يومنا هذا.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ردّ الله عليهم مقولتهم الظالمة ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ بقوله تعالى: لو كان آباؤكم جهلة لا يفهمون وضالون غير مهتدين ستكتفون بما قالوا وتكتفون بما سنّوا وشرّعوا...

إن آباءكم جاهلون ضالون فكيف تكتفون بما اعتادوا عليه وتسلمتموه منهم بدون أن تفكروا فيه أو تحللوا مدلوله ومضمونه؟

إنه لا يجوز الاستسلام لعادات الآباء والأجداد إذا كانوا جاهلين ضالين لا يرتبطون بعلم يُنير لهم الدرب السليم وليس لهم رسول يهديهم الطريق الصحيح.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: الزموا أنفسكم، ﴿وَعَلَيْكُمْ﴾: اسم فعل بمعنى الزموا.

﴿لَا يَضُرُّكُم﴾: لا يؤذيكم ويسيء إليكم.

﴿ضَلَّ﴾: الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، ويضادُّه الهداية.

﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: الرجوع: العود إلى ما كان منه البدء.

﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: فيخبركم.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ خطاب إلى المؤمنين أن يلزموا أنفسهم بالطاعة والالتزام بأمر الله، وأن يحفظوا أنفسهم من المعاصي والانحرافات وما فيه غضب الله ويحملوها على الطاعة والإيمان وما فيه سعادتها وخيرها. والآية تجعل المؤمنين كجسد واحد وتخاطبهم بصيغة الجميع بحيث تحولهم إلى وحدة يجب أن يحملوها على الإيمان وحب الله وطاعته والبعد عن معصيته...

﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي إلزموا أنفسكم أيها المؤمنون وانتبهوا لبعضكم ولا تتركوا منكراً يعيش بينكم أو رذيلة يمكن أن تقع في صفوفكم...

ثم نبّههم سبحانه أن ضلال غيرهم لا ينعكس عليهم ولا يجرّ أذياله على واقعهم ومستقبلهم.

إن من ضل سيتحمّل وحده عاقبة ضلاله وسوف لن تتحملوا أوزار عصيانه وتمرده ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(١) بل كل نفس تحمل تبعات عملها ونتائجه.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأنتم جميعاً سترجعون إلى الله وتعودون إليه فيحاسبكم على كل أعمالكم الصغيرة منها والكبيرة ما ظهر منها وما بطن. فالمطيع إلى الجنة والعاصي إلى النار ولا يؤخذ أحد بذنب أحد ولا يحاسب أحداً على أحد..

فوائد:

١ ـ إن كلمة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من كلمات الإغراء وهو اسم فعل وهنا جاء متعدياً، ولذا نصب ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ وهو بمعنى ألزموا أنفسكم...

٢ ـ إن الخطاب توجّه إلى مجموع المؤمنين وجعلهم كجسد واحد فخاطبهم بخطاب واحد وكأنهم نفس واحدة.

٣ ـ يدلُّ الآية على أن النفس هي محط الهداية وهي محور الخير والشر والهداية والضلال فيجب أن يبتدىء المؤمنون منها لتكون طريقتهم في الإصلاح ناجحة ناجعة.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ فيه وعد للمؤمنين ووعد للضالين المنحرفين.

---

(١) فاطر/١٨.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿شَهَٰدَةُ﴾: الشهادة: هي قول صادر عن علم بمشاهدة بصر.

﴿حَضَرَ﴾: الحضور: وجود الشيء بحيث يمكن أن يدرك، حضر المشهد: إذا شهده، وحضر الوقت: حان، وحضر الموت: إذا نزل الموت بالإنسان.

﴿حِينَ﴾: وقت وزمان.

﴿ٱلْوَصِيَّةِ﴾: الفرض، العهد ما يعهد به الإنسان لآخر من التصرفات بعد وفاته.

﴿ذَوَا﴾: مثنى ذو: بمعنى صاحب.

﴿عَدْلٌ﴾: العدل: وضع الشيء موضعه، والعادل: هو الملتزم بأوامر الشرع فلا يرتكب حراماً بترك واجب أو فعل حرام.

﴿ضَرَبْتُمْ﴾ في الأرض سافرتم: لأن المسافر يضرب الأرض برجله.

﴿فَأَصَٰبَتْكُم﴾: أدركتكم ووقعت بكم.

﴿مُّصِيبَةُ﴾: الأمر المكروه الذي يحل بالإنسان.

﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾: تمسكونهما: أي توقفونهما لأداء الشهادة.

﴿فَيُقْسِمَانِ﴾: من القسم: وهو الحلف واليمين.

﴿ٱرْتَبْتُمْ﴾: شككتم.

﴿نَشْتَرِى﴾: نستبدل.

﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾: القربى: من القُرب ويقابله البعد ويستعمل في النسبة فيقال: «ذو القربى» لأرحام الإنسان ومن يتصل به.

﴿وَلَا نَكْتُمُ﴾: لا نخفي ولا نستر.

﴿ٱلْءَاثِمِينَ﴾: العاصين المذنبين.

﴿عُثِرَ﴾: ظهر، والعثور: هو الوجدان والحصول، وعثرت على الدابة: إذا وجدتها.

﴿ٱسْتَحَقَّآ﴾: حصّلا.

﴿إِثْمًا﴾: ذنباً ومعصية.

﴿يَقُومَانِ﴾: يحلاّن.

﴿مَقَامَهُمَا﴾: مكانهما، محلهما.

﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾: تثنية أولى بمعنى أحق.

﴿ٱعْتَدَيْنَآ﴾: تجاوزنا الحد وعصينا.

﴿أَدْنَىٰٓ﴾: أقرب.

سبب النزول

رُوي في الكافي عن علي بن إبراهيم عن رجاله رفعه قال: خرج تميم الداري وابن بيد وابن أبي مارية في سفر وكان تميم الداري مسلماً وابن بيد وابن أبي مارية نصرانيين وكان مع تميم الداري خرج فيه متاع وآنية منقوشة بالذهب وقلادة أخرجها إلى بعض أسواق العرب للبيع، واعتل تميم الداري علة شديدة فلما حضره الموت دفع ما كان معه إلى ابن بيد وابن أبي مارية وأمرهما أن يوصلاه إلى ورثته، فقدما المدينة وقد أخذا من المتاع الآنية والقلادة وأوصلا سائر ذلك إلى ورثته فافتقد القوم الآنية والقلادة فقال لهما أهل تميم هل مرض صاحبنا مرضاً طويلاً أنفق فيه نفقة كثيرة؟

فقالا: لا إلاّ أياماً قلائل.

فقالوا: هل سُرِقَ منه شيء في سفره هذا؟

قالا: لا.

فقالوا: فهل أتجر تجارة خسر فيها؟

قالا: لا.

قالوا: فقد افتقدنا أفضل شيء كان معه آنية منقوشة مكلّلة بالجوهر، وقلادة.

فقالا: ما دفع إلينا فقد أدّيناه إليكم، فقدّموهما إلى رسول الله ﷺ وأوجب رسول الله ﷺ عليهما اليمين فحلفا فخلّى عنهما.

ثم ظهرت تلك الآنية والقلادة عليهما فجاء أولياء تميم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! قد ظهر على ابن بيد وابن أبي مارية ما ادعيناه فانتظر رسول الله ﷺ من الله عز وجل الحكم في ذلك فأنزل الله سبحانه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا ظهرت إمارات الموت وعلاماته عليكم فاعلموا أن الله أمر بالشهادة على الموصي.

خاطب الله المؤمنين بأشرف صفاتهم «الإيمان» لكي يكون دافعاً لامتثال ما يأمر به ويريده منهم. إنه أمرهم إذا ظهرت إمارات الموت على أحدهم وأراد أن يوصي فليُشهِد اثنين من عدول المسلمين، فالشهادة المطلوبة منكم وبينكم هي شهادة عدلين.

﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يشهد اثنان من عدول المسلمين على وصية الموصي المسلم ومعروف أن العدالة هي الالتزام بالشرع وعدم الخروج عن أحكامه. فالعادل هو الذي يقوم بالواجبات ويترك المحرمات ويلتزم جادة الشرع الكريم...

وأما إذا لم يكن هناك شاهدان مسلمان كما لو كان الموصي الذي اقترب أجله في سفر ولم يتوفر الشاهدان المسلمان فهنا يأتي البديل وهما شاهدان من غير المسلمين.

قال تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ يشمل كل أصناف الكفار، ولكن بعضهم خَصَّها باليهود والنصارى والمجوس دون غيرهم من أهل الأوثان وعبدة الأصنام.

وطبعاً هذه ـ شهادة غير المسلمين ـ إنما تكون بعد فقدان الشهود المسلمين.

وأما قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهل يقتصر في شهادة غير المسلم على وصية المسلم أن يكون ذلك في سفر ولم يجد المسلمين أم يعمّ ذلك ما إذا كان في حضر ولم يجد الشهود المسلمين، الظاهر إن الآية عامة في كل حالة يُفقد فيها الشهود العدول المسلمون وهذا لا ينافي الآية لأنها واردة في السفر.

﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ إذا شك أهل الموصي وورثته في صدق الشاهدين لإمارات ظهرت عندهم فعندها يجب أن يوقفا بعد الصلاة ويقسما يميناً محكماً يعلمنا الله كيف يكون، إنهما يقسمان:

«والله لا نحلف بالله كذباً ولا نستبدل بقسمه عرضاً ولو كان من نقسم لأجله قريباً لنا وتربطنا به وشائج رحم ولا نكتم شهادة الله التي أرادها منا يعني أن تكون على وجهها الصحيح وكما رأينا وسمعنا وكما هي فإنا إذا فعلنا ذلك أي خالفنا كنا من الآثمين العاصين». وباختصار يقسمان على أن يشهدا بالحق دون أن تؤثر عليهما وتنحرف بهما المطامع والغايات والأرحام والمنافع الدنيوية بل يأتون بالشهادة كما تحمّلاها بدون زيادة أو نقيصة.

فوائد

١ ـ الشهادة هنا من أجل إثبات الحق حتى لا يضيع، وهي أمر تتبناه الأمم والشعوب وتعمل به باستمرار ولا يزال العمل قائم على ذلك، ومن أخلّ بذلك فقد ضيّع حقه وإن لم يكن قد ارتكب حراماً..

٢ ـ إن قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ يُقصد به توقيفهما، وجعل سبحانه ذلك بعد الصلاة لأهمية الصلاة وأثرها في إصلاح النفس وعدم ارتكابها للمنكر وهو الإخلال بالشهادة.

٣ ـ العدالة المعتبرة هنا وفي غيرها من القضايا إنما هي التزام جادة الشرع، فلا يرتكب حراماً بدون عذر ولا يترك واجباً بدون عذر.

٤ ـ قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مطلقة غير مقيدة بصلاة معينة فيجوز ذلك بعد كل صلاة ولكن لفعل النبي ـ إن صح ـ إنه فَعَلَ بعد صلاة العصر فيكون اليمين بعد صلاة العصر.

٥ ـ اشترط لإثبات الحق هنا وجود شاهدين عادلين يقومان بالشهادة، وأمّا تفاصيل ذلك: وهل يعمّ النساء ويشملهم أو يقتصر على الرجال فقط؟ فهذا وغيره تعرّض له الفقهاء في موسوعاتهم الفقهية فمن أراد ذلك فليرجع إليها. . .

٦ ـ قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ هذا الترديد مأخوذ على نحو الترتيب وأنه مع عدم وجود المسلمين نأخذ بشهادة غير المسلمين.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ فإنه يدل على أن الله يشهد هذه الواقعة، فيجب على الشاهدين أن يصدقا الشهادة التي شهدا بها الله أو لأن الله جعلها من حقوقه على الناس فيجب أن يؤدوها على وجهها. .

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ فإذا انكشف كذب الشاهدين في شهادتهما واستحقا إثم الكذب في الشهادة فهنا يُعدل عنهما إلى أولياء الموصي وورثته، يقول تعالى: ﴿ءَاخَرَانِ﴾ من ورثة الموصي.

﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ وهم أهل الموصي وورثته يكونان محل الأوليين اللذين انحرفا بالشهادة ولم يأتيا بها صحيحة وكما هي على وجهها «ولله بدون كذب».

إن خيانة الأوليين في شهادتهما سقطا مع سقوط شهادتهما وحلّ محلهما أولياء الموصي وورثته وتوجّه اليمين إليهم.

وكيفية شهادة أهل الموصي تكون كما علّمنا الله ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

يحلفان بالله إنهما أحقُّ بهذه الدعوى منهما وأنهما قد كذبا فيما حلفا عليه وإننا إذا خالفنا ما نعلم نكون من الظالمين وحاشا لإنسان مسلم أن يحشر نفسه مع الظالمين.

ومن المعلوم أنه بعد ظهور كذب الشهود على وصية الموصي وردّ اليمين على ورثته يستطيع الورثة أن يحلفوا على كذب ما شهد به الشهود وعندئذٍ تسقط شهادتهم، فإذا سقطت يحلف أهل الموصي على ما يعلمون من متاع يملكه مورّثهم وقد أخذه معه في سفره.

ثم إن هذه العملية بجميع فصولها حيث تبيّن كذب الشهود على وصية الموصي بعد اليمين منهم وبحضور جمع غفير من المصلين صلاة العصر ثم قيام أهله باليمين على كذبهما وإثبات الحق بذلك، كل هذا من أجل غاية كبيرة وهي أن يكون الشهود من أهل الحق ولا يشهدون إلاّ به لحفظ حقوق الناس وعدم تضيُعها عليهم.

فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ من فصول تجميع خصوصيات ما تقدم.

﴿أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أقرب لأن يأتوا بالشهادة على وجهها وكما هي بدون كذب أو خيانة ويؤدونها لله خالصة ليثبت بها الحق لصاحبه.

﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أو يخاف الشهود إذا انحرفوا بشهادتهم ولم يتحملوها كما هي أن تردَّ شهادتهم ويقوم أولياء الموصي وورثته باليمين، وعندئذٍ يفتضح أمرهم بين الناس ويظهر كذبهم للعيان، وفي ذلك خزيٌ لهم وعارٌ إلى الأبد..

وبعبارة أخرى إن ما جرى من فصول من أجل أن يحسب الشهود في شهادتهم حساب الله أو حساب الناس، فإن كانوا مؤمنين يخافون الله فيوقعونها على وجهها وكما تحملوها، وإن كانوا غير متدينين فيخافون الفضيحة والخزي وهذا من دواعي أن يشهدوا بها كما تحملوها بدون كذب أو التواء...

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ اتقوا الله في الشهادة واليمين، وليكن كل منهما في موقعه كما تحمّله وكما يجب بدون انحراف أو إلتواء أو كذب أو مراء... واسمعوا ما توصون به سماع إجابة واعملوا بمضمون ما سمعتم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فمن خرج عن حدود الشرع والالتزام وسار في طريق الكذب وتحريف الشهادة فلن يجبره الله على الهدى ولن يلزمه بالهداية لأنها مرهونة بالاختيار، وهو قد اختار الفسق والانحراف والله يتركه وشأنه لكي يحاسب ويعاقب وينال جزاء انحرافه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَجْمَعُ﴾: الجمع: ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض.

﴿أُجِبْتُمْ﴾: الجواب يقابل السؤال، والجواب: ما يعود من الخطاب دون المبتدأ منه.

﴿عَلَّٰمُ﴾: صيغة مبالغة يقصد به أنه لا يخفى عليه خافية.

﴿الْغُيُوبِ﴾: جمع غيب: وهو ما غاب عن الحس.

التفسير

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ أذكروا ذلك اليوم الذي يجمع الله فيه الرسل، أو اتقوا ذلك اليوم، إنه يوم رهيب لا يقوى عليه مخلوق إنه يوم الحساب.. يوم تفتح فيه الملفات وتصفّى فيه الحسابات وينال كل فرد جزاء عمله ونتيجة سعيه.

اتقوا يوماً يجمع الله فيه الرسل للسؤال عمّا كان منهم.. عن تبليغ رسالات الله وأداء الأمانة والقيام بالمهمة العظيمة التي أُوكلت إليهم وأُسندت إلى جنابهم.

﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾ الله سبحانه وتعالى يقول لرسله: كيف كانت إجابة أممكم لكم؟ هل لبّوا دعوتكم؟.. هل أطاعوا ما أنزل الله؟.. هل التزموا بكلام الله؟.. استفهام يراد به تقرير الرسل ويحمل معه تهديد ووعيد للمتمردين المتمنعين عن قبول الحق: ويأدب الأنبياء المعهود مع الله.

﴿قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ﴾ قالوا لا علم لنا بجانب علمك وأي علم لنا؟!

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ إنك تعلم ما ظهر لنا منهم وما أبطنوه في قلوبهم وداخل سرائرهم... تعلم الظاهر والباطن والسر والعلن، تعلم خفايا الأمور ودقائقها وكلّ ذرة فيها...

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿وَٰلِدَتِكَ﴾: أمك التي ولدتك.

﴿أَيَّدتُّكَ﴾: قويتك، مأخوذ عن الأيد: وهو القوة.

﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾: جبرائيل.

﴿ٱلْمَهْدِ﴾: فراش الطفل - وهنا يقصد به طفلاً.

﴿وَكَهْلًا﴾: الكهل: ما بين الشاب والشيخ، وقد حدد بين الثلاثين إلى الخمسين. وقيل: إلى الستين.

﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: مصدر ما يكتب فيه سُمّي بذلك لأنه يجمع فيه أبوابه وفصوله ومسائله.

﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: إصابة الحق بالعلم والعقل.

﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: الكتاب الذي أنزله الله على موسى.

﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾: هو الكتاب الذي أنزله الله على نبيه عيسى وقد حرّفه أتباعه من بعده.

﴿تَخْلُقُ﴾: أصل الخلق: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء كما في الباري عز وجل - وهنا يراد به: تصنع.

﴿ٱلطِّينِ﴾: تراب يجبل بالماء ويخلط به.

﴿كَهَيْـَٔةِ﴾: الهيئة: جمعها هيئات، كيفية الشيء وشكله وصورته.

﴿ٱلطَّيْرِ﴾: جمع طائر: وهو كل ذي جناح يسبح في الهواء.

﴿فَتَنفُخُ﴾: نفخ بفمه: أخرج منه الريح بطريقة معروفة فيها بعض الدفع.

﴿وَتُبْرِئُ﴾: تُشفى، وبرىء من المرض: إذا شفي منه.

﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾: الذي ولد أعمى.

﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾: المصاب بالبرص: وهو بياض يعتري الجلد ينفّر.

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾: جمع ميت: وهو فاقد الحياة.

﴿كَفَفْتُ﴾: منعت وصرفت، ومنه الكفيف لأنه منع من الرؤية.

﴿جِئْتَهُم﴾: أتيتهم.

﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: المعجزات والدلالات.

﴿سِحْرٌ﴾: السحر: هو التمويه والتخييل بالباطل حتى يرى الإنسان الشيء على غير حقيقته.

﴿مُّبِينٌ﴾: ظاهر واضح.

التفسير

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ بعد أن جمع الله الرسل في الآية المتقدمة وسألهم عن إجابة أقوامهم لهم، تعرّض هنا لعيسى بن مريم النبي العظيم وذكّره سبحانه بما أعطاه من النعم، وحين رأى أتباعه ذلك تجاوزوا فيه حدود العقل والنقل واعتدوا على الله حينما رفعوه إلى مصافه واتخذوه معه إلهاً.

أذكر إذ قال الله: يا عيسى بن مريم! اذكر نعمتي عليك، ونعمة الله على عيسى كبيرة وكثيرة ومتعددة الأنحاء والجوانب.

أنعم عليه حيث خلقه من غير ذكر بل بكلمة ﴿كُن﴾ وجعله يدلي ببرهانه على صدق أمه وهو طفل رضيع فيثبت طهارتها وبراءة ساحتها وجعله نبياً وهو في المهد ثم من نعمه أنزل عليه الإنجيل. وهكذا كما يأتي في نفس الآية المباركة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى...

وأما نعمته على والدته أن أعطاها المسيح وجعلها صدّيقة طاهرة وبرّأ ساحتها من كل دنيّة وعار، وهكذا...

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي قوّيتك ودعمتك بجبرائيل يسدّدك ويأخذ بيدك نحو الكمال وما فيه الخير والفلاح. وهذه أعظم النعم وأجلّها وهي الأساس لكل الكمالات الأخرى، فإن هذا التأييد بروح القدس الذي هو جبرائيل - الأمين على الوحي - هو الذي يرتقي بعيسى إلى مقام القرب الربوبي، ولهذا قدّمه في الذكر ثم عطف عليه غيره، إمّا لأنه الأسبق زماناً أو لأنه الأعظم شأناً...

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ وهذا من نعم الله على عيسى حيث جعله يتكلم مع الناس وهو طفل صغير يبرّىء ساحة والدته ويعظهم ويخبرهم أنه نبي فهو يتكلم بمعجزة إلهية أرادها الله منه وهو طفل، وكذلك جعل نعمته عليه وهو كهل كبير يحمل الرسالة ويبلّغها لقومه ويهديهم إلى الله ودينه وما فيه نجاتهم...

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قيل: علمه الكتابة وهي الخط، وهذا المعنى بعيد والأقرب أنه علّمه جنس الكتاب ومنه تعليمه الإنجيل الذي هو من مفردات تلك الكتب . . .

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي السداد في القول والفعل وأنه عليه السلام كان يضع الأمور مواضعها.

﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ هذان مصداقان للكتاب ذكرهما سبحانه لأهميتهما وعُلُو شأنهما، فالتوراة عِلْمُها صار عند عيسى بتعليم الله والإنجيل صار علمه إليه بإنزاله عليه . . .

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ وهذه من نعم الله على عيسى أن أعطاه الله معجزة خارقة لم يعطها لأحد قبله ولا بعده وهي بإذن الله جعلها الله برهاناً على نبوته، حيث يأخذ بعض الطين ثم يجسّد صورة طير - أي طير أراد - ثم ينفخ فيه بنفسه الطاهر وفمه الشريف فإذا بالطين الميت تدبّ فيه الحياة ثم يتحرك ويطير . . .

ومن أجل أن يرفع سبحانه ما ربما يذهب إليه بعض الجهّال من تأليه لعيسى عليه السلام قرن ذلك كله بقوله ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، وأنه هو سبحانه الذي سمح له به وأعطاه هذه النعمة وأقدره على هذا الفعل العظيم . .

ولا يخفى أن الضمير ﴿فِيهَآ﴾ في قوله: فتنفخ فيها يرجع إلى الهيئة المشبهة للطير.

﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ تشفي الأعمى الذي ولد كذلك، وأيضاً بإذن الله وهو الذي سمح لك بذلك.

﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ بلمسة منه أو دعاء يتحوّل هذا الإنسان الذي تشمئز منه النفوس وتتحول عنه الأنظار إلى إنسان صحيح سليم قد برىء من كل علته التي عاش أيامها الصعبة ولياليها القاسية . . .

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ أي تحيي الموتى وتعيد إليهم الحياة بعد فقدانها فيخرجون من قبورهم فيراهم الناس أحياء . . .

كرّر سبحانه قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِى﴾ عند ذكر كل معجزة ليدلل أنها ليست فعل عيسى على الاستقلال فإنها وإن جرت على يديه لكنها بإذن الله وبعد أن سمح له بها.

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهذه أيضاً من نعم الله على عيسى حيث جاء بني إسرائيل بالمعجزات الدالة على صدقه وصدق ما جاء به، فبدلاً من أن يؤمنوا به ويتداعوا إلى تصديقه راحوا يرسمون له الحيل ويحيكون المؤامرات لقتله والتخلص منه، ولكن الله هو سبحانه تكفّل بردهم وردعهم ومنعهم أن يقتلوه.

﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هذه مقولة الذين كفروا بعيسى ولم يؤمنوا بنبوته كما هي عقيدة اليهود، حيث يعتبرون المسيح مرتداً خارجياً ودجّالاً وساحراً وسحره واضح ظاهر بحيث استطاع من خلاله أن يُمَوّه على البسطاء والمغفلين فيجعلهم يؤمنون به ويتخذونه نبياً.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَوْحَيْتُ﴾: من الوحي: وهو إلقاء المعنى إلى النفس خِفية، وهو على أقسام ـ وهنا يراد به: الإلهام أو الأمر.

﴿ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾: هم أخلص أصحاب المسيح وأكثرهم إيماناً به.

﴿يَسْتَطِيعُ﴾: يقدر.

﴿مَآئِدَةً﴾: المائدة: هي الخوان الذي عليه الطعام أي السفرة، فإن لم يكن عليه طعام فليس بمائدة.

﴿وَتَطْمَئِنَّ﴾: تسكن وتستقر.

﴿عِيدًا﴾: فرحاً وسروراً.

﴿وَءَايَةً﴾: دلالة ومعجزة.

التفسير

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ وهذه أيضاً من نعم الله على عيسى حيث جعل الحواريين يستمعون لكلامه ويقبلون به ويؤمنون بمضمونه..

واذكر إذ أوحيت: ألهمت الحواريين ـ وهم أصحاب عيسى الخُلّص ومن كان يتّبعه، ألهمتهم أن آمنوا بي كرب لكم وآمنوا برسولي عيسى حيث أرسلته إليكم وإلى الناس.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ انطلقت ألسنتهم تحكي ما في ضمائرهم.. إنهم قالوا آمنّا بك يا رب إلهنا وخالقنا واشهد بأننا مسلمون لك أي منقادون مطيعون مستسلمون...

قصة المائدة

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

لقد آمن الحواريون بعيسى وبلغوا مبلغاً عظيماً من الإيمان، ولكنهم أرادوا أن تطمئن قلوبهم في أعلى درجات الاطمئنان وأن يبلغوا بإيمانهم عن طريق مشاهدة الآيات وإدراكها ولمسها بأيديهم ما لم يبلغه إيمان غيرهم من الناس. ومن هنا كانت معجزة المائدة التي طلبوا إحضارها واقترحوا على المسيح أن يأتيهم بها.

﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ سؤال في ظاهره يحمل نوعاً من عدم الراحة إليه.. لأنه من الحواريين أصحاب المسيح

والنخبة المؤمنة التي عرفته وآمنت به، ثم إن لكلمة ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ﴾ إحساساً خاصاً يوحي بالشك لو صدر من غيرهم، ولكنهم الحواريون.

وعلى كل حال انطلق المسيح محذّراً لهم ومخوّفاً من هذا الطلب ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ خافوا الله ولا تعصوه، لقد رأيتم الآيات ووصلت إليكم الأنباء.. لقد شاهدتم المعاجز فحقّ لكم أن تؤمنوا ولا تقترحوا آيات جديدة، ولكنهم أصرُّوا على طلبهم وأظهروا ما وراء هذا الطلب من هدف رفيع.

﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ إنه هدف نبيل يريدون من ورائه أن يأكلوا من المائدة فيلامسوا الحقيقة ويبلغوا منتهى الإيمان فتطمئن قلوبهم أكثر مما هي عليه فترتفع بقايا الشكوك والوساوس، ثم يدخلون من خلال ذلك إلى عالم التصديق فيما جاء به ويحملون هذه المشاهدة شهادة يؤدونها إلى الناس.

فللحواريين أربعة أهداف من وراء طلب المائدة:

١ ـ الأكل منها فلم يكن طلبها عبثاً.

٢ ـ أن تطمئن قلوبهم: أي لا يبقى أثر للتردد أو الشك.

٣ ـ أن يحصل لهم العلم بصدق ما بلغهم عن ربهم من أنه نبي وأنه عبد الله.

٤ ـ أن يشهدوا يوم القيامة أو في دار الدنيا على صدق عيسى وصدق ما جاء به.

ويستمع المسيح إلى أهدافهم فلا يردهم بأكثر مما مرّ ـ من الأمر بالتقوى ـ ثم يرفع يديه ويتضرع إلى ربه.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ إنه الأدب النبوي مع الله.. وتموت كلمة ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ﴾ من دعائه بل ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ التوجه الكامل وبنداء اللهم ربنا يستفتح مطلوبه... من عمق القلب ومن كل الإحساس والشعور والتأمل والفكر

تنطلق الكلمات ثم يطلب المصلحة العامة. ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما اقترحها الحواريون وكما أرادوا طبق اقتراحهم حتى تنقطع أعذارهم ويثبت إيمانهم.

إنه دعاء الأنبياء المستجاب... دعاء الإنسان الممكن الذي تسامى في اتصاله بالله ولم يعد يرى غير الله وإذا رأى غيره فإنما يراه من خلاله... وينطلق المسيح عليه السلام في دعائه.

إنها مائدة تكون عيداً ـ أي يوم نزولها يكون يوم عيد نبتهج ونُسرُّ فيه ونؤدي مراسيم الشكر.

يوم نزولها يكون يوم عيد نجتمع فيه ويكون يوم السرور لنا ولمن يأتي بعدنا.

﴿وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾ علامة تدل على صدق ما جئتُ به من عندك وارزقنا من عندك واجعل هذه المائدة من رزقنا.

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنك ترزق بغير منّةٍ ولا توقّع عوض أو بديل...

ولم يتم المسيح دعاءه حتى تتنزّل الآية تُعلن استجابة دعوته.

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ سأنزل المائدة كما سألتم واقترحتم ولكن ضريبة مخالفتها وعدم الإيمان بما التزمتم به حينما طلبتموها ستكون فادحة وسيكون ثقلها عظيم، إن وقّع مخالفتها سيكون فادحاً ولكن على صنف خاص وهم من يكفر بعد نزولها.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ﴾ أي بعد نزولها، ويجحد أو يشك! ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إنه عذاب خاص بهم في منتهى الشدة لا يقع على غيرهم من الكفرة، لأن كفرهم يكون بعد قيام أعظم الحجج عليهم حيث اقترحوا بأنفسهم المعجزة فاستجيب لهم وحصل لهم من العلم ما لم يحصل لغيرهم فيكون العذاب لأنهم كفروا كفر جحود وعناد، فكما أن طلبهم خاص بهم كان عذابهم خاص بهم.

وقد رويت روايات كثيرة في مجيء المائدة وفي الطعام الذي جاء عليها وغير ذلك من صفاتها التي لا تنفع مَنْ عَلِمها ولا تضرّ من جهلها ولا تدخل معرفتها في فروع الدين ونوافله فضلاً عن أصوله وواجباته، فعدم إضاعة الوقت في البحث عن مثل ذلك أنفع وأجدى وإلى الله أقرب وأخلص. . .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ
إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ
فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ
لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى
كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ
لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: تنزيهاً لك عن كل دعوى باطلة.

﴿شَهِيدًا﴾: حفيظاً بما أمرتهم.

﴿تَوَفَّيْتَنِى﴾: أخذتني ورفعتني إلى السماء مستوفياً لي.

﴿ٱلرَّقِيبَ﴾: من المراقبة: وهي المراعاة والمحافظة والمشاهد للأفعال.

﴿أَبَدًا﴾: أي بلا انقطاع.

التفسير

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ عطف على و﴿إِذْ﴾ المتقدمة فيكون عطف قصة على قصة...

وهذه القصة هي قصة المسيح مع أتباعه الذين ادعوا أنهم على طريقته وعلى نهجه يكذبهم الله باستنطاق المسيح نفسه وأخذ الإقرار منه ليكون أشد تبكيتاً لهم.

واذكر إذ يقول الله يوم القيامة لعيسى بن مريم «أأنت قلت للناس ـ لأتباعك الذين يدّعون أنهم على سيرتك ـ أأنت قلت لهم اجعلوني وأُمي إلهين من دون الله؟ إنهم النصارى عبدوا المسيح وأمه واتخذوهما إلهين، وفي ذلك اعتداء على ذات الله وعزل له عن واجب وجوده وتوحيده.

إن من أشرك مع الله غيره لم يتخذ الله إلهاً لأن الله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ويجيبه المسيح بأدب الأنبياء وهذه الإجابة فيها إدانة واضحة لنهج النصارى الذين انحرفوا عن توحيد الله وأشركوا معه غيره وابتدأ عليه السلام بتنزيه الله.

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أنزهك يا رب أن يكون لك شريك.

﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ ليس من شأني ولا ينبغي لي أن أقول غير الحق ـ وهذا ليس بحق فليس لي أن أقول.. لأنك سبحانك أيدتني بروح القدس وعصمتني من الخطأ فلا يتحرك لساني ولا ينطلق فعلي في مضمار غير الحق الذي تريده.

﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ هذا نفي للقول المستفهم عنه، وأنه لو كان منه هذا القول لعلمه الله ووصل إليه علمه، فمن عدم ذلك يُعلم إنه لم يقله.

وهذا القول يثبت علم الله بالجزئيات وبتفاصيل كل الأمور. . .

ثم زيادة في التذلل وإعلان براءته من ذلك القول ومبالغة في الأدب أكمل قوله:

﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ إنك يا رب تعلم سري وما ينطوي عليه قلبي ـ فضلاً عمّا أنطق به ـ تعلم أنني لا أرضى بذلك ولا أقبله بل أعاديه وأحاربه. . .

إنك يا رب تعلم سري وما عندي ولا أعلم سرك وما عندك، إنك أنت تعلم كل الغيوب ومنها ما في نفسي. . .

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ أنا عبد مطيع ولن أتجاوز الحدود التي وضعتها لي ولن أتعدى الأوامر التي أردتها مني وأردت إبلاغها وإيصالها إلى الناس، أبداً وباستمرار ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به من الإيمان بك والإيمان بتوحيدك وعدم الشرك بك وأن لا إله غيرك وكل ما عداك ومن عداك مخلوقات من مخلوقاتك وبحاجة إلى فيضك وعطائك وجوداً واستمراراً لهذا الوجود. .».

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ هذا ما قاله الله لعيسى وعيسى يقرّره أمام الله وأمام الملأ ليكون إقرار إدانة على كل النصارى الذين اتخذوا مع الله إلهاً أو أشركوا معه في عبادته أحداً. . .

إنه إقرار بعبودية عيسى وعبودية الناس لله الواحد الأحد. .

بهذه العقيدة الواضحة وبهذا الأمر الصريح يجب أن يكون الناس وخصوصاً النصارى، فإن جرمهم عظيم حيث أشركوا مع الله غيره ثم كذبوا على أنبيائه حيث ادعوا أن المسيح هو أمرهم بذلك إنه هو بنفسه يعلن براءته مما نسبوه إليه ويردّ عليهم بهتانهم وانحرافهم. . .

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ ما دمتُ بين أظهرهم كنت مراقباً لعقائدهم وأفكارهم وسلوكهم أعلمهم الصحيح وأسدد المستقيم وأردّ إلى الحق من شذ وانحرف وأكافح الفساد والضلال هذه هي مسيرتي عندما كنت بينهم.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ فلما استوفيتني ورفعتني إليك وأخذتني إلى حيث أردت، أصبحت المهمة عندك أنت وحدك المشاهد لهم العارف بهم الخبير بحركتهم عقيدياً وسلوكياً استقامة وانحرافاً...

﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أنت وحدك لك الهيمنة على كل شيء والعارف بكل شيء والمطلع على كل شيء ولا يخفى عليك شيء.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ ما أجمل هذا العرض وما أروع هذا الاستسلام المطلق لله، إن تعذبهم فإنهم عبادك العصاة الذين استحقوا ذلك ولن يخرجوا عن حكمك ولن يقدروا على التفلت منك وأنت الحكيم العليم القادر القاهر.

﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا من كريم أدب النبوة إنك يا رب تملك المغفرة كاملة غير منقوصة، فعندما تغفر لا تغفر عن ضعف أو حاجة أو جهل بل أنت القوي الممتنع بالعزة الذي تضع الأمور مواضعها.

إن عيسى عليه السلام يضع أمور قومه بيد الله ويوكل الأمر إليه فهو الحكم العدل القادر الممتنع الحكيم...

﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ هذا قول الله يعلمنا من خلاله نتائج الصدق في الدنيا، هذا يوم - يراد به يوم القيامة - ينفع الصادقين في الدنيا حيث صدقوا في أيمانهم وصدقوا في سلوكهم وصدقوا في كل حركاتهم..

وعلى هذا الصدق كانت النتائج الباهرة العظيمة التي تقصر عنها كل نتائج وتتضاءل عندها كل جوائزه؛ إنها جنات تجري من تحتها الأنهار لأهل الصدق خالدين فيها أبداً ولا يجدون عنها متحولاً رضي الله عنهم حينما أدخلهم الجنة ورضوا عنه بكل عطاء أعطاهم ومنحة منحهم.

ثم في النهاية يعلن الله ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ إتماماً للفرحة وابتهاجاً بالنصر إن دخول الجنة هو الظفر العظيم.

فوائد

١ ـ سمّى الله المسيح عيسى ونسبه إلى أمه مريم ليؤكد بشريته وأنه ابن امرأة تولّد منها من غير أب.

٢ ـ عدل سبحانه في السؤال عن الإتباع إلى عيسى نفسه ليكون الإقرار منه أشد وأقوى ويكون الجواب أشد تبكيتاً لهم واستهانة بهم.

٣ ـ قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لأن من اتخذ مع الله غيره فقد أنزل الله عن واجب وجوده وبذلك لم يكن متخذاً لله إلهاً على وجه الحقيقة...

قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

التفسير

هذه آخر آية من هذه السورة المباركة وفيها بيان ملكية الله للسماوات والأرض وما فيهن، فهو المالك المطلق المتصرف في ملكه كيف يشاء، ومن ملكه وتحت سلطانه عيسى وأمه والخلق جميعاً، وهو القادر المطلق على كل شيء لا يعجزه شيء.

قال بعضهم: هذه الآية فيها بيان كذب النصارى وقولهم في المسيح وأُمه أنهما إلٰهين جل الله عن ذلك، بل هما مملوكان لله اختارهما وجعلهما آية من آياته الدالة على عظمته.

سورة الأنعام

مكية

عدد آياتها خمس وستون ومائة

سورة الأنعام

بين يدي السورة

سورة الأنعام من السور المكية ـ ما عدا بعض آياتها فقد اختلف فيها ـ وعلى كل حال فهي تعالج الأسس العقيدية من التوحيد والنبوة والمعاد وتركّز على هذه الجوانب دون سواها من التشريعات لأنها تشكل الأسس التي يبنى عليها غيرها وتتضمن الاستدلال المنطقي والعقلي الذي يحكم جميع العقلاء.. فهي تطرح السؤال ثم تجيب وتدعو الناس إلى تحريك العقل وإلى التفكير.

تختم السورة آياتها بوصايا الأنبياء التي جاءت في كتب السماء...

سميت بسورة ﴿ٱلْأَنْعَامِ﴾ لورود ذكر الأنعام فيها في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾.

وفي كتاب الكافي قال أبو عبد الله عليه السلام[1]: إن سورة الأنعام نزلت جملة شيّعها سبعون ألف ملك حتى أُنزلت على محمد ﷺ فعظّموها وبجّلوها، فإن اسم الله عز وجل فيها في سبعين موضعاً ولو يعلم الناس ما في قراءتها ما تركوها...

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٦٢٢.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْحَمْدُ﴾: هو الثناء الحسن والذكر الجميل.

﴿يَعْدِلُونَ﴾: يجعلون له عدلاً مساوياً وشريكاً منافساً.

﴿طِينٍ﴾: تراب يوضع عليه ماء ويخلط.

﴿أَجَلًا﴾: الأجل: الوقت المضروب، وقضاء الأجل: انتهاؤه.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: الأجل: المدة المضروبة للشيء، والأجل المسمى: هو المعين بوقت محدود به.

﴿تَمْتَرُونَ﴾: تشكّون، يقال: إمترى في الأمر: إذا شك فيه.

﴿سِرَّكُمْ﴾: الإسرار: خلاف الإعلان ويطلق على حديث النفس المكتوم فيها.

﴿وَجَهْرَكُمْ﴾: الجهر: يقال: لظهور الشيء بإفراط حاسة البصر أو حاسة السمع.

﴿تَكْسِبُونَ﴾: تفعلون.

التفسير

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ بدأ سبحانه في افتتاح هذه السورة بالحمد لنفسه تعليماً لنا وتدريباً وإنه المستحق للحمد، حَمِدَه الحامدون أم قصروا في ذلك.

إنه الله المستجمع لجميع خصال الكمال الواجب لنفسه الممتنع بقدرته العزيز بسلطانه، كل شيء قائم به وكل شيء منه وكل شيء صائر إليه.

خَلَقَ وأنشأ سبحانه وأنشأ من العدم السموات والأرض.. السموات التي رفعها بغير عمد وزيّنها بزينة الكواكب وجعل فيها الشمس والقمر وأبدع منها ما لم يدركه الإنسان.. إنها السموات السبع.. السبع الطباق التي لم يطّلع عليها إلاّ هو وحده وما وصل إليه الإنسان ما هو إلاّ قطرة في عالم الكون وذرة ضائعة في مقابل ما هو مجهول في السموات...

وأما الأرض هذه الكرة التي تدور، فقد أبدع الله صنعها بما فيها من جبال وأنهار وسهول وبحار وبما خلق فيها من إنسان وحيوان وطير مع تعدد الأجناس والأصناف والألسنة والألوان تبارك الله رب العالمين.

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ عبّر سبحانه هنا بالجعل لأنه بمعنى التصيُّر الذي يشتق من شيء فكأن الظلمات والنور عرض يأتي من غيره نتيجة دوران الأفلاك، وأيضاً جعل الظلمات جمعاً لأن طرق الضلال متنوعة وسبله متعددة بينما أفرد النور لأن مصدره واحد لا يتعدد لأن الحق واحد لا يكثر في طرقه.

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي بعد كل الدلائل المتقدمة وكل ما خلق الله من الأكوان والسموات والأرض والظلمات والنور التي كلّها تدل على وجود الله ووحدانيته وخالقتيه وسلطانه بعد كل ذلك يشذ الكافرون في تفكيرهم ويضلُّون في توجههم فيجعلون مع الله عدلاً يساويه ونداً يدانيه، إن هذا من العجيب الغريب الذي لا يمكن أن يذهب إليه إلاّ مَنْ انطمس على قلبه ففقد التمييز وضل

السبيل، وإلاّ كيف ينحرف من أبصر الدلائل وقامت عنده البينات والبراهين على وحدانية الله؟ ثم يشرك به ويجعل له مساوٍ وعديل. . .

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ الله سبحانه المتفرّد في سلطانه هو الذي ابتدأ خَلْقَكم وتكْوينكم من طين حيث كوّن أصلكم وهو آدم أبو البشر من طين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾[1].

وكما يقص الله خبر آدم على الملائكة ويأمرهم بالسجود له قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾[2].

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ﴾ قدّر وحكم لكم أجلاً تنتهون إليه ثم تختم به الحياة، وهو مدة إقامتنا في هذه الدنيا، وأجل آخر مكتوب عنده يمتد من الموت إلى يوم البعث والنشور والقيام للحساب. . .

وهناك تفسير آخر يقول إن قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ﴾ أي حكم وقدّر أجلاً يقبل الزيادة والنقيصة وهو المعبّر عنه بالأجل المخروم الذي يمكن أن يتأخر إذا تصدّق الإنسان أو وصل رحمه أو توجّه بالدعاء لربه، وقد يتقدم هذا الأجل إذا قطع رحمه أو عقّ والديه أو. . .

وقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ﴾ وهو الأجل المحتوم الذي لا يتقدم ولا يتأخر يعلم وقته الله بحيث إذا انتهى مات الإنسان ويصدق عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[3] وهذا الأجل المحتوم. . .

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ ثم أنتم أيها الكفار تشكّون في البعث وقدرة الله على إعادة هذا الإنسان للحساب مع علمكم بكل نشأة هذا الإنسان وتطوره وما مرّ عليه من مراحل إذا قُرئَت تكشف عن قدرة الله على إعادة هذا الإنسان وبعثه من جديد.

---

(١) المؤمنون/ ١٢.
(٢) سورة ص/ ٧١.
(٣) الأعراف/ ٣٤.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴿٣﴾﴾ وهو الله وحده لا شريك له، منفرد في ملكه وسلطانه يتصرّف في السموات والأرض كيف يشاء، فلا إله غيره يُعبد، وسع علمه السموات والأرض وما فيهما..

يعلم سرّكم وباطنكم الذي لم يعلم به إلاّ أنتم، كما يعلم جهركم وما تظهرونه وتعلنونه. ويمكن أن يكون التعبير عن الحالين كناية عن معرفته بكل أحوالهم المعلنة والخفية.

وأيضاً يعلم كل أعمالكم وحركاتكم وما تجنيه جوارحكم.

فوائد

١ ـ افتتح سبحانه خمس سور بصيغة الحمد لله وهي: «الفاتحة» «الأنعام» «الكهف» «سبأ» «وفاطر».

٢ ـ ابتدأ سبحانه بخلق العالم الكبير ـ السموات والأرض ـ ثم ذكر خلق العالم الصغير وهو هذا الإنسان.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ الخطاب لعموم الناس اعتباراً بمنشأ أبيهم آدم المخلوق من طين وهو أصلهم وهم نسله، والفرع يضاف إلى الأصل...

قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾.

• • •

اللغة

﴿ءَايَةٍ﴾: تُطلَق الآية ويراد بها المعاجز، كما تطلق ويراد بها كلام الله.

﴿مُعْرِضِينَ﴾: الإعراض: التولي عن الشيء.

﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾: جمع نبأ: وهو الخبر المهم.

﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: يسخرون.

﴿أَهْلَكْنَا﴾: الهلاك: الموت.

﴿قَرْنٍ﴾: قال الراغب في مفرداته القرن: القوم المقترنون في زمن واحد وجمعه قرون.

﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾: التمكين: إعطاء ما به يصح الفعل كائناً ما كان من آلة وغيرها، والإقدار: إعطاء القدرة خاصة.

﴿مِّدْرَارًا﴾: غزيراً دائماً، وأصله من درّ اللبن: إذا أقبل على الحالب منه شيء كثير.

﴿تَجْرِى﴾: الجريُ: المرّ السريع وأصله كمرّ الماء ولما يجري بجريه.

﴿أَنشَأْنَا﴾: الإنشاء: إيجاد الشيء وتربيته.

﴿قِرْطَاسٍ﴾: القرطاس وإن كان الآن يفهم منه الورق، ولكن في الأصل لكل ما يكتب عليه ورقاً كان أم غيره.

﴿فَلَمَسُوهُ﴾: اللمس: المسُّ باليد.

﴿سِحْرٌ﴾: السحر: هو التمويه والتخييل بالباطل حتى يرى الإنسان الشيء على غير حقيقته.

﴿مُّبِينٌ﴾: واضح جليّ.

﴿لَّقُضِىَ الْأَمْرُ﴾: تم الأمر بإهلاكهم.

﴿لَا يُنظَرُونَ﴾: لا يُمهلون.

﴿وَلَلَبَسْنَا﴾: اللبس: الستر والتغطية، ولبست عليه الأمر: إذا خلطته حتى لا يعرف جهته.

التفسير

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ عندما بعث الله محمداً ﷺ بكلماته وأنزل عليه وحيه كان من حق المشركين أن يستجيبوا له فيفكّروا فيما جاء به ويدرسوه ويتوقفوا عنده، لأن ما جاء به يمس مصير كل فرد في ذلك المجتمع كما يمسُّ حياته التي يعيشها.. إن عناد المشركين وضلالهم

وبعدهم عن الاستماع لصوت الحق جعلهم يقفون من النبي وما جاء به من الآيات والمعجزات التي زوده الله بها موقف الإعراض عنها. إنها خطوة أُولى في مقام رفض الحق الذي جاءهم.. الإهمال التام وعدم إعطاء الانتباه... تغافلوا وأعموا أبصارهم عن النظر فيما جاء به النبي ﷺ إنها حالة يمكن أن تقرأها على مستوى الغباء والبساطة كما يمكن أن تقرأها على مستوى الإهمال واللامبالاة كما يمكن أن تقرأها على مستوى الإزدراء والاستهزاء كما يصح أن تقرأها على وجوه أخرى، ولكن يجمع الجميع الإعراض من المشركين عمّا جاء به النبي من آيات.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وهذه هي الخطوة الثانية التي خطاها المشركون في مواجهة النبي ﷺ وما جاءهم به من الآيات ـ سواء فسرنا الآيات بكلام الله أم فسرناها بالمعجزات والدلالات الدالة على نبوته ـ إنها خطوة مترقّية عن الأُولى ففي حين كانت الأولى ـ الإعراض فحسب ـ فهنا تطوّر هذا الإعراض ليأخذ شكل التكذيب لهذا الحق الذي يحمله النبي إليهم.

كذبوا بالحق بدون دراسة له أو وقوف عليه وقفة تفهّم ودراسة، إن عنادهم للحق وإعراضهم عنه جعلهم يكذبونه... رفضوا النبوة ورفضوا الآيات ثم تخطّوا إلى المرحلة الثالثة من مراحل الرفض وهي مرحلة الاستهزاء.

قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهذا تهديد ووعيد لهم بأن جزاء هذا الرفض للحق والتكذيب له سيأتي لا محالة، فمن كذّب الحق سيحصد نتيجة هذا التكذيب وسيتحمل كل تبعاته حيث يتحمل نتيجة إضلال نفسه وإضلال المجتمع الذي صدّه بموقفه هذا عن الإيمان بالحق، إن جريمة هذا التكذيب متعددة الوجوه تنعكس سلباً عليه شخصياً وعلى مَنْ حوله فيجب أن يتحمل مسؤولية ذلك وعقابه المترتب عليه...

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ ألا يذكر هؤلاء المشركون ما أصاب الطغاة قبلهم وكيف حلّت بهم النقمات لمّا عصوا وتمردوا ولم يسلكوا الطريق الصحيح؟

فليضربوا بنظرهم إلى الوراء.. إلى الأجيال التي رفضت دعوة الله كعاد وثمود وقوم لوط وكيف أهلكهم الله وأباد خضراءهم...

ثم يذكر سبحانه ما كان في أولئك الأقوام الذين أهلكهم، وكيف أنعم عليهم بأكثر مما أنعم على هؤلاء المشركين زمن النبي فلم تشفع لهم كل تلك الحياة الناعمة المرفّهة وما فيها من نعيم.

﴿مَكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ جعلناهم أهل سلطة وقوة واستطاعوا أن يستقروا ويتمكّنوا من الأرض والاستفادة منها ما لم نمكّن لكم يا أيها المشركون، فلم يمنعنا تمكّنهم في الأرض واستغلالهم لها واستقرارهم فيها على أخذهم والانتقام منهم فكيف أنتم وحالكم معروفة من الضعف والوهن وعدم إمكان الدفاع عن وجودكم؟

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾[1] وهذه من نِعَم الله على مَنْ مضى من القرون، كيف كانت السماء تصبّ قطرها عليهم بغزارة؟ وهذا الماء هو سبب حياة كل شيء حي كما يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فما به حياة المخلوقات كان بإذن من الله وأين هذا من مشركي مكة أو العرب الذين كانوا في شحّ من الماء وعوزهم إليه يتنقلون بمواشيهم إلى حيث تهطل الأمطار في جزيرتهم؟

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي جعلنا الأنهار تجري بين قصورهم وأشجارهم وبساتينهم لترويها وتروي عيون الناظرين...

إن كل هذه النعم لم تمنعنا أن نأخذهم عندما طغوا وكفروا ولم يلتزموا بأمر الله...

﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ لم تغنِ عنهم كل ما أعطاهم الله من التمكين في الأرض وما أرسله عليهم من مطر مدراراً وما جعله لهم من

(١) الأنبياء/ ٣٠.

أنهار، كل ذلك لم يمنع الله من أخذهم واستئصال شأفتهم لمّا أذنبوا وعصوا وتمردوا على أمره. . .

إن هؤلاء الطغاة قد كفروا بالله رغم ما أعطاهم من نعم وخيرات، فكانت عاقبتهم أن الله أخذهم وأفناهم، فمنهم من أخذهم بالخسف ومنهم بالزلازل ومنهم بالصواعق ومنهم بالغرق، وهكذا. . .

ثم إنه سبحانه لا يعطّل أرضه أو يتركها فراغاً بل هو القادر على أن يأتي بقوم آخرين أكثر إيماناً والتزاماً وعملاً صالحاً. . . إن سبحانه القادر على أن ينشىء ـ من بعد فناء هؤلاء ـ قوماً آخرين يحلّون محلهم ثم لا يكونون أمثالهم في الكفر والعناد، وهذا تهديد ووعيد للمشركين إن هم لم يؤمنوا أن يصيبهم ما أصاب أولئك الطغاة الذين أهلكهم الله بذنوبهم.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهذه حالة من أشد حالات التمرد والعصيان والرفض للحق، إنهم قوم شربوا العناد، إنهم قرروا أن لا يذعنوا أو يؤمنوا بما جاء به النبي ﷺ حتى لو كان من الوضوح بحيث لمسوه بأيديهم ورأوه بأعينهم.

إنهم قوم قرروا أن لا يؤمنوا فلم تعد تنفعهم كل البراهين والأدلة حتى ما كان منها محسوساً وظاهراً للعيان.

لو أنزل الله كتاباً مكتوباً عليهم من السماء فمدوا إليه أيديهم وأخذوه بحيث لا يبقى لهم شك فيه. . لخرج هؤلاء بحجج يرفضونه على أساسها وقالوا إن هذا إلاّ سحر مبين أي هذا سحر واضح بيّن جاء به محمد وصنعه ليموه عليهم به.

إنهم إذا لم يجدوا مبرراً للرفض يعمدون إلى رمي ذلك بالسحر، وهذا أيسر ما يمكن أن يعتذروا به لردّ ما جاءهم، وهكذا كانت سيرتهم وهذا هو ديدنهم. . .

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ وهذه من جملة عللهم للرفض وواحدة من مقترحاتهم للصدّ والمنع، إنهم يقولون هلاّ أنزل مع محمد ملك يؤيده ويخبرنا

بنبوته حتى نصدّقه ونؤمن به؟ إنهم يجهلون أبعاد هذا الاقتراح ونتائجه وآثاره، لا يعرفون إمكانية ذلك وإمكانية حدوثه، ثم لا يعرفون أن مثل هذا الاقتراح لو وقع ثم رفضوا لصاحبهم الهلاك وقضي عليهم، ثم هنا ردّ سبحانه عليهم بردّين:

الأول: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ إن سُنّة الله قد جرت أنّ من اقترح آية أو طلب معجزة فاستجاب الله له ذلك فأنزلها ثم عصى وكفر أخذه الله سريعاً بالهلاك ولم يؤخره ولو لحظة. إنهم لا يعرفون سُنّة الله الجارية في مثل اقتراحهم بإنزال ملك، إنها سُنّة الاستئصال لمن كفر بعد مجيء الآية المقترحة، فحفظاً لأنفسهم وإبقاء عليهم يجب أن لا يكون هذا الاقتراح منهم ولا يجوز أن يطلبوه.

الثاني: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ وهذا جواب ثانٍ عن اقتراحهم ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ إن اقتراحهم هذا يوجب اللبس والاشتباه، ولا يمكن أن يعطي أثره المطلوب لهم، لأن الملك إن نزل بصورته الأصلية سوف لن يتمكنوا من رؤيته والصمود أمام طلعته، وإذا تجسّد بصورة بشرية سوف يقع الشك وتدور البلبلة ويستفهم عن صحة كونه ملكاً أم بشراً؟ ونعود إلى نفس الدائرة والشك ولن نخرج بحل شاف لأننا نكون بالاستجابة لهم قد خلطنا الأمور عليهم وأوقعنا الالتباس فيهم كما يوقعون أنفسهم ومَنْ خَلْفهم في الالتباس والشك ويقولون كيف يرسل الله بشراً؟...

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾: الاستهزاء: فرح المكر في خفية، السخرية.

﴿فَحَاقَ﴾: حاق به: أحاط به، وأكثر ما يستعمل في الإحاطة بالمكروه.

﴿سَخِرُوا۟﴾: استهزءوا.

﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: امشوا فيها وتحرّكوا.

﴿ٱنظُرُوا۟﴾: اعتبروا.

﴿عَٰقِبَةُ﴾: العاقبة: الثواب أو العقاب المترتب على العمل.

التفسير

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد للكفار.. تسلية لرسول الله ﷺ لأنه من جملة الأنبياء الذين تعرّضوا للاستهزاء والسخرية.. إنها عادة قائمة في كل المجتمعات التي بعث الله فيها أنبياء فواجهتهم مجتمعاتهم بالرفض والتشكيك والاستهزاء والسخرية ثم قد يتعرض بعضهم للإيذاء وقد يتطور الإيذاء إلى التعذيب والقتل.

إن ما تلاقيه يا رسول الله! هو نفسه الذين لاقاه الأنبياء من قبلك فصبروا وجاهدوا وكانت النتيجة لصالحهم وصالح دعوتهم، حيث أمهل الله تلك المجتمعات ثم لحقتهم الوعود التي وعدهم الله بها جزاء استهزائهم. إن هذا الاستهزاء له عقوبة مفروضة ستطالهم إن استمروا على عنادهم وتحجُّرهم ورفضهم لما جاءهم من الحق.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)﴾ خطاب لرسول الله ﷺ أن يأمرهم بالتحرك في الأرض والمشي فيها سواء كان للتجارة أو غيرها، ولكن المهم أن ينظروا بأعينهم ويفكروا بعين بصيرتهم كيف كانت نهاية الذين كذّبوا رسله ووقفوا في وجوههم!؟

إن على قومك أن يتنقلوا في الأرض ويضربوا فيها ويروا نهاية الطغاة والمكذبين، وكيف أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم عاد وثمود وكيف مسخ اليهود قردة وخنازير، وهكذا دواليك.

إن من يعيد النظر في سجل الأمم المكذّبة لأنبيائها وكيف أخذهم الله سيجعل من ذلك تحولاً نحو الإيمان والتصديق بكل رسل الله وما جاءوا به.

قال تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

اللغة

﴿كَتَبَ﴾: فرض وأوجب.

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: يوم البعث للحساب.

﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾: لا شك فيه.

﴿سَكَنَ﴾: استقر وحلّ.

التفسير

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾ أمر الله نبيه أن يقول لهؤلاء الكفار: لمن هذه الموجودات في السموات من نجوم وكواكب ومجرات وشمس وقمر؟ ولمن الموجودات في الأرض من بشر وحيوان وأشجار وأنهار وكل المخلوقات الصامتة والناطقة..؟ لمن هذه كلها خلقاً وملكاً وتقديراً؟!.

والله سبحانه يقول له: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾ إنه الجواب المتفق عليه بين كل الناس،

المؤمن منهم والكافر. . . إنه الجواب الذي يحمله كل إنسان في فطرته ويتكلم به في السر والعلن.

﴿قُل لِّلَّهِ﴾ كل شيء مخلوق لله ومملوك لله لا يخرج عن هذه القاعدة ذرة في السموات أو في الأرض. والسؤال يحمل في طياته تبكيتاً لهم وتقريعاً.

والجواب فيه إلزام لهم وتقرير لحقيقة هم يذهبون إليها ولا يمكنهم إنكارها أو الهروب منها.

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إنه سبحانه أخذ على نفسه الرحمة، ومن رحمته ما وضع من الأدلة على توحيده وعدله وما يستتبع ذلك من الإيمان بالبعث والحساب يوم القيامة.

ومن رحمته أنه يجمع الخلق يوم القيامة ـ الذي لا شك في وقوعه ـ ثم يعطي لكل ذي حق حقه. . فالمطيع إلى الجنة والعاصي إلى النار.

وقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي والله ليجمعنكم فوجاً بعد فوج وقرناً بعد قرن إلى أن يأتي يوم القيامة فتكونون جميعاً في قبضته وأمام محكمته لكي يجزي الذين أحسنوا بالحسنى ويجزي الذين أساءوا السوء. . .

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هؤلاء ممن يجمعهم الله يوم القيامة وهم أهل للشفقة والرحمة لأنهم خسروا أنفسهم وأضاعوا رأس مالهم ولم يكونوا ليؤمنوا ويطيعوا الله. . إنهم اتبعوا آباءهم فاعموا أبصارهم ولم ينظروا إلى الآيات ولم يستمعوا إلى الحجج والبيّنات بل ساروا وراء العصبية وأخذتهم الحمية القبلية فكانوا قد امتنعوا من الإيمان فكانت أعظم الخسارة هي خسارة الأنفس حيث تكون عاقبتهم إلى النار. . .

إن من يخسر بعض ماله أو شيئاً من سلطانه وشيئاً مما هو عزيز عنده وغال لديه، يبقى له نفسه، أما من يخسر نفسه فليس هناك أكبر منها خسارة أو أعظم منها مصيبة.

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ لله ما هدأ واستقر في الليل وله ما تحرك وتنقّل في النهار واكتفى سبحانه بذكر أحد الضدين ﴿مَا سَكَنَ﴾ دونما تحريك للبلاغة في الكلام.

ثم إنه سبحانه ذكر فيما تقدم السموات والأرض أنه يملكهما، فهو يملك جميع الأمكنة. وهنا يملك بتعبير الليل والنهار جميع الأزمنة، إذ لا يخلو مكان من نهار أو ليل سواء في الأرض أو في السماء أو في سائر الكواكب الأخرى.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد.

﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأعمالهم وأحوالهم وكل حركاتهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَتَّخِذُ﴾: أجعل.

﴿وَلِيًّا﴾: يتولى شؤوني ويقوم بها، أو ينصرني ويعينني، والولي: هو من يتولى شؤون غيره ويدبر له أموره.

﴿فَاطِرِ﴾: من فطر وأملَّ، الفطر: الشق طولاً، وفاطر السموات: خالقهن.

التفسير

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ هذا الاستفهام للإنكار عليهم والتوبيخ لهم وأنه لا حق لمحمد ولا لغيره أن يتخذ معبوداً غير الله ولا يصح له ذلك، فإن الله هو خالق السماوات والأرض ومُنشئهما من العدم ابتداءً وهو أيضاً يرزق مخلوقاته لاحتياجها وقصورها وعوزها، وهو لا يُرزق من أحد لأنه الغني عن كل أحد ومن كانت هذه قدرته وقوته، وهذا دوره في العطاء فهو الذي يستحق الولاية ويستحق الإلتجاء إليه والاعتماد عليه... إن الله وحده

هو الذي يستحق الولاية على العالم كله لاحتياج غيره إليه واستغناؤه عن غيره. . .

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد!

﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ من قبل الله.

﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لله واستسلم له وانقاد لحكمه، وهذا أمر طبيعي في حق كل نبي لأنه الذي يتولى حمل الرسالة، فلا بد وأن يكون أول من يؤمن بها وينقاد من خلالها لله. . والأنبياء هم أعرف الناس بالله وأعرف الناس بالله وأشدهم انقياداً له واستسلاماً لإرادته.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ونهيت أن أكون من المشركين الذين يجعلون لله شريكاً في الوحدانية أو شريكاً في العبادة أو أي نوع من أنواع الشرك. . لأن ذلك يخالف العقل والفطرة وما جاءت به كل الأنبياء.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

* * *

اللغة

﴿يُصْرَفْ عَنْهُ﴾: يُبعد عنه.

﴿رَحِمَهُ﴾: نجاه.

﴿الْفَوْزُ﴾: الفلاح.

﴿الْمُبِينُ﴾: الواضح الظاهر.

﴿يَمْسَسْكَ﴾: المس كاللمس: ما يكون معه إدراك بحاسة اللمس، يمسسك: ينالك من أذى.

﴿بِضُرٍّ﴾: الضر: ضد النفع، وهو ما يسوء الإنسان في نفسه أو بدنه أو عرضه أو ماله.

﴿كَاشِفَ﴾: يقال: كشف الشيء وعن الشيء: أظهره ورفع عنه ما يواريه ويغطيه.

﴿ٱلْقَاهِرُ﴾: القهر: الغلبة والإذلال معاً.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: الذي يضع الأمور مواضعها.

﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: العالم بدقائق الأمور وجزئياتها.

التفسير

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥﴾ في هذه الآية توبيخ للمشركين وتهديد لهم، كما أن فيها إعطاء قاعدة عامة، وأن النجاة والفوز لمن أطاع الله، والعذاب والنار لمن عصى الله، فإن النبي ﷺ لو عصى لأخذه الله بالعذاب فكذلك كل عاص سيأخذه الله فليحذر المشركين والعصاة من عقاب الله يوم القيامة.

ومن المعلوم أن الأنبياء لا يعصون الله لمعرفتهم بالله ولعصمتهم، والآية جاءت لتكشف عن خطر المعصية وسوء الانحراف والبُعد عن الله، وأنه سبحانه يأخذ نبيه لو عصاه فكيف بغيره ممن يعصيه؟.

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ١٦﴾ دعوة إلى الإيمان والعمل الصالح طمعاً في رحمة الله، فإن من يدفع الله عنه العذاب يوم القيامة فقد شملته رحمته ومغفرته وذلك فلاح ونجاح واضح ظاهر ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[1] وهل هناك أعظم من رحمة الله والفوز بهذه الرحمة التي بها تكون النجاة والفلاح؟!.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٧﴾ قدرة الله مطلقة وحُكمه جائز في الأفراد والجماعات كما هو في الكون والحياة، فإن أراد الله بك ضراً من مرض أو فقر أو بليّة فلا يمكن لأحد

(١) آل عمران/ ١٨٥.

أن يرفعها عنك أو يزيلها عن صدرك إلاّ هو، إذ هو وحده القادر ولا قادر غيره ومَنْ هو الذي يضاده في إرادته وفعله وهو مخلوق من مخلوقاته وممكن من ممكناته؟ كما أنه سبحانه لو أراد بك الخير من الغنى والصحة والجاه والمال والسلطان.. لا يمكن لأحد أن يزيلها عنك أو يدفعها عن ساحتك لأنها بإرادة من يملك كل الإرادات ولا يدفع إرادته مريد.

إن الله سبحانه على كل شيء قدير قدرته مطلقة في كل مخلوقاته دون تحديد أو استثناء، وهذا يستدعي من هذا الإنسان أن يكون على اتصال دائم مع الله يؤمن به ويتوجّه إليه ويعتمد عليه وينقطع إلى حكمته ويؤمن بصحة كل ما يأتي من عنده.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ بعد أن أثبت سبحانه لنفسه القدرة المطلقة بيّن أنه القاهر فوق عباده، ومعنى ذلك أنه المسخّر لكل عباده، الغالب لهم الذي يذلّ له كل شيء ولا يقف في وجه إرادته شيء.

ومعنى الفوقية هنا ليس المكانية بل فوقية غلبة وقوة وسلطان وأمر، كما تقول ذلك للسلطان أو الأب، إنه فوق الرعية أو الأبناء.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي يفعل ما فيه المصلحة بعلمه وتقديره.. حكيم في فعله وفي خلقه يغني ويفقر ويهلك ويحيي ويعزّ ويذلّ ويعطي ويمنع، هو الحكيم في تصرفه الخبير الذي يعلم مكونات الأشياء ودقائقها وما فيها من تفصيلات وأشياء، يضع بعلمه كل شيء في موقعه ومن منطلق معرفته به وخبرته بدقائقه.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

اللغة

﴿شَهَادَةً﴾: الشهادة: أخبار عن علم ومعرفة واعتقاد مبني على المشاهدة بالبصر.

﴿لِأُنذِرَكُم﴾: الإنذار: إخبار فيه تخويف.

﴿بَلَغَ﴾: بلغه الشيء: إذا وصل إليه علمه.

﴿بَرِيءٌ﴾: خالٍ من التهمة الموجهة إليه.

﴿آتَيْنَاهُمُ﴾: أعطيناهم.

سبب النزول

تقول الرواية أن رؤساء مكة قالوا: يا محمد! ما نرى أحداً يصدقك بما

تقول، وقالوا له: لقد سألنا اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك ذكر عندهم فأتنا بمن يشهد أنك رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: الله شهيد بيني وبينكم...

﴿قُلْ﴾ يا محمدا لمشركي مكة ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ ليشهد لي وبه يثبت الحق الذي جئتكم به؟.

ثم قال له الله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ قل لهم: الله شهيد بالحق وهو الذي يشهد لي ويشهد فيما بيني وبينكم ويفصل الحقيقة كما هي وكما يجب، وشهادة الله لنبيّه ولصدق ما جاء به يتمثّل بنزول القرآن عليه.

فإن القرآن هو المعجزة التي تشهد بصدق نبوة محمد وهي أكبر الشهادات وأصدقها وأوفاها...

﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ هذا القرآن كلام الله أوحي إليَّ بما فيه من عقائد وأحكام وأخلاق وآداب لأنذركم به، أي أقيم الحجة عليكم بمالها من أثر خطير فيما لو أعرضتم عنه وابتعدتم عن ندائه.. لأن من أعرض عن القرآن وتنكب عنه سوف يخسر خسراناً مبيناً وسوف تلحقه الندامة والحسرة...

ثم عمّم الدعوة وجعلها شاملة ليست لمن كان زمن النبي وفي مكة أو الحجاز فحسب بل هي لأولئك ولكل من وصل إليهم القرآن جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن إلى نهاية الدنيا، إنه القرآن الحجة القائمة على كل نفس بلغها نزوله وسمعت به وعرفت بآياته. ولذا يصح أن يستدل بهذه الآية على أن رسالة الإسلام دعوة عالمية لكل الناس العرب والعجم، الأبيض والأسود ولكل الجنسيات ومختلف الألوان. كما أنها الرسالة الخاتمة لأنها الحجة القائمة لمن كان ولمن تبلغه الدعوة ويسمع بها إلى آخر الدنيا.

إن الله يشهد من خلال هذا القرآن المعجز أن محمداً ﷺ رسول الله بعثه إلى الخلق لهدايتهم للإيمان والأخذ بأيديهم إلى التقوى والعمل الصالح...

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ هذا استفهام إنكار وتوبيخ، وأنه كيف

تشهدون أن مع الله آلهة أخرى وقد قامت الحجج والبينات وأثبتت البراهين والأدلة أنه لا إله سواه وليس معه إله آخر؟..

إنه انغلاق القلب وبؤس الفكر يقود الإنسان إلى الشرك بالله مع قيام الأدلة الواضحة على وحدانيته وأنه لا شريك له...

﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾ قل لهم: يا محمد! لا أشهد كما تشهدون ولا أذهب إلى ما تذهبون، إنني أنكر هذه الشهادة التي لا أقول بها..

ثم علّمه الله أن لا يكتفي فقط بأنه لا يشهد كما يشهدون، بل يجب أن يشهد بالحقيقة وكما هي ويأتي بها على وجهها الصحيح.

﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ قل لهم: يا محمد! كلمة الحق وشهادة الصدق، قل لهم: أن الله واحد لا شريك له ولا إله غيره..

إن الأُلوهية محصورة بالله ولا إله غيره أبداً، هو وحده الواجب الوجود خالق كل موجود، وإنني إلى جانب توحيدي لله الواحد الأحد أتبرىء مما تشركون به مع الله من الأصنام والأوثان.

إنها طريقة تحمل وجهين:

الوجه الأول: إثبات الوحدانية لله دون غيره.

والوجه الثاني: التبرؤ من كل الأوثان والأصنام التي يشركها الكفار مع الله ويذهبون إلى ألوهيتها معه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ﴾ الذين آتيناهم الكتاب هم اليهود والنصارى الذين أنزل الله عليهم التوراة والإنجيل يعرفون محمداً ﷺ كما يعرفون أبناءهم، أي إن معرفتهم بالنبي ﷺ بلغت إلى درجة اليقين بحيث لا يشكون في نبوته، وأنه رسول من عند الله بما وصل إليهم عن طريق كتبهم وبما قام من أدلة وبراهين وآيات ومعجزات على صحة ما جاء به من عند الله.

إن نبوة محمد ﷺ واضحة بالنقل الذي عند أهل الكتاب وما أودع في

كتبهم من صفات وعلامات، بل من تصريح باسمه واسم أبيه ومكان ولادته وهجرته. كما أن نبوته ثابتة بالعقل الذي إذا توجه إلى ما جاء به من معجزات وأهمها القرآن آمن.

إن ذلك ليس من صنع البشر وإنما هو وحي منزل من عند الله لا يقدر أحد أن يجاريه أو يبلغ مبلغه في الفصاحة والبلاغة والمعاني الرفيعة التي كشف عنها العلم الحديث.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وهي أعظم الخسارات على الإطلاق، فهم الذين لا يؤمنون بالله ولا برسوله محمد ﷺ بعد قيام الأدلة والبراهين على وحدانية الله وصحة ما جاء به النبي...

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿افْتَرَىٰ﴾: الإفتراء: الكذب.

﴿بِآيَاتِهِ﴾: معجزاته.

﴿لَا يُفْلِحُ﴾: الفلاح: الفوز.

﴿نَحْشُرُهُمْ﴾: نجمعهم: والحشر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه.

﴿تَزْعُمُونَ﴾: تكذبون: وأكثر ما يقال: الزعم: فيما يُشك فيه.

﴿فِتْنَتُهُمْ﴾: الفتنة: الاختبار.

﴿وَضَلَّ﴾: الضلال: ضد الهدى وهو الباطل.

التفسير

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ هذا الاستفهام للإنكار يراد به النفي، أي ليس هناك أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله بأن يدّعي أنه رسول من عنده أو يدّعي أن له شريكاً أو صاحبةً أو ولداً فكل ذلك كذبٌ على الله وافتراءٌ عليه.

ومثله في الظلم وأنه لا أحد أظلم منه من كذّب بآيات الله وهي المعجزات التي زوّد الله بها أنبياءه من القرآن والمعجزات الأخرى.

وكل انحراف ظلم يختلف شدة وضعفاً، فأعظم الظلم الشرك بالله ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] ثم تتعدّد مراتبه وتختلف ولكن أعظم من الكل. من جمَعَ بين الكذب على الله وتكذيب رسله وما جاءوا به من معجزات كما هي الحال في المشركين الذين أشركوا مع الله الأصنام والأوثان ثم كذّبوا بآيات الله وأنكروا صدقها ورفضوا قبولها كفراً وعناداً... وترتب على ذلك الظلم عدم الفلاح.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لا يفوزون ببغيتهم ولا يدركون أمنيتهم لأن ما يتطلعون إليه من خلال ظلمهم توفير السعادة لهم ولكن السعادة ليس طريقها الكذب والافتراء والظلم، ولذا لا توصلهم الطرق التي اعتمدوها إلى الغاية المطلوبة، فيخسرون ولا يفوزون ببغيهم لأن عاقبتهم إلى النار والعذاب والتعاسة والبؤس وليس لهم من السعادة أثر أو خبر.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ واذكر يوم نحشرهم: أي نجمعهم جميعاً في بعض مواقف القيامة للحساب والمحاكمة العادلة، ثم نقول للذين أشركوا مع الله إلهاً غيره من عَبَدة الأصنام والأوثان وغيرهم.

---

(١) لقمان/١٣.

﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كنتم في دار الدنيا تزعمون أن مع الله شركاء! فأين هم اليوم؟ أظهروهم لنا ودلّونا عليهم!

إنه سؤال يراد به التوبيخ لهم لأن حججهم قد سقطت وما كذّبوا به في الدنيا لم يعد موجوداً.

إنه سؤال يحمل التحدّي لهم أن يظهروا شركاءهم الذين ادعوهم مع الله ومن أنّى لهم ذلك وكيف يستحضرونهم؟.

ويستمر المشهد بتسلسله حيث يستمرون في الكذب فيقول تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ يعني هذا السؤال هو اختبار لهم وامتحان، كيف يجيبون وكيف يردُّون عليه؟.

إنهم أرادوا التخلص من الشرك، ولذا حلفوا على براءتهم منه وبُعدهم عنه، إن الكذب في طبعهم، ولذا تصوروا أنهم في الدنيا استطاعوا أن يكذبوا ويموّهوا فيصدقهم الناس فأرادوا أن ينقلوا الكذب إلى عالم الآخرة ـ طبعاً إلى مرحلة من مراحل القيامة ـ ظناً منهم أنهم ينجحون ويفلحون، ويكون إنكارهم نافعاً لهم مفيداً في الوصول إلى السعادة والنجاة من النار؛ ولكن الله لهم بالمرصاد ينقل حقيقة هذه اليمين الكاذبة فيقول:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ انظر بعين البصيرة والفكر وهذا النظر مثار تعجب منهم كيف كذبوا على أنفسهم.. إنهم كانوا يذهبون إلى الشرك بالله وأن معه غيره من الشركاء، هكذا كانت عقيدتهم في الدنيا وإليه كانوا يذهبون، وأمّا الآن في الآخرة يكذّبون ما كانوا يذهبون إليه ويعتقدونه، إنهم حلفوا كذباً على خلاف ما كانوا يعتقدونه من الشركاء لله، إنهم كذبوا على أنفسهم وأرادوا أن يكذبوا على الله علاّم الغيوب ومن يعلم السر وأخفى.. أبداً لم يكن كذبهم ليمرّ على علاّم الغيوب، إنهم يكذبون على أنفسهم وسينكشف أمرهم وتتّضح حقيقة هذا الكذب.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ تفرق الشركاء المزعومون لديهم وتشتتوا ولم يظهر لهم أثر أو خبر، لم يكن هناك من شركاء، ولكن افتراءهم ذلك وزعمهم الباطل قد تخلّوا عنهم ولم يعد لشركائهم دور في الإنقاذ والنجاة، وهي قضية منتفية بانتفاء الموضوع.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَكِنَّةً﴾: جمع كنان: وهو الغطاء.

﴿يَفْقَهُوهُ﴾: يفهموه، من الفقه، الذي يعني الفهم.

﴿ءَاذَانِهِمْ﴾: جمع أذن: وهي حاسة السمع.

﴿وَقْرًا﴾: ثقلاً في السمع وصمماً، يقال: وقرت أذنه إذا: ثقلت أو صمّت.

﴿ءَايَةٍ﴾: علامة.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾: ينازعونك ويخاصمونك.

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: خرافات وأباطيل، جمع أسطورة.

﴿يَنْهَوْنَ﴾: يزجرون ويمنعون.

﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾: يبعدون، من نأى عنه: إذا ابتعد عنه.

﴿يُهْلِكُونَ﴾: من هلك، والهلاك: يطلق ويراد به الموت ـ والعذاب ـ والخوف وغيرها...

التفسير

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ هذه هي حالة فريق من المشركين الذين يمثّلون منتهى العناد والنفور والبُعد عن استماع الحق، إنهم إذا استمعوا إليك وأصغوا إليك لا يسمحون لقلوبهم أن تنفتح على الحقيقة والوحي وما تقول ولا يتركون لآذانهم حرية الاستقبال والتفكير. لقد انسدت منافذ النور من القلوب وأقفلت آلات السمع فلا تستقبل ما ينفع أو يفيد.

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ هكذا قرروا وبهذه النتيجة خرجوا، إن كل معجزة يأتي بها النبي ﷺ سيرفضونها ولا يقبلون بها وكل آية تدل على نبوته لن يقبلوا بها أو يؤمنوا بمضمونها.. إن كل ما يدعو إلى الإيمان لن يُقبل عندهم ولن يكون مرضياً لديهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ هذه حكاية لحالهم وإنهم إذا وصلوا إليك وأرادوا لقاءك في نهاية الشوط.. إذا ضاقت بهم الأمور واستدعت الظروف أن يأتوا إليك فإنهم يأتون مجادلين ومنازعين ومخاصمين... يأتون إليك ليس للحوار الجدّي من أجل الوصول إلى الحقيقة والكشف عنها، بل يأتون فقط للجدال وإضاعة الوقت والتهم الزائفة الباطلة التي يرمونك بها.

ثم بيّن سبحانه ما يقولون في مخاصمتهم ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إنهم يرمون إلى ما نزل إليك من الوحي وما تقرأه عليهم منه بأنه خرافات القرون الماضية التي نسجها الخيال فلا حقيقة لها ولا أصل...

إنه قول ينطلق من عنادهم وكفرهم وبعدهم عن الحق، فلذا يرمون التهم

بقصد التشويش والتشويه وتبعيد الناس عن الإصغاء لكلام الله وكلام رسوله الأمين.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ وهذه طريقة أهل العناد إنهم يزجرون غيرهم عن القرب من النبي والاستماع إليه والإيمان به، كما أنهم هم يبتعدون عنه ولا يقربون منه.

إن لهم طريقة خاصة بهم، وهي البعد عن النبي وعدم القرب منه حتى لا يستمعوا إلى كلامه فيتأثروا به وقد يؤمنوا.

ولهم طريقة مع الناس، وهي طريقة نهيهم عن الاستماع إليه والإيمان به، وهذا دأب الذين يريدون التأثير بغيرهم وتكون كلمتهم مسموعة، إنهم يبتعدون عمّا ينهون عنه ليكون نهيهم أشد وقعاً وأكثر أثراً.

﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إنهم يريدون من وراء الابتعاد عن النبي ﷺ ونهيهم للناس عن اتباعه أن يبعدوا الناس عنه فلا يؤمنون به، وبذلك يضرونه ويضرون الدعوة التي يحملها وبالتالي يريدون إسقاطه وإسقاطها ولكن الحقيقة أنهم لا يضرون إلاّ أنفسهم ولا يقضون إلا على وجودهم لأن سُنّة الحياة قاضية. إن الحق لا بد وأن ينتصر في نهاية الشوط ولا بدّ لرسالة الله أن تنفذ إلى القلوب فتستجيب لها، وهذا ما تحقق حيث سقط الشرك وهلك أتباعه وانتصر التوحيد وأهله.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿وُقِفُوا۟﴾: يقال: وقف على الشيء: عرفه وتبيّنه.

﴿يَٰلَيْتَنَا﴾: كلمة للتمني.

﴿نُرَدُّ﴾: نرجع.

﴿بَدَا﴾: ظهر.

﴿يُخْفُونَ﴾: يسترون.

﴿رُدُّوا۟﴾: رجعوا.

﴿لَعَادُوا۟﴾: لرجعوا.

﴿نُهُوا۟ عَنْهُ﴾: زجروا عنه ومنعوا منه.

التفسير

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا مشهد من مشاهد العرض يوم القيامة، مشهد يحكيه الله بواقعه وحيثياته، إنه نَقْل دقيق لما يحدث ويجري في تلك الأوقات الصعبة.

ولو ترى يا محمدا لرأيت شيئاً عظيماً ويا عُظم ما ترى إذ وقف المشركون على النار وعُرضوا عليها ووقفوا ينظرون إلى مواقعهم منها.

إنه موقف صعب رهيب يزلزل الأعصاب ويهدّها، موقف الإنسان المشرك الذي ينتظر مصيره في وسط هذه النار المتأججة الملتهبة.

وقفوا على النار ورأوها أمامهم وعُرضوا عليها، فماذا سيكون موقفهم في تلك اللحظات الصعبة؟.. وما هو شعورهم؟... وكيف يقدرون على درء هذا الخطر العظيم المحدق بهم؟..

إنها لحظات صعبة لم يجدوا بدّاً من الأمنيات التي من خلالها يمكن أن يدفعوا عن أنفسهم العذاب.

ولذا: ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يا ليتنا.. أمنيتنا التي نرغب فيها أن يرجعنا الله إلى الدنيا ويردّنا إليها فنصدّق بما جاء به الأنبياء من عند ربهم.. نؤمن بالمعجزات والكلمات والآيات ونكون من المؤمنين بالله ورسوله وبكتبه وباليوم الآخر. إنها أمنية فارغة إذ لا رجعة فيها أبداً.. إنهم تمنوا محالاً. ولكن هذا التمني لا يصدقون به ولا يطلبونه على وجه الحقيقة.

قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي ظهرت لهم نواياهم على حقيقتها، فما كانوا يخفونه على الناس ويراؤونهم به قد انكشف الآن أمام العيان وللملأ العام، انكشف على رؤوس الأشهاد وبانت أعلامه بادية لكل الحضور.. أو أن ما كانوا يلبّسون به على أنفسهم ويموهونه عليها ليكملوا به شوط النفاق قد

انكشف لهم الآن. إن كل المبررات التي وضعوها لإقناع أنفسهم بصحتها قد انكشفت وظهرت الحقيقة عارية بدون ستر أو غطاء...

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ إنها الطبيعة الشرّيرة التي تعود بهم إلى الشرّ فيما لو أُعيدوا إلى الدنيا واستجيب لهم طلب العود...

لو رجعوا إلى الدنيا واستجاب الله لهم طلبهم لعادوا إلى الكفر وإلى الرذيلة والعصيان والتمرد ولما أقلعوا عن ذلك وأصبحوا مؤمنين كما ادعوا في طلب الرجعة. إنها الجبِلّة الخبيثة التي تتأذى بالإيمان والطاعات والمكارم ومحاسن الصفات، وكم من لص أو سارق دخل السجن فتمنى لو أنه يخرج ويفرّج عنه حتى يستقيم ويعتدل ويمتنع عن كل باطل، ولكن ما أن يخرج وتعود إليه حريته حتى يعود إلى ممارسة السرقة والاعتداء وكل أشكال الانحراف وما ذلك إلا لطبيعته الخبيثة ونهجه الفاسد وعقيدته المنحرفة وفكره الملوّث ولذا يعقّب الله على طلبهم الرجوع إلى الدنيا ليكونوا مؤمنين كقوله تعالى:

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ إنهم يكذبون في مقالتهم التي وعدوا بها... يكذبون على أنفسهم كما كانوا في الدنيا ويكذبون على غيرهم كما هي طريقتهم وكما هو ديدنهم...

فائدة

١ ـ جواب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ محذوف لكي يذهب السامع في تقديره كل مذهب فيكون أبلغ من ذكر شيء معيّن.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ
وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا
فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾: من البعث: وهو إثارة الشيء وتوجيهه ويختلف بما علق به، والبعث الإلهي: هو إحياء الموتى للحساب.

﴿تَرَىٰٓ﴾: رؤية بصرية: وهي العين.. حاسة البصر.

﴿وُقِفُواْ﴾: يقال: وقف على الشيء: إذا عرفه وتبيّنه، ووقفوا على ربهم: رأوا ما عنده مما وعدهم به.

﴿فَذُوقُواْ﴾: الذوق: وجود الطعم بالفم وأصله فيما يقلّ، واستعمله الله في الكثير والقليل.

﴿خَسِرَ﴾: الخُسْر والخسران: انتقاص رأس المال.

﴿بِلِقَآءِ﴾: اللقاء: هو الاجتماع، وملاقاة الله: عبارة عن القيامة وعن المصير إليه.

﴿بَغۡتَةٗ﴾: فجأة.

﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾: الحسرة: الندم على ما فات كأن المتحسر قد انحسر وانكشف عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه.

﴿مَا فَرَّطۡنَا﴾: التفريط: التقصير في الشيء مع القدرة عليه.

﴿أَوۡزَارَهُمۡ﴾: ذنوبهم، والأوزار جمع وزر: وهو الحمل الثقيل ويطلق في لسان الشرع على الذنوب والآثام.

﴿ظُهُورِهِمۡ﴾: جمع ظهر: وهو خلف البطن.

﴿سَآءَ﴾: من السوء: وهو كل ما يُغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأُخروية.

﴿مَا يَزِرُونَ﴾: ما يحملون من الذنوب.

﴿لَعِبٞ﴾: اللعب: هو العمل الذي لا نفع ولا فائدة فيه، والتلعابة: الكثير اللعب، والمَلْعَب: مكان اللعب...

﴿لَهۡوٞ﴾: اللهو: ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه ويهمّه.

التفسير

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ معطوفة على قوله تعالى فيما تقدم: ﴿لَعَادُواْ﴾ أو أنه كلام مستأنف وعلى كل حال ـ فهو قول للكفار والمشركين أو لفريق منهم إنهم لا ينظرون إلى الحياة إلاّ أنها شوط قصير يبتدىء بالولادة وينتهي بالموت. هذه هي كل الحياة وهذه هي نظرتهم إليها فلا حياة آخرة ولا بعث ولا نشور ولا حساب ولا عقاب.. إنهم أنكروا المعاد يوم القيامة فليس هناك عودة للحساب عمّا كسب هذا الإنسان أو فعل في دار الدنيا، أبداً ليس لنا حياة إلاّ ما نحن فيه من الحياة الدنيا، فلا بعث بعد الموت ولا حساب أو عقاب أو جنة أو نار هكذا قالوا بما

اعتقدوا ولكن الله لا يهمل هذا المنطق الباطل بل يريد منهم أن يلمسوا الحقيقة ويقرُّوا بها ويعترفوا بمدلولها، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ ولو ترى حالهم إذ عرضوا على ربهم ووقفوا للحساب كيف يكون ذلك الموقف! وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف تفخيماً لذلك الموقف وتهويلاً مما فيه..

إنهم سيقفون أمام الله للحساب... سيشاهدون هذه الحقيقة بأنفسهم.. وسيسألهم الله تقريعاً لهم وتكذيباً لما قالوه سابقاً ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ أليس ما تشاهدونه من البعث والنشور والحياة الجديدة للحساب أليس هذا أمر واقع بالحق والصدق تشاهدونه وترونه؟...

وكيف ينكرون؟!.. وأنى لهم أن ينكروا؟! بل ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ نعم إنه والله يا ربنا لحق وإنه واقع لا مِرية فيه ولا شك يعتريه. إنه إقرار مؤكد باليمين لوضوحه كالشمس إن لم يكن أظهر.

قال الله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الله لهم بعد هذا الإقرار منهم بوقوع البعث والنشور والوقوف للحساب، قال لهم: هذا بسبب كفركم وعنادكم وعدم إيمانكم بالله وبرسله وكتبه وما جاء من عنده، بسبب ذلك ذوقوا العذاب وأي عذاب؟ هو أنه العذاب الذي لم يحدّد وقته أو كيفيته أو مدته ولا أشكاله وألوانه، ومهما تصورته فلن تصل إلى تحديده أو ضبطه لأنه عذاب الله الذي لم يدركه أحد إلاّ بإجماله دون تفصيلاته.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ﴾ تقرير لحقيقة واقعة بالذين كذّبوا بالوقوف بين يدي الله للحساب لأنهم عندما أنكروا البعث والحساب والقيامة أساءوا في الاعتقاد وأساءوا في العمل، وبذلك خسروا الجنة ونعيمها وما فيها لأنها للذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا أن لهم يوماً يبعثون فيه ويأخذون جزاء أعمالهم ونتيجة أتعابهم، ومن كان على خلاف ذلك خسر ذلك ولا يكون له إلاّ العذاب الأليم...

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لتكذيبهم، فإنهم إذا جاءتهم القيامة فجأة ووقفوا أمام الله للحساب عندها يظهر مقدار أسفهم وحزنهم ويقولون: يا حسرتنا، ينادونها تأسفاً لشدة ما يصيبهم فكأنهم يستحضرون نفس الأسف والحزن على ما قصّروا في الحياة. وإنه لأسف لا ينفع ولا يفيد لفوات محله ومضي زمانه.

والضمير في: ﴿فِيهَا﴾ إما أن يرجع إلى الدنيا ـ وإن لم يجرِ لها ذكر للعلم بها ـ وإمّا أن يرجع إلى الساعة التي هي القيامة حيث لم يعمل لها الإنسان ولم يحسب حسابها والوقوف فيها للمقاضاة وأخذ الجزاء.

﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ إنها صورة تحمل على الأسى والحزن حيث يأتي الكافر يوم القيامة فضلاً عن تأسفه وحسرته على ما قصّر في دار الدنيا في حقوق الله تعالى فضلاً عن ذلك فإنه يأتي حاملاً ذنوبه التي ارتكبها وأعماله التي قام بها على ظهره. . . السرقات والاحتيالات، الاعتداءات، الدماء، الأعراض حقوق الناس التي سلبها!! كلّ ذلك وأمثاله يحمله على ظهره الضعيف النحيل. . إنه حمل ثقيل بدون شك وما أسوأه من حمل وما أقبحه من منظر تشمئز منه النفوس. . إنه سبحانه يجعل ذنوبهم ملازمة لهم لا تنفك عنهم يحاسبهم بها ويعاقبهم عليها.

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾. هذا ردٌّ على الكفار الذين قالوا ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ إنه سبحانه يقول لهم: إنما حياتهم هذه ما هي إلاّ لعب بدون فائدة أو لهو تلهون بها عما ينفع ويفيد. . إنهم كأطفال صغار يلهون ويلعبون ثم يعودون كما بدأوا لا ثمرة يجنون منها ولا فائدة يحصلون عليها، وهم مع كون دنياهم بهذا المستوى يعيشون فيها بصورة طفولية ويقضون أوقاتها بدون فائدة.

طبعاً هذه دنيا الكفّار والمشركين وأهل الفسق والفجور، وأمّا دنيا أهل الإيمان والتقى فإنها دنيا جدٍّ وعملٍ وحركةٍ ونشاط وكدح نحو الله وطلباً لرضاه، وبذلك

يحصّلون من خلالها أرفع المقامات وأعلى الدرجات. ثم نبّه سبحانه هؤلاء الكفار وبيّن لهم أن الآخرة هي خير لمن اتقى الله.

﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الدار الآخرة خير لكثرة نعيمها ودوامها وخلود الإنسان فيها.. إنها خير للذين آمنوا بالله واتقوه في أوامره فأطاعوه فيها واتقوه في نواهيه فامتنعوا عنها.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تفكرون في الدارين - دار الدنيا ودار الآخرة - وأيهما خير فتسارعوا إليها وتعملوا لها؟..

والاستفهام للتوبيخ من حيث أنهم لا يفكرون.

قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿لَيَحْزُنُكَ﴾: الحزن: ألم نفسي يكون عند فقد محبوب أو حدوث مكروه أو امتناع مرغوب.

﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾: معجزاته.

﴿يَجْحَدُونَ﴾: الجحود: هو إنكار ما ثبت في القلب.

﴿وَأُوذُوا﴾: من الأذى: وهو الضرر.

﴿أَتَاهُمْ﴾: أعطاهم.

﴿لَا مُبَدِّلَ﴾: من بدل: وهو جعل شيء مكان آخر.

﴿نَبَإٍ﴾: النبأ: هو الخبر ذو الشأن العظيم.

﴿كَبُرَ﴾: يقال: كبر على فلان الأمر: أي عظم عنده وشق عليه وقعه.

﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾: الإعراض عن الشيء: التولّي والانصراف عنه رغبة عنه أو لدواعٍ أخرى.

﴿ٱسْتَطَعْتَ﴾: قدرت.

﴿تَبْتَغِيَ﴾: تطلب.

﴿نَفَقًا﴾: منفذاً، وأصل النفق: السرب في الأرض.. وهي حفرة نافذة لها مدخل ومخرج.

﴿سُلَّمًا﴾: السلم: المرقاة من السلامة.. لأنه هو الذي يسلمك إلى مقعدك.

﴿يَسْتَجِيبُ﴾: يقال: استجاب الدعاء إذا لبّاه وقام بما دعاه إليه بالتدريج.

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾: جمع ميت: وهو من فقد الحياة.

﴿يَبْعَثُهُمُ﴾: من البعث: وهو إثارة الشيء وتوجيهه ويختلف بما علق به، والبعث الإلهي: هو إحياء الموتى للحساب.

﴿يُرْجَعُونَ﴾: من رجع إذا عاد.

التفسير

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ هذه الآية جاءت تسلية للنبي ﷺ مما لاقاه من قومه حيث رموه بشتى التهم وألصقوا به الكثير من الأكاذيب، اتهموه أنه ساحر وكاهن وشاعر ومجنون وغير ذلك من الأوصاف التي تتنزه عنها ساحته الشريفة، وكان كل قصدهم أن يبعّدوا الناس عنه وعن دعوته وأن ينفّروهم عن قبول قوله، فكان النبي ﷺ يأخذه الأسى والحزن على ما يفترونه من أكاذيب وما يطلقونه من إشاعات يصدّون من خلالها الناس عن قبول الإسلام والدخول

فيه إنها إساءات توجّهت إلى النبي ﷺ أوجبت الأسى والحزن فعزّاه الله وسلاّه بأنه سبحانه قد علم بها كلها ثم خفّف عنه من وقعها بقوله تعالى:

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ إن الظالمين ـ وهم الكفار ـ لم يكذبوك على وجه الحقيقة وإنما يكذبونني حيث أكرمتك بالمعجزات التي جاءت تثبت الحق وما ادعيته من النبوة، ولكنهم كذبوها مع علمهم بصحتها! فهذا تكذيب لي واعتداء عليّ، وهذا يشبه قول الوالد لولده الذي أُهين: إن الإهانة التي توجهت إليك هي إهانة لي.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ هذه تسلية أخرى للنبي ﷺ وتخفيف عنه مما يلاقيه من المشركين.. إنك يا رسول الله! لستُ الأوحدي فيما ينالك من التكذيب والأذى.. بل إن هناك الرسل الكثيرون الذين تعرضوا لما تتعرض إليه وقد أصابهم ما أصابك ولكنهم صبروا. إن رسل الله الذين تقدموك قد تعرّضوا للتكذيب من أممهم وأُوذوا كثيراً حتى وصل الأمر ببعضهم إلى درجة الشهادة.

إنك يا محمداً من ذلك الرعيل الكريم من الرسل وأمتك من جملة تلك الأمم يحكمها ما يحكمهم وطبيعة ممارستها كطبيعة ممارستهم إنهم جميعاً يلتقون في حركة واحدة ضد الحق ويمارسون مختلف السبل من أجل خنق الدعوة الإلهية ومصادرة ما جاءت به، فأنت رسول كالرسل تتعرض لما تعرضوا إليه. ولكن في النهاية سنؤيدك بنصرنا إننا لن نتخلّى عن رسلنا، فكما نصرنا من تقدمك من الرسل فانتشرت دعوتهم وآمن بهم الناس كذلك سننصرك وستنتشر دعوتك.

وقد حقق الله له هذا الوعد.. فنصر رسوله وانتشرت دعوته وآمن به الناس من شتى الأجناس والألوان وفي مختلف بقاع الأرض وعلى كل شبر فيها.

في الآية بيان لدور الصبر وإرشاد إلى أن النصر يكون حليف الصابرين.

﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بعد أن ذكر سبحانه حال

الرسل وكيف أوذوا فصبروا فأنزل الله عليهم نصره بعد أن ذكر سبحانه ذلك عقّبه بهذا التأكيد الصريح.. أن ما وعد الله به وقضاه لا يمكن أن يتغيّر فلا بدّ لك من النصر وقد وصلت إليك أخبار الرسل وكيف كانت مسيرتهم الجهادية وقد توّجه الله بالنصر والفوز والفلاح وأنت واحد من أولئك الرسل كتب الله لك النصر في نهاية الشوط وما هو إلاّ الوقت والسير وفق الضوابط والقواعد التي وضعها الله لدعوات الأنبياء.

لا يبدّل الله كلماته وقد أخذ على نفسه نصر المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾(٢).

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ كان النبي ﷺ حريصاً جداً على كل الوسائل المتاحة من أجل أن ينقذهم من الشرك ويدخلهم حظيرة الإيمان فلا يلاقي إلاّ العناد والإصرار على ما هم عليه من الانحراف فيشق عليه ذلك ويعظُم ويتأثر للقلوب القاسية التي لا تنفعل لدعوة الحق ولا تستجيب لنداء الله وكلماته، والله سبحانه يخاطب نبيه بهذه الكلمات تسلية له وتأكيداً عليه.. أن الدعوة يجب أن تكون بمنهجية طبيعية من المعجزات التي تثبت نبوته وصدق ما جاء به، وليس له أن يبحث أكثر من ذلك أو يشقى في سبيل هدايتهم.

إن عظُم وشق عليك انصرافهم عن الدعوة والإيمان فاطلب لهم آية من أعماق الأرض فانزل إليها أو من عنان السماء فاصعد إليها فآتيهم بتلك الآية ولكن ذلك لا يكون سبباً كافياً لهدايتهم ورشدهم، فإن مشيئة الله قاضية أن تكون الأمور خاضعة للاختيار وحرية الفرد بدون إكراه.

---

(١) غافر/ ٥١.

(٢) الصافات/ ١٧١ ـ ١٧٤.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي لو شاء الله لجمعهم على الهدى وهو القادر بيده الأمور.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي من الذين لا يعرفون حكمة الله ومشيئته في مسيرة الأنبياء وفي عباده وحاشاك أن تكون كذلك وأنت أنت.

مع قدرة الله على أن يجعل الناس كلهم مؤمنين لكنه تركهم وشأنهم ـ بعد أن قدّم إليهم البينات وأوضح لهم الآيات ـ لكي يتحمل الإنسان مسؤولياته كاملة فيحاسب على ما يختار فإما يدخل الجنة أو النار بملىء حريته وكامل اختياره، وهذا هو الطريق السليم للتكليف والمسؤولية التي يمتاز بها الإنسان عن غيره.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ هذا سبب لعدم إيمانهم، وأنهم لو كانوا يسمعون الكلام سماع دراية وتفهم لأدركوا الحقيقة وميّزوا بينها وبين الباطل، لكنهم لم يصغوا إلى صوت الحق ولم يفتحوا قلوبهم لتقبله فكانوا كالموتى كما تشير إليه تتمة الآية.

﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ الموتى سيخرجهم الله وينشرهم لأن المعاد حق والوقوف بين يدي الله للحساب لا بد منه.

الرجوع إلى الله أمر قطعي من عقائد المؤمنين وأوليات الإيمان وإذا كان الأمر كذلك فهؤلاء الكفار الذين لا يستمعون إليك ولا يصغون إلى كلامك للانتفاع به فهم موتى سيخرجهم الله للحساب وعندها تقع عليهم الحسرة ويأكلون أيديهم ندامة دون أن ينتفعوا بشيء لفوات محله.

فوائد:

١ ـ «قد» في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ﴾ للتأكيد.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ هذا شرط وجوابه محذوف تقديره فافعل.

٣ ـ شبّه سبحانه حال الكفار بحال الموتى فكما أن الموتى لا يسمعون ولا يستجيبون فكذلك حال الكفار من حيث أنهم لا يستمعون إلى كلام الحق سماع تفكّر ودراية ولا يستجيبون له كما يستجيب الأحياء أصحاب الفكر والدراية وهؤلاء الموتى ـ موتى الأجساد وموتى الأرواح ـ سيرجعون إلى الله فيحاسبهم ويعطيهم جزاء أعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

* * *

التفسير

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ المقصود بالآية هي المعجزة التي بها تثبت صحة نبوة النبي محمد ﷺ وقد جاءهم بآيات كثيرة وأهمها وأعظمها والدائمة بدوام الدنيا معجزة القرآن الكريم الذي تحدى العرب أن يأتوا بآية واحدة تجاري آياته أو تساويها فعجزوا عن ذلك وأقرّوا بالعجز، ولكن العرب بالرغم من هذه المعجزات استمروا يطلبون المعاجز والآيات لا يريدون من وراء ذلك طلب الحقيقة والوصول إليها والإيمان بها وإنما طلبوا ذلك تعنتاً وسخرية واستهزاء.

ثم لا يخفى أن ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى هلا.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ قل لهم يا محمدا إن الله يملك القدرة المطلقة على أن ينزّل كل آية تريدونها وتقترحونها. إن قدرته على الكبير هي قدرته نفسها على الصغير يقول للشيء كن فيكون فلا يعجزه أمر ولا يقف دون مشيئته شيء ولكنها المصلحة التي لا يعلمها إلاّ هو والتي لا تخضع لأهواء الناس وإراداتهم وما يشتهون.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أكثر الناس لا يعرفون المصلحة في الأمور

فيقترحون ما لو تحقق ما يقترحون لألحق بهم الضرر وكان فيه المفسدة. إن الأولياء الراشدين لا يستجيبون للأطفال القاصرين في كل ما يريدون أو يقترحون لأن الأولياء أعرف بالمصالح وأدرى بالعواقب، فقد يطلب الإنسان جمرة تحرق يده لظنه أنها ثمرة فيمنعه منها وليّه، فكيف بالخالق البارىء المصوّر علاّم الغيوب مدرك العيوب كيف يستجيب لكل اقتراح يتقدم به الكفار وأهل الشرك؟!

إن أكثرهم لا يعلمون وجه المصلحة التي قد تقتضي المنع لأنه لو استجيب طلبهم لأدى ذلك إلى رفضهم، وهذا بدوره يؤدي إلى استئصال شأفتهم وإزالة وجودهم من الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

* * *

اللغة

﴿دَآبَّةٍ﴾: الدبيب: المشي الخفيف، والدابة: كل ما يدبّ ـ يتحرّك ـ على الأرض من الحيوان.

﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾: الطائر: كل ذي جناح يطير في الهواء، والجناحين: هما أداة الطيران عند الطائر.

﴿أُمَمٌ﴾: جماعات جمع أمة: وهي التي تجتمع على أمر واحد كدين أو لغة أو صفة.

﴿مَا فَرَّطْنَا﴾: ما تركنا، وقيل: ما قصّرنا.

﴿يُحْشَرُونَ﴾: يجمعون، والحشر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه، وهنا يراد أنهم يخرجون للحساب.

التفسير

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ كل ما يتحرك في

الأرض من دوابها الأهلية والبرية الصغيرة والكبيرة حتى الحشرات كالنحل والنمل.

﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ سواء كانت كاسرة أو آهلة صغيرة أم كبيرة كل ذلك أمم أمثالكم أي جماعات تعيش كما تعيشون وتهتدي بما أودع الله فيها من غرائز إلى ديمومة حياتها وإيجاد قُوتها ولها حياتها الخاصة التي تحكمها وتتكيّف طبقاً لقوانين تدركها بما أودع الله في داخلها.

كل دواب الأرض وطيور السماء أمم وجماعات مثلكم، والمثلية مفهوم واسع يمكن أن تتسع وتتسع حتى تبلغ درجة التنظيم فيكون لها رأس يقودها ومعاونون وقواعد وقوانين كما أثبت ذلك المختصون في عالم الحيوان والطيور، وكما نطق بذلك القرآن الكريم في قصة نملة سليمان عليه السلام وكيف أنذرت قومها وحذّرتهم من الخطر الدّاهم عليهم، وكما في قصة هدهد سليمان الذي فَهِمَ سليمان لغته فخاطبه وتكلم معه وأرسله رسولاً وكان السبب في هداية أمة من البشر وهو الطائر البهيم.

وهكذا نستطيع أن نسترسل في المثلية حتى التعميم مع حفظ النسبة وإن اختلفت الكيفية في المراتب والدرجات.

فائدة

إن قيل ما فائدة قوله ﴿بِجَنَاحَيۡهِ﴾ مع أن الطائر لا يطير إلاّ بهما.

قيل: فائدته التأكيد على أن الطيران بهما ولم يكن قوله ﴿يَطِيرُ﴾ على سبيل المجاز كما قد يستعمل في ذلك كقولنا طاروا إليه زرافات ووحداناً.

﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ ما قصّرنا من ذكر شيء في القرآن ولا سقط منا شيء مما يهم الناس أو ينفع الأحياء وينعش الحياة إلاّ ذكرناه؛ وهذه الآية وقع الخلاف في تفسيرها بين أهل العلم والخلاف في أمرين:

الأول: في لفظة الكتاب وما المقصود منه هل هو اللوح المحفوظ، أم القرآن، أم كتاب الوجود؟ ولكل أدلته التي يقرّب بها المعنى الذي يتبناه ويذهب إليه.

والثاني: وقع الخلاف في المقصود من قوله تعالى: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ هل هو كل شيء في الحياة والموت والدنيا والآخرة؟ أم يقصد ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أمور الدين وما يقرّب العبد من الله ويهديه إلى سبيله؟!

والظاهر أن الفهم العرفي العام يساعد على كون المقصود بالكتاب هو القرآن و﴿مِن شَيْءٍ﴾ عام يشمل كل شيء في الحياة الدنيا والآخرة في الدين والدنيا، ويؤيد ذلك بل يُعيِّن المصير إليه ما ورد في الروايات، ولكن معرفة ذلك بكماله وتمامه لا يكون إلاّ عند أهله ممن اختصهم الله بالعصمة وأيّدهم بروح من عنده وهم النبي ﷺ وأوصياؤه الأئمة الهداة، فإنهم العالمون بما في كتاب الله العارفون بمضامينه المطلعون على كل تفاصيل الحياة الدنيا والآخرة وما ينفع ويفيد.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الجميع يحشرون إلى الله للحساب، هذا هو مدلول الآية ومفادها ويساعد على ذلك بعض الروايات التي وردت في محاسبة البهائم والاقتصاص من الظالم للمظلوم.

وفي الفقيه قال الصادق عليه السلام: أي بعير حُج عليه ثلاث سنين جعل من نعم الجنة وروي سبع سنين.

وفي مقابل هذا التعميم في الحشر هناك من يذهب إلى أن الحشر لا يكون إلاّ للمكلفين من أبناء آدم لأنهم وحدهم الذين تحملوا مسؤولية التكليف وعليهم يقع العقاب كما أن لهم يعود الثواب. وأما البهائم والطيور وغيرها فليست بمكلفة حتى يكون هناك حشر ونشر وحساب فيكون ذلك قرينة على إخراجهم من الحشر وهو الأقرب.

وعلى كل حال فالعبرة أن ينظر الإنسان إلى تكليفه وأنه قطعاً هو المسؤول عن كل التكاليف الإلهية وسيحاسبه الله عليها فعليه أن يستعدّ لذلك اليوم الرهيب فيجيد عمله ويطيع ربه ويعمل لذلك اليوم ليسعد فيه ويفوز.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿صُمٌّ﴾: الأصم: الذي وُلد لا يقدر على السمع.

﴿بُكْمٌ﴾: الذي لا يقدر على الكلام وهو الأخرس.

﴿الظُّلُمَاتِ﴾: جمع ظلمة: وهي عدم النور حيث لا رؤية.

﴿يُضْلِلْهُ﴾: الضلال: ضد الهدى وهو الباطل.

﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: طريق مستقيم بدون اعوجاج.

التفسير

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ لما ذكر سبحانه الدواب والطير وأنها أمم أمثالنا وأنها كلها بتدبير الله وحفظه وهو المتكفّل بهدايتها ووضع القوانين التي تحفظها وفي ذلك عبرة وعظة للذين ينظرون ويفكرون ويبصرون نعى سبحانه الذين كفروا بآيات الله ومعجزاته ومنها معجزة القرآن وجميع ما خلق

فهؤلاء صم لا يستفيدون من أسماعهم لكي يستمعوا إلى كلام الحق ويتأثروا به ويعملوا بمضمونه.

﴿وَبُكْمٌ﴾ خرس لا يقدرون على النطق بالحق وهم في ظلمات الكفر والجهل لا يخرجون منها ولا يقدرون على التحوّل عنها.

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ من يشأ الله إضلاله يتركه وشأنه لأنه هو قد اختار البُعد عنه والمعصية له والتمرد عليه فيتركه الله ويتخلى عنه فيرتكس في الضلال. إن من يختار الضلال ولا يستمع لنداء الله ونداء الدعاة إليه فإنه سبحانه يحجب لطفه عنه ويتخلى عنه ويتركه وشأنه فيضل ويسترسل في الضلال.

وأما من يشأ الله هدايته وسداده فإنه يوفر له كل عناصر الخير فكلما ازداد منها وعمل بها كشف الله له عن بصيرته وأعانه لبلوغ أقصى غايته من الهدى واستقامة الطريق الموصلة إلى جنة النعيم.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَتَـٰكُمْ﴾: جاءكم.

﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: القيامة.

﴿تَدْعُونَ﴾: تنادون.

﴿فَيَكْشِفُ﴾: يقال: كشف الشيء عن الشيء: أظهره ورفع عنه ما يؤذيه.

﴿وَتَنسَوْنَ﴾: النسيان: عدم ذكر الشيء وغيابه عن الذهن.

التفسير

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

هذا أمر من الله لنبيّه ﷺ أن يطرح عليهم هذا السؤال وليخبروه به.

إنه سؤال يثير الفطرة ويحركها ويجعلها تنطق بالحقيقة.. إنه سؤال لا يمكن أن يجاب عليه إلاّ من منطلق الإيمان بالله وجوداً وتوحيداً، فلذا يقول الله لنبيه: قل لهؤلاء المشركين أخبروني عن حالتين:

الأولى: إذا نزل العذاب بكم من قبل الله وحلّت عقوبته عليكم ـ وهذا أمر في الدنيا ـ تعيشونه وتمارسونه ويحدث معكم.

الثاني: ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أي جاءتكم القيامة بأهوالها وشدائدها وما يمر فيها من مصائب ومتاعب، وهذه حالة وإن كانت غائبة عن الحسّ الآن ولكن يمكن قياسها على بلاء الدنيا وما يقع فيها من محن.

أخبروني في كلتا الحالتين لمن ترجعون بالدعاء لكي يكشف عنكم هذا البلاء؟! لمن تتوجّهون بانقطاع كامل واستسلام تام؟!

بمن تتعلق القلوب المعذّبة الخائفة المرتجفة؟ إنها حالات تردّ الإنسان إلى واقعه وحقيقته وتجعل القلوب تلتفت قهراً عنها إلى خالقها ومن كان سبب وجودها لتقول بصدق وتكشف عن الواقع المخبأ تحت الركام.. إنها تتوجّه إلى الله بالدعاء...

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴿٤١﴾﴾.

﴿بَلْ﴾ إضراب عمّا تقدم، وبيان للجواب الصحيح عن ذلك السؤال، إنكم تدعون الله وحده ولا تدعون غيره تدعون الله وتتوجّهون إليه بقلوبكم ودعائكم ليكشف عنكم تلك الشدائد ويزيل عنكم تلك المحن والمصاعب.. إنكم في تلك الأوقات الصعبة تنسون مَنْ كنتم تدعونهم مع الله.. إنكم تتخلّون عنهم وتذهلون عن دعائهم لأنهم في أعماق نفوسكم لا مكان لهم ولا أثر لوجودهم ولذا تنسونهم ولا تعودون تفكرون فيهم.

إن ما هو ثابت في اللاشعور يظهر في حالات الاضطرار وهكذا أظهرت أعلام التوحيد وبدت للوجود عندما وقع هذا الإنسان في وسط الشدائد والمحن، لقد ظهرت صرخة الفطرة معلنةً التوحيد وأغفلت كل الشركاء من دون الله.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أُمَمٍ﴾: جمع أمة: وهي الجماعة التي يجمعها دين أو لغة أو صفة.

﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾: الشدة والفقر، وقيل: البأساء في الأموال، والضراء في الأبدان.

﴿ٱلضَّرَّآءِ﴾: من الضر وهو ضد النفع: أي البلاء.

﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: التضرع من الضراعة وهي: الذلة وهنا يقصد به يتذللون ويخشعون.

﴿بَأْسُنَا﴾: عذابنا.

﴿قَسَتْ﴾: القسوة: غلظ القلب وعدم تقبله للعظات.

﴿زَيَّنَ﴾: التزيين: التحسين للشيء ليرغب فيه.

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾: أي وسّعنا عليهم من الأرزاق والعطايا.

﴿أُوتُوا﴾: أعطوا.

﴿أَخَذْنَاهُم﴾: أصل الأخذ: حوز الشيء وتحصيله، وهنا يراد أهلكناهم.

﴿بَغْتَةً﴾: فجأة.

﴿مُّبْلِسُونَ﴾: المبلس: اليائس من الخير، من أبلس الرجل: إذا يَئس ومنه سمي إبليس بذلك لأنه يئس من رحمة الله.

﴿فَقُطِعَ﴾: القطع: هنا يراد به إفناؤهم والقضاء عليهم.

﴿دَابِرُ﴾: الدابر: الآخر، ودابر القوم: خلفهم من نسلهم، وهنا يراد به استؤصلوا وأهلكوا.

التفسير

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ يقص الله على نبيه ﷺ ما جرى على الأمم المتقدمة عليه، وكيف كان موقفها من الأنبياء والرسل وكيف أخذها الله أخذ عزيز مقتدر، قصّها سبحانه عليه تسلية له عمّا لاقاه من قومه.

لقد أرسلنا إلى أمم كثيرة ممن كان قبلك رسلاً يبشرونهم وينذرونهم فبذلوا كل طاقاتهم من أجل أن يحملوهم على توحيد الله والعمل بما أحب وأراد ولم يتركوا فرصة إلاّ واستفادوا منها من أجل دعوتهم إلى الله، ولكنهم كانوا يأبون ويرفضون ويتمردون، وهنا يقص الله سبحانه كيف تعامل معهم.. لقد سلك معهم مسلك الشدّة فأخذهم بالبأساء التي تعني فيما تعني الفقر والحاجة والقحط والجدب وأخذهم بالضراء التي تعني فيما تعني الأمراض والبلاء ونقص في الأنفس والأولاد لعلهم يرجعون إليه فيتوبون من ذنوبهم ويقلعون عن معاصيهم لعل تلك النفوس الشموس تتذلل وتخشع وتعود إلى الله!

إنه أسلوب تربوي قد ينفع بعض النفوس، بل يجب أن ينفعها لو كانت تتعامل معه بعمق وفكر ودراية وبشيء من التعقّل، ولذلك اتبع سبحانه هذه الآية بقوله تعالى:

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ هذا عتاب لهم وتأنيب وأنه كان من حقهم عندما أنزل الله بهم الشدائد أن يعودوا إلى رحابه ويتوبوا إليه وتخشع قلوبهم لهول ما وقع عليهم وبهم. هذا هو المسار الذي يجب أن يعودوا إليه بعد ذلك التمرد والبعد عن الله، ولكن لم يكن شيء من ذلك لقساوة القلوب وتحجرها.

فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لم تتأثر القلوب ولم تنفعل بكل ما جرى عليهم إنها قلوب قاسية لم تلن لهذه الشدائد أو ترقّ ولم تتب عن معصية أو ترجع عن انحراف.

وبالإضافة إلى هذه الممارسة الفعلية للمعصية وعدم العودة عنها، فإن الشيطان راح يغريهم بالمفاسد ويحسّنها لهم ويزيّنها في عيونهم إنه الشيطان يحاول باستمرار أن يجمّل الشرك والمعصية والانحراف لكي يبقى الإنسان ممارساً لها يتعاطاها على الدوام ولا يتخلى عنها أبداً.

ثم إنه سبحانه يفتح أمام هذا الإنسان خطة تربوية جديدة إنها غير الأولى إنها طريقة جديدة تختلف أسلوباً وتتحدد معها في الغاية والهدف حيث تصبان في محاولة رد هذا الإنسان إلى الله والعودة به إلى رحابه.

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ لم تنفع معهم البأساء والضراء.. لقد انطمس الحس الداخلي فيهم وتعطلت كل أجهزة التأثير وفقدوا كل إحساس بهذه الشدائد والمحن، لقد فقدوا التفكير في الأسباب وأدمنوا العيش التعيس دون الرجوع إلى الله.

أراد سبحانه تغيير الامتحان لعلهم يرجعون فأنزل عليهم الخيرات والنعم وزادهم في العطاء والتوسعة.

وكلمة ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ تستوعب كل متع الدنيا ومدى ما يتّسع لها الخيال بل يقصر عن تصورها كل خيال إنه امتحان بالرخاء يكون حجة عليهم إن استمروا في الكفر.

لم يرجعوا إلى الله رغم هذه النعم بل فرحوا بها فرح بطر واستعلاء وتمادوا في الشر والغي فكانت المفاجأة أن أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.. إنها مفاجأة بالنسبة إليهم لأنهم يعيشون الرخاء والسعة وراحة الفكر والبال والفرحة العارمة، فجاء القرار الإلهي بأخذهم فحدثت المفاجأة لهم فكانت محيّرة.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿٤٥﴾﴾ ذهلوا عن أنفسهم وانقطع أملهم وتبدّد كل ما كان يعيش في أذهانهم وهكذا تم استئصالهم عن آخرهم ولم يبق منهم عين أو أثر لظلمهم وشقائهم وتمردهم على الله والحمد لله رب العالمين الذي يمهل ولا يهمل ويأخذ العصاة ليطهّر الأرض من رجسهم ولؤمهم وشر ما يحملون ويعملون.

فائدة

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كناية عن أخذهم واستئصال شأفتهم بحيث أهلكهم ولم يبق منهم أحداً.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾: أخبروني.

﴿خَتَمَ﴾: طبع.

﴿ٱنظُرْ﴾: تفكر أو انظر.

﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: نقلبها ونكررها على وجوه مختلفة.

﴿يَصْدِفُونَ﴾: يعرضون.

﴿بَغْتَةً﴾: فجأة.

﴿جَهْرَةً﴾: علانية.

﴿يُهْلَكُ﴾: الهلاك: الموت.

﴿مُبَشِّرِينَ﴾: جمع مبشر: وهو الذي يحمل الخبر المفرح.

﴿مُنذِرِينَ﴾: المنذر: هو الذي يحمل الإنذار، والإنذار: إخبار فيه تخويف.

﴿يَمَسُّهُمُ﴾: المس: هو اللمس باليد وهنا يراد به العذاب.

﴿يَفْسُقُونَ﴾: الفسق: هو الخروج عن الطاعة.

التفسير

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ وبصيغة الأمر ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد! أخبروني أيها المشركون إن أفقدكم الله السمع والأبصار وختم على القلوب مَنْ يعيد إليكم هذه الحواس؟!

فسمعكم قد فُقد فلم تعودوا تسمعون وأصبحتم طرشاً.

وأبصاركم قد عميت فلم تعودوا ترون النور أو تبصرون أمامكم وتميزون بين الأمور فيما يحتاج إلى النظر.

وكذلك إذا أذهب الله قلوبكم التي تفهمون بها الأمور وتميزون بين الخير والشر والهدى والضلال ماذا تعملون لو ذهبت مقومات وجودكم وإنسانيتكم؟! من يردُّها عليكم ومن يعيدها إليكم؟ . . أبداً لا يقدر غير الله على ردّها لقد سقطت كل قدرات الآخرين وتعطّلت وسائلهم ولن يقدروا على استنقاذكم وإعادة هذه الحواس إليكم، نعم إنه الله وحده سبحانه هو الذي خلقها وهو القادر على أخذها والقضاء عليها، كما أنه هو سبحانه القادر على إعادتها وهو الذي يجب التوجه إليه توحيداً وعبادة وإخلاصاً.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ انظر أيها النبي «وكل من له قدرة على الفكر والنظر والدراسة والبحث» كيف نغيّر في عرض الحجج ونعدّد الأساليب عرضاً وتكراراً واختلافاً في وضوح وبيان؟

ثم إنهم لا ينظرون إلى كل ذلك ولا يفكّرون فيه ولا ينتبهون إليه بل يعرضون عنه ويهملون النظر فيه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

قل لهم يا محمد! أخبروني إن أرسل الله عليكم عذابه بغتة ـ أي فجأة ـ بدون مقدمات أو إنذارات ملفتة أو أرسله عليكم جهرة ـ أي علانية ـ مع ظهور إمارات العذاب ومقدماته.

أخبروني في تلك الحالات من هو الذي يهلك ويفنى ويصبح في عداد الموتى؟ إنه لا يهلك إلاّ الظالمون المعتدون على الله في وجوده إنكاراً وفي وحدانيته شركاً وفي عبادة غيره من الأصنام والأوثان.

والاستفهام للتقرير وإنه لا يهلك إلاّ مَنْ هذه صفته وعدل عن ذكرهم إلى معنى أشمل وأعم يشملهم ويعمّهم وهو الظلم الذي يشير إلى علة الهلاك وسبب الدمار والبوار.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ حصر سبحانه مهمة الرسل بهذين الأمرين، وليس بما يقترحه عليهم المشركون. إن الترهيب والترغيب مهمتان كبيرتان تدور عليهما علة بعث الرسل إنهما التبشير والإنذار.

إن مهمة الرسل أن ينقلوا الناس من الضلال إلى الهدى ومن الباطل إلى الحق وذلك باستعمال الأسلوب الأجدى من التبشير أو الإنذار.

إن التبشير بالخير ونقله إلى ساحة العقلاء بأن هناك جنة ونعيماً وحوراً وولداناً وقصوراً بل هناك ما لذ وطاب وهناك أكثر من ذلك ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. إن كل ذلك يحمل الإنسان الطالب للراحة والمقام الكريم والنعيم الدائم يحمله إلى امتثال أمر الله.

كما أن إنذار الناس بالنار والعذاب والسلاسل والأغلال والعقارب والحيات

يدفع من يحمل قلباً واعياً إلى الخوف من كل هذه العذابات فيعود إلى الله ويمتثل لأمره.

ثم بيّن سبحانه عاقبة من تابع الأنبياء ومن تخلّف عنهم.

﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هؤلاء هم أتباع الأنبياء الذين آمنوا بالله ورسله وبالدعوة التي جاء بها هؤلاء الرسل، ثم أصلحوا ما كان من أفعالهم القبيحة قديماً واستبدلوها بأخرى صالحة تنطبق مع ما حمله هؤلاء الأنبياء.

إن من آمن إيماناً صحيحاً واعتقد عقيدة سليمة وأصلح ما كان قد فسد منه فأولئك لا يدخل الخوف قلوبهم لأنهم قد ركبوا مراكب النجاة واستقلّوا قوارب الفوز والفلاح، ولا هم يحزنون على شيء من الثواب قد فات لأنهم أدركوه ونالوه وبلغوا منه مبلغه.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

هؤلاء قوم تخلّفوا عن ركب الأنبياء ولم يؤمنوا بهم ثم راحوا يكذّبون كلام الله وأنبياءه ورسله ويجحدون ما جاء به الأنبياء أولئك ينالهم العذاب بسبب فسقهم وخروجهم عن الطاعة والتزام الإيمان.

ففي الطاعة عز وكرامة وفي المعصية ذل ومهانة.

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿خَزَآئِنُ﴾: جمع خزانة: وهو اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء أي يحرز لئلا تطاله الأيدي.

﴿ٱلْغَيْبَ﴾: ما غاب عن الحس.

﴿مَلَكٌ﴾: الملك: جسم روحاني لا يرى بالبصر أخبر عنه القرآن والروايات.

﴿أَتَّبِعُ﴾: اقتفي.

﴿يَسْتَوِى﴾: يتساوى.

﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾: فاقد البصر ممن شأنه ذلك، وهنا يراد به الكفر أو الضلال.

﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾: هو الذي يرى الأمور بحاسة البصر، وهنا يراد به المؤمن أو المهتدي.

﴿أَنذِرِ﴾: الإنذار: إخبار مع تخويف.

﴿يُحْشَرُوٓا﴾: يجمعوا.

﴿وَلِىٌّ﴾: الولي: الناصر والمعين والمحب والأولى بالشيء.

﴿شَفِيعٌ﴾: الشفيع صاحب الشفاعة وهو التوسط لإنجاح أمر يريده آخر إما بطلب منه أو تبرعاً وفي الأصل ضم شيء لمثله ليقوى به.

﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾: الطرد: الإبعاد.

﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾: الغداة والغدوة: ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

﴿وَٱلْعَشِىِّ﴾: آخر النهار أو ما بين صلاة المغرب والعشاء.

التفسير

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾.

نفى النبي ﷺ في هذه الآية عن نفسه بأمر من الله ثلاثة أمور:

الأول: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ فالكفار كانوا يطلبون من النبي ﷺ ما يتنعمون به في الدنيا من خيرات ولذائذ، بل يطالبونه بنزول المطر ورفع البلاء وزيادة الأموال وغيرها مما هو محفوظ عند الله وهو سبحانه المتولي لذلك.

الثاني: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ لست أعلم الغيب مستقلاً عن الله. وهم كانوا يطلبون منه أن يخبرهم بأمور عِلْمُها عند الله كأخبار الساعة والحساب.

نعم النبي ﷺ يعلم الغيب بتعليم الله وإرادته ومشيئته.

الثالث: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ نفى عن نفسه أن يكون من الملائكة الذين يرتقون في السماء ويقومون بخوارق الأمور، فهو صلوات الله عليه إنسان اصطفاه الله لرسالته وأوحى إليه بها، فليس بملك ولا يملك خصوصية الملك.

إن نفي هذه الأمور الثلاثة تحفظ بشرية النبي وإنسانيته وتحصر هذه البشرية والإنسانية بأمر واحد عبر عنه سبحانه بقوله:

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فهذه هي مهمتي المكلّف بالقيام بها وهذه صفتي التي أتمتع بها، إنها واحدة لا غير، فأنا رسول الله أتلقى الوحي من الله وأتبع كل ما يوحي به إليّ. . إنها مهمة تلقّي الوحي وحمل الرسالة وهذه خاضعة لإرادة الله ومشيئته ومحدودة بحدود وضعها الله لا يتجاوزها النبي أو يتعدى عنها.

وهذه الآية حجة واضحة على أن النبي ﷺ ما كان يجتهد في الأمور كما هو دأب المجتهدين، بل ما يقوله بوحي من الله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝﴾(١).

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ قل لهم بعد هذا البيان: هل يستوي الأعمى والبصير؟ أي المؤمن والكافر أو العالم والجاهل.

والاستفهام للإنكار أن يتساوى الفريقان. فإن المبصر يرى الأمور كما هي في واقعها. والعالم هذا شأنه يعرف النبوة ودورها وخصائصها، وأما الأعمى وهو الجاهل فهو يتخبط في حديثه يطلب الأمور المستحيلة ويفرض القضايا التي لا تليق بشأن الأشخاص ولذا عقّب الآية بقوله:

﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ وهو استفهام تقرير وفيه توبيخ لهم أن يفكّروا في الفرق بين الجاهل والعالم والمؤمن والكافر.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ بعد أن أمر الله نبيّه بنفي الأمور الثلاثة المتقدمة عن نفسه الشريفة وحصر دوره في دائرة الوحي وأنه صلوات الله عليه مهمته تلقّي ما يوحى به إليه بعد هذا، أمره سبحانه هنا أن يتولى الإنذار بالقرآن للذين يؤمنون بالحشر والنشر والحساب وأن في البين عودة إلى الله ووقوف بين يديه.

---

(١) النجم/٣ ـ ٤.

يا محمد بيّن للذين يحسبون حساب الله والوقوف بين يديه والحال أنهم يعرفون أنهم لا وليّ غيره يتولّى شؤونهم والدفاع عنهم وليس لهم من يشفع لهم وينقذهم من ورطتهم.

إن الإنذار بالقرآن وإن كان لكل الناس ولكنه ذكر هؤلاء لأنهم المنتفعون به والمستفيدون من تخويفه حيث ترقّ قلوبهم فيتقونه بالعمل بكل ما أمر والبُعد عن كل ما نهى.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ حيث حصر الولاية والشفاعة بالله، وهذا حصر حقيقي وتكون شفاعة النبي ﷺ والأئمة بإذن الله ورضاه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[1] وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[2] ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ هذه الآية وإن توجّه الخطاب فيها إلى النبي ﷺ ظاهراً، ولكنه متوجّه في الحقيقة إلى من ارتأى هذا الرأي أو ذهب إليه وصحّح اقتراح مشيخة قريش في اقتراحهم على النبي ﷺ أن يطرد المؤمنين «وهو عمر بن الخطاب الذي تبنّى ما أراده زعماء قريش» يقولون في سبب نزول هذه الآية كما أخرجه ابن المنذر وغيره عن عكرمة، قال: مشى عتبة وشيبة ابنا ربيعة وقريظة بن عبد وعمرو بن نفيل والحرث بن عامر بن نوفل ومطعم بن عدي في أشراف الكفار من عبد مناف إلى أبي طالب، فقالوا: لو أن ابن أخيك طرد عنّا هؤلاء الأعبد والحلفاء كان أعظم له في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إيّاه وتصديقه.

فذكر ذلك أبو طالب للنبي ﷺ فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت يا رسول الله! حتى ننظر ما يريدون بقولهم وما يصيرون إليه من أمرهم؟! فأنزل الله سبحانه ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وكانوا بلالاً وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة وصبيحاً مولى أُسيد والحلفاء ابن مسعود

(١) سبأ/ ٢٣.
(٢) البقرة/ ٢٥٥.

والمقداد بن عمرو وواقد بن عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد عمرو مرثد بن أبي مرثد وأشباههم.

ونحن نتبنى هذا الرأي في سبب نزولها، فإن الآية وإن توجّه الخطاب فيها إلى النبي ﷺ ولكن يقصد به غيره على طريقة «إياك أعني واسمعي يا جارة» وإلاّ فحاشا لرسول الرحمة ورسول الهدى ﷺ ومعلّم الأخلاق والآداب أن يختلج في نفسه شيء من هذا القبيل وخصوصاً مع مدح الله له بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[1] التي تتنافى مع الذهاب إلى نزول الآية فيه.

وأما معنى الآية «لا تبعد هؤلاء الضعفاء الذين يتوجهون إلى الله دائماً وباستمرار بالدعاء والمناجاة.. إنهم انقطعوا إلى الله وانقطعوا عمن سواه فهم يدعونه دائماً»

وتعبير: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ وإن كان معناهما الوقتان المحدودان ما بين الطلوعين غداة وما بين المغرب والعشاء ـ عشي ـ ولكن يقصد بهما وقتهما وما بينهما أو أنه يكنّى بهما عن جميع حالاتهم.. إنهم يدعون الله بإخلاص يريدونه ولا يريدون غيره.. إنهم يتوجّهون إليه بإخلاص يريدون أجره وثوابه وما عنده.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الآية تبيّن أن طرْدهم ليس صحيحاً لأن حسابهم تقع نتيجته عليهم فيعود إليهم الربح والخسارة والثواب والعقاب، وأمّا أنت فلا يلحقك شيء مما يطالهم أو ينالهم.. وللمشاكلة ذكر سبحانه أيضاً أن حسابك أيضاً يقع عليك ولا تلحقهم تبعته أو آثاره، فإن كنت لله مطيعاً وبأمره عاملاً كان أجر ذلك وثوابه لك وتعود منافعه إليك.

وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾[3] وغيرها من الآيات التي تحمّل كل نفس ما عملت.

---

(١) القلم/ ٤. (٢) الأنعام/ ١٦٤. (٣) المدثر/ ٣٢.

ثم عقّب ذل ببيان نتيجة الطرد وعاقبته ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وأنك لو طردتهم واتخذت هذا القرار الظالم لدخلت في زمرة الظالمين وتكون فرداً منهم وواحداً من جماعتهم وحاشا لنبي الرحمة أن يهمّ بذلك أو تحدّثه نفسه بمثله فضلاً عن القيام بذلك أو ممارسته.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

* * *

اللغة

﴿فَتَنَّا﴾: ابتلينا واختبرنا.

﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾: أنعم عليهم.

التفسير

ابتلاء الناس ببعضهم:

كانت الحادثة المتقدمة عملية اختبار جرت بين المستضعفين والمستكبرين فكان الضعفاء هم المحكّ وهم المختبر الذين يظهر فيه حقيقة أولئك الكبار في نظر الناس.

نظر أكابر القوم إلى الضعفاء الذين آمنوا بالله وبرسوله وصدقوا ما جاء به النبي ﷺ وقالوا:

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ استفهام يحتوي في داخله الاستهزاء والإنكار، وإنه لو كان الإيمان خيراً لما سبقونا إليه. إنهم ضعفاء فقراء بسطاء

فلن يسبقونا إلى خير ولم يكن ما هم فيه من الإيمان من النعم عليهم دوننا. إننا أحق بالنعم منهم.

وهذا هو منطق المستكبرين وأصحاب الجاه والثروة والمال ينظرون للأمور من منظور مادي ضيّق ويقيسون الأمور على نفوسهم الضعيفة الملتصقة بالمادة والتي لا تفكّر إلاّ فيها ولا تعيش غيرها.

ومن هنا يردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ هو سبحانه العالم بمن يشكره فيهديه إلى طريق الإيمان والحق، وهو العالم بمن لا يشكره فلا يهديه بل يتركه وشأنه فيقع في الكفر والخذلان، والاستفهام للتقرير.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾: السلام: هو السلامة من الآفات والعيوب، وسلام عليكم: أي سلّمكم الله في دينكم ودنياكم.

﴿كَتَبَ﴾: فرض وأوجب.

﴿سُوٓءًۢا﴾: قبحاً، ومعصية لأنهما من القبح.

﴿بِجَهَـٰلَةٍ﴾: السفه والخفة التي تقابل الحكمة والعقل.

﴿وَأَصْلَحَ﴾: الصلاح: ضد الفساد، وأصلح هنا بمعنى رمّم ما وقع فيه من الخطأ.

﴿غَفُورٌ﴾: صيغة مبالغة من غفر الذنب. إذا ستره وعفى عنه.

﴿نُفَصِّلُ﴾: فصّل: أبان الأمور وأزال اللبس.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾: لتتضح وتظهر.

﴿سَبِيلُ﴾: طريق.

﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: جمع مجرم: وهو فاعل القبيح والمنقطع إليه.

التفسير

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بعد أن رفض الله اقتراح مَنْ اقترح بطرد المستضعفين من مجلس النبي ﷺ ونهاه الله عن ذلك وأعقبه بما يصحّح نفسية هذا الرجل ويعوّض عليهم بدل هذا الرأي رأياً آخر ينسجم وتعاليم الدين وأخلاق سيد المرسلين، فلذا يتوجه الأمر وإن كان ظاهراً إلى النبي ﷺ ولكنه في الحقيقة إلى صاحب الرأي الفطير فيأمره فيه ـ بأن يكون استقبال هؤلاء الضعفاء بمجرد أن يراهم ـ أن يسلّم عليهم.

والسلام والسلامة: بشارة بنفي الآفات والمنغصات وكل سوء وأذية عنهم.

إن هذا السلام الذي يبادر به النبي ﷺ والمؤمنون لهؤلاء المستضعفين ينشر المحبة والعطف وينمّ عن روح متألقة طاهرة تعيش الأخوة والتواضع وكل المعاني الطيبة التي توطّد الوحدة والتآلف.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه مفردة من مفردات تجلي الرحمة الإلهية وما أخذه سبحانه على نفسه منها.

إنه أكد ﴿كَتَبَ﴾ التي تفيد الفرض والوجوب بـ﴿عَلَىٰ﴾ التي تفيد ذلك، إنه أخذ على نفسه الرحمة لمن عمل سوءاً بأن يغفر له ويرحمه ويسقط عنه تبعات هذا العمل الحرام ولكن إذا كان فعله مستوفياً لشروط ثلاثة:

الأول: أن يكون الفعل ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ المفسرة بطغيان الشهوة والانزلاق من خلالها في الانحراف وارتكاب المعصية أو للجهل بالآثار العظيمة التي تترتب على فعل الحرام وارتكابه.

الثاني: ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ بأن يندم على فعله القبيح ويتوب عن العودة إليه.

الثالث: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي أصلح هذا الخلل الذي فعله، فإن كان ذنباً فيه إساءة لله خاصة استغفره وتاب إليه وإن كان ذنباً له تبعة على عباد الله كجناية أو أكل مال بدون حق أعاد ذلك إليهم، ثم استقام على الصراط المستقيم الذي وضعه الله لعباده الصالحين.

﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن الله يقبل ذلك منه ويغفر ذنوبه ويرحمه بإدخاله الجنة وما فيه صلاحه وفلاحه، وهذا وعد منه سبحانه بالمغفرة والرحمة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ كما بيّنا الحجج والأدلة ووضحناها لكم فيما تقدم كذلك نبيّن لكم ما فيه أمور دينكم ليظهر طريق المجرمين المنحرفين من طريق الملتزمين المطيعين.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

اللغة

﴿نُهِيتُ﴾: النهي: المنع.

﴿تَدْعُونَ﴾: الدعاء: كالنداء، والدعاء: السؤال.

﴿أَتَّبِعُ﴾: يقال: تبعه وأتبعه: قفا أثره.

﴿أَهْوَاءَكُمْ﴾: جمع هوى، وهوى النفس: ميل النفس إلى الشهوة.

﴿ضَلَلْتُ﴾: الضلال: ضد الهداية وهو العدول عن الطريق المستقيم.

﴿بَيِّنَةٍ﴾: حجة واضحة.

﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾: العجلة: طلب الشيء وتحرّيه قبل أوانه وهو مقتضى الشهوة.

﴿يَقُصُّ﴾: القصّ: تتبع الأثر، والقصص: الأخبار المتتبّعة.

﴿الْفَاصِلِينَ﴾: الحاكمين، والفصل: هو القضاء والحكم.

التفسير

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قل يا محمد! للمشركين إني مُنعت عن عبادة الذين تدعون من الأصنام والأوثان ـ التي هي غير الله ـ وهذا النهي ليس فقط من النواهي القرآنية بل أيضاً هو من النواهي بمنطق العقل وأدلته وما قام من الحجج عندي على رفض كل عبادة أتوجّه بها إلى غير الله لأن كل مَنْ دونه فقير محتاج ممكن عاجز فكيف أعبد من كان بمثل هذه الحالة البائسة وأترك الله واجب الوجود الخالق الرازق الغني المحيي المميت الذي بيده الأمور.

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قل لهم يا محمد! لا أتبع في عبادتي ما اختلقته أهواءكم وميولكم ومشتهياتكم.

وفي هذا تعريض بهم على عبادتهم للأصنام والأوثان إنما كان وليد أهوائهم وإن ما يتوجهون إليه بالعبادة كان نتاج هذه الأهواء.

ثم بيّن عاقبته.. لو أنه اتبع أهواءهم وعبد غير الله وأنه لو فعل ذلك لضل عن الطريق الشرعي الصحيح وانحرف عن جادة الحق إلى الباطل وما كان من الذين مَنّ الله عليهم بالهداية وما فيه رشدهم وفلاحهم وما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ قل لهم يا محمد! إني على حجة واضحة ودلالة بيّنة من ربي تدل عليه وتكشف عن وحدانيته وحقه في العبادة والتوجه إليه.

أعظم بيّنة وأوّل حجة وأظهر برهان هو القرآن الكريم المعجزة الخالدة التي تحدّت العرب قاطبة بمن فيهم من بلغاء وفصحاء وأرباب بيان ولسان وأنتم أيها المشركون كذبتم بهذا القرآن الذي هو البينة الواضحة الظاهرة وشتان ما بين من يخضع لقواعد المنطق وأدلة العقل وبين من يرفضهما ولا يعترف بهما أو يقرّ بحكمهما.

وضمير ﴿بِهِۦٓ﴾ في قوله: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ إمّا يرجع إلى ربي أو إلى البيّنة ـ باعتبار المعنى كما نذهب نحن إليه.

﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أنتم قد استعجلتم العذاب وطلبتم نزوله بكم إشارة إلى قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] ولكن هذا الأمر ليس عندي تحقيقه ولم أُفوّض في استعماله. إن أمر العذاب بيد الله وله وحده حق إنزاله وحجبه.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ هذا أمر مردُّه إلى الله هو يملك وقوعه عليكم وبكم وهو يملك حق إمساكه ومنعه عنكم.

﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ هو سبحانه يحكي الحق وينقله وهو خير الحاكمين بين عباده، يقضي لمن يستحق العذاب بإنزاله حسب ما يراه ويمنع ذلك حسب ما يراه، فإن المصلحة قد تقتضي تعجيله إذا انقطع كل خير من النفوس وقد يقتضي التأخير إذا كان هناك أمل في العودة إلى رحابه والتوبة وإصلاح الأمر وهكذا. فهو المالك للأمور والفاصل فيها والحاكم في القضايا.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ قل لهم! لو أن أمر العذاب يعود إليّ وتحت قدرتي لعجلته لكم وانتهى الأمر بيني وبينكم بهلاككم غضباً لربي وانتصاراً له وتلبية لما سألتم وأردتم.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الله سبحانه أعلم بهم متى ينزل بهم العذاب ومتى يؤخره عنهم، وهذا من أدب النبوة وأخلاقياتها وفيه وعيد وتهديد لهم.

---

(١) الأنفال/ ٣٢.

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿مَفَاتِحُ﴾: جمع مِفتَح وهو بكسر الميم وفتح التاء هو: المفتاح ـ آلة الفتح ـ وبالفتح مكان الخزن.

﴿ٱلْبَرِّ﴾: اليابسة وما لا ماء فيه من اليابسة.

﴿وَٱلْبَحْرِ﴾: في الأصل المحل الواسع الذي يجتمع فيه الماء ويطلق الآن على المحيطات والأنهار.

﴿تَسْقُطُ﴾: تقع.

﴿وَرَقَةٍ﴾: ما على أغصان الأشجار دون الثمر.

﴿حَبَّةٍ﴾: جمعها الحب، يقال: في الحنطة والشعير ونحوهما.

﴿ظُلُمَٰتِ﴾: جمع ظلمة، وهي عدم النور ويعبر بها عن الكفر والجهل.

﴿رَطْبٍ﴾: الرطب خلاف اليابس، والرطب: ما فيه نداوة وترطب إذا ابتل.

﴿يَابِسٍ﴾: يبس الشيء: ييبس ما كان فيه رطوبة فذهبت.

﴿مُّبِينٍ﴾: واضح ظاهر.

﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾: التوفي: أخذ الشيء وافياً، والتوفية: إعطاء الشيء تاماً وافياً وهو يطلق على الموت وعلى النوم.

﴿مَا جَرَحْتُم﴾: ما كسبتم من الجوارح وهي أعضاء الشخص.

﴿يَبْعَثُكُمْ﴾: يوقظكم من النوم.

﴿يُقْضَىٰ﴾: يُتم، يكمل، يكتب، يقدّر، يحكم.

﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: وقت محدود.

﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: الرجوع: العود.

﴿يُنَبِّئُكُم﴾: يخبركم ويعلمكم.

﴿ٱلْقَاهِرُ﴾: القهر: الغلبة والتذليل معاً.

﴿يُرْسِلُ﴾: يُطلق ويبعث.

﴿حَفَظَةً﴾: ملائكة يحفظون ما تعملون.

﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾: لا يضيعون أو لا يتوانون.

﴿رُدُّوٓاْ﴾: أُرجعوا.

﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾: متولي أمورهم والقائم بشؤونهم ومربيهم.

التفسير

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ اختلفوا في ﴿مَفَاتِحُ﴾ هل تعني آلة الفتح أو المخزن نفسه ولا طائل تحت هذا الخلاف بعد أن كان المعنى المقصود واضح وهو أن عند الله سبحانه علم الغيب لا يعلم ذلك إلاّ هو وحده أو من أحب من خلقه فيطلعه على بعض ذلك.

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ ما تقدم كان عالم الغيب وهذا عالم المشاهدة فهو سبحانه يعلم ما في البر من ذوات الأرواح والأشجار والنباتات والأحجار والرمال وكل ما يرى.

ويعلم ما في البحر أيضاً من حيوانات وحشرات ونباتات وجبال ومعادن وغير ذلك.

والتعبير بـ﴿ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ واختصاصهما بالذكر لجهة أنهما أعظم المخلوقات المجاورة لهذا الإنسان وقدّم البر لأنه ألصق بالإنسان.

﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ بيان لإحاطة علمه بالجزئيات وأن الورقة التي تسقط من الشجرة يعلم متى سقوطها وكيف يتم ذلك وفي أي موقع تقع ومن نصيب مَنْ تكون وهل تؤكل أم تداس وغير ذلك من الخصوصيات الكثيرة والأحوال المختلفة التي تتغيّر الورقة خلال سقوطها.

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولا حبة عطف على قوله تعالى: ﴿مِن وَرَقَةٍ﴾ فكل حبة هي في طيات الأرض يعلمها الله ويعلم موقعها وتفاصيل حيثياتها فعلمه سبحانه نافذ في كل غيب أو خفاء.

﴿وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هذا عطف على قوله المتقدم: ﴿وَرَقَةٍ﴾.

والرطب واليابس: النداوة والجفاف، ولا تخلو الأشياء منهما فعلمه محيط بالكائنات جميعاً.

وأما قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فهو مسجل إمّا في اللوح المحفوظ، وإما كناية عن أنه في علم الله ويعلمه بتفاصيله.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ لشدة المشابهة بين الموت والنوم من حيث تعطيل الحواس وفقدان المعرفة وصيرورة النائم في عالم آخر غير عالم الحياة والأحياء، استعمل سبحانه كلمة يتوفاكم ويريد بها ينيمكم بالليل، وذكر الليل لأن النوم غالباً ما يكون فيه.

هو الله سبحانه وتعالى الذي ينيمكم بالليل فكونوا على استعداد دائم لملاقاته والوقوف بين يديه للحساب.

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ وهو سبحانه يعلم ما عملتم في النهار، وإذا كانت كل أعمالكم وما صنعته أيديكم في عين الله يعلمها ويعلم منطلقاتها الخيّرة والشرّيرة والطيبة والخبيثة فحسّنوا أعمالكم وأجيدوها لكي تكتسبوا الحسنات الموصلة إلى الجنة.

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ثم يبعثكم من نومكم ويوقظكم في النهار حتى تتم المدة المحدودة لعمر هذا الإنسان في دار الدنيا فتكون النهاية التي لا بعث بعدها إلاّ بعث الآخرة حيث يقوم الناس لرب العالمين لموافاة حسابهم وقبض مستحقاتهم.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ إلى الله ميعادكم يوم القيامة وإليه سبحانه مصيركم ومآلكم.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بعد الرجوع إلى الله والوقوف بين يديه تبتدىء محاسبة الخلق وعندها يخبر الله كل فرد بما عمل من خير أو شر وتتم المجازاة إن كان العمل خيراً فالجزاء خيراً روح وريحان وجنة نعيم، وإن كان العمل شراً فالجزاء نزلٌ من حميم وتصلية جحيم.

وفي الآية حث على إجادة العمل وصلاحه حتى تكون العاقبة طيبة وسعيدة.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ بعد أن ذكر علمه ذكر هنا قدرته وهي قدرة مطلقة يستولي بها على عباده ويقهرهم بها.

والفوقية هنا فوقية القدرة والسلطة والغلبة إذ لا مكان له ولا جهة تحدّه.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ يوكل بكم ملائكة يحفظونكم ويحفظون أعمالكم وهم الكرام الذين ذكرهم سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾[1] فمهمة هؤلاء الحفظة الكرام أنهم يحفظون الإنسان من التلف والعطب والبلاء كما أنهم يحفظون أعماله وأقواله ومواقفه في ملفات خاصة تهيّىء وتحضّر ليوم الحساب، وهكذا يستمرون في عملهم هذا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ لهذا الإنسان وانتهى أجله من الدنيا توفته رسلنا وهم الملائكة الموكّلون بقبض الأرواح عزرائيل ومن معه من أعوانه ومساعديه.

﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي لا يقصّرون فيما أوكل إليهم من مهمات بل يؤدونها بصدق وأمانة وكما هي على وجهها، فلا يقبضون نفساً لم يأت وقتها ولا يؤخرون نفساً حان وقت وفاتها.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ بعد الموت.. رجعوا إلى الله، وحكمه وسلطانه لمحاسبتهم ومجازاتهم.. إنه سبحانه المتولي لشؤونهم على وجه الحق. ليس هو كالموالين الذين كانوا في الدنيا حيث كانوا يحملون القصور والإمكان والضعف أمام الله، فهو المولى الحق المالك لهم والمتصرف بهم.

إن قيل كيف قال هنا ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ الشامل للكافر والمؤمن. وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[2] قلنا: المولى هنا بمعنى

(١) الانفطار/١٠ ـ ١١.
(٢) محمد/١١.

المالك والمتصرف بالأمور وهناك بمعنى الناصر ولا تنافي بين القولين لأن الكفار لا ناصر لهم يوم القيامة.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ لله وحده الفصل والقضاء في يوم القيامة.

﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ لا يحتاج سبحانه إلى عدّ أو إلى جلسات محاسبة. إنّ كل أعمال عباده حاضرة عنده دفعة واحدة فتخرج ملفات الناس وكل واحد يعرف ما له مما عليه.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يُنَجِّيكُم﴾: يخلّصكم.

﴿تَضَرُّعًا﴾: التضرع: إظهار الضراعة وهو الذل والخضوع.

﴿وَخُفْيَةً﴾: الخفية: هو الخفاء وهو الاستتار.

﴿كَرْبٍ﴾: الكرب: الغم الذي يأخذ بالنفس.

التفسير

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ عاد سبحانه بأمره ﴿قُلْ﴾ إلى نبيه أن يقول للمشركين منبهاً فيهم حس التوحيد كي تستقر هذه العقيدة في النفوس. إنها إثارة للفطرة كي تتنبّه إلى حقيقتها عندما تشتد الأزمات ويقع الإنسان في الشدائد والمصاعب.

قل يا محمد! لهؤلاء المشركين مَنْ يخلّصكم من شدائد البر والبحر إذا

عصفت رياح البحر واشتدت زمجراتها أو أُحيط بمن في الصحراء ووقع أصحابها في أخطار عظيمة؟ مَنْ يخلّصهم من هذه الشدائد وبمن تتعلق قلوبهم في تلك الساعات الصعبة؟

في تلك الحالات ترتفع الأصوات بالضراعة والاستغاثة بالله وتلتجىء إليه بالاضطرار علناً وسراً حسب قوة الشدائد وضعفها، ثم يعاهدون الله أيضاً بأن يؤدوا حق شكره المتفرع على الاعتراف بوجوده وبوحدانيته.

إنها حالة الإنسان في مواجهة الشدائد الصعبة في البر والبحر حينما تنقطع به الأسباب يرفع صوته بالدعاء متذللاً خاضعاً معلناً ذلك تارة ومسراً أخرى وقد يقرن ذلك بالعهد منه لله أن يؤديه حقّ شكره بالإيمان به وتوحيده والعمل بإرادته وتنفيذ مشيئته.

ثم إن الله يردّ على ذلك الاستفهام بجواب واضح قائلاً لنبيه ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد!

﴿اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ الله هو الذي يخلّصكم من كل تلك الظلمات والشدائد. إنه جواب مركوز في عمق الفطرة لا يمكن لأحد أن ينكره أو يتنكّر له. إنه سبحانه القادر على أن يخلّص هذا الإنسان من كل الشدائد والصعوبات مهما كانت شديدة وصعبة بل مهما كانت في منتهى الشدة والصعوبة.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ هذا تقريع لهم وتوبيخ بأنهم مع إقرارهم في تلك الحالات الصعبة بأن الله وحده هو القادر على كشفها عنهم وتخليصهم منها بعد إقرارهم بذلك يعدلون عن هذا الإيمان عندما يخرجون منها ويسلمون من شرها. إنهم مؤمنون في حالات الشدة وكفار في حالات الرّخاء، وهذا من سفه الاعتقاد وضعفه، فالإيمان واحد في الحالتين هكذا يجب أن يكون وعلى هذا يجب أن يستمر.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿ٱلْقَادِرُ﴾: من قدر قدراً ومقدرة على الشيء: قوي عليه.

﴿يَبْعَثَ﴾: يرسل.

﴿يَلْبِسَكُمْ﴾: من اللبس، والمراد يخلط أمركم عليكم خلط: اضطراب واختلاف.

﴿شِيَعًا﴾: فرقاً، جمعه شيعة: وهم كل قوم اتفقوا على أمر واجتمعوا عليه.

﴿وَيُذِيقَ﴾: من الذوق: وهو في أصل وجود الطعم في الفم.

﴿بَأْسَ﴾: البأس: الشدة والمكروه.

﴿نُصَرِّفُ﴾: نصرف الآيات: نحولها من نوع إلى آخر ـ فنون الكلام.

﴿ٱلْـَٔايَٰتِ﴾: المعجزات أو كلام الله الموحى به إلى نبيه.

﴿يَفْقَهُونَ﴾: الفقه: لغة الفهم.

التفسير

اقتضت حكمته جلّت قدرته أن يعالج قضية هذا الإنسان الإيمانية تارة بالترهيب وأخرى بالترغيب، فذكر فيما تقدم أنه قادر على إنجائهم من العذاب وإنقاذهم من الشدائد والصعوبات، وهنا أراد أن يقول لهم أنه أيضاً القادر على إنزال العذاب بهم وإلقائهم في الشدائد والمصائب.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد! لهؤلاء الناس جميعاً المؤمن منهم والكافر.

﴿هُوَ﴾ الله ﴿الْقَادِرُ﴾ المستطيع الذي بيده الأمور ولا يعجزه شيء قادر ﴿عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ إنه سبحانه قادر على أن يرسل عليكم عذاباً عظيماً، ثم بيّن بعض صفات هذا العذاب إنه يأتيكم إذا شئتم.

﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كما هو الحال في عذاب أصحاب الفيل أو قوم لوط.

﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما فعل بقارون حيث خسف به وبداره الأرض، وكما أخذ فرعون بالغرق وغيرهما بالزلازل والهزات.

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ وهذا ثالث العذابات ولعله أشدها وأخطرها، وهو أنه يقسّمكم فرقاً وطوائفاً تختلط أمورهم وتتنازع فيما بينكم تبعاً لأهوائكم فتتقاتلون ويقع السيف بينكم وبذلك تضعف قوتكم وتهون كلمتكم وتصبحون لقمة سائغة لكل طامع.

قال الزجاج في هذه الفقرة: يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق فيجعلكم فرقاً ولا تكونون فرقة واحدة، فإذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم بعضاً وهو معنى قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ انظر نظر اعتبار ودراية وفكر كيف نعدّد الحجج ونقلبها وكيف نخالف فيما بينها تارة بالوعد وأخرى بالوعيد وتارة بالترهيب وأخرى بالترغيب لعلهم يفهمون ذلك ويستدلون به على المطلوب من الإيمان بالله وبمن أرسلهم من الرسل الكرام.

قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

اللغة

﴿قَوْمُكَ﴾: القوم: جماعة الرجال، وفي القرآن استعمل لهم وللنساء، وقومك: جماعتك وعشيرتك.

﴿بِوَكِيلٍ﴾: الوكيل على الشيء: هو القائم بحفظه والمدافع عنه.

﴿نَبَإٍ﴾: النبأ: الخبر ذو الشأن العظيم.

﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾: المستقر: مكان استقرار الشيء أو زمانه.

التفسير

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إن من حق قريش وهم قوم النبي ﷺ وعشيرته أن يفهموا هذا القرآن ويعرفوا أنه من عند الله ولكنهم كذّبوا به وأنكروا أن يكون من عند الله ـ وهو الحق المنزل من عنده ـ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ قل لهم لست مكلفاً بحملكم على ما لا تريدون وليس

مهمتي أن أكرهكم بالقوة على الإيمان إنما أنا رسول الله إليكم أنقل كلامه وأبلّغكم مرامه فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وعلى الإنسان الحر المختار الذي بلغته الدعوة أن يتحمل مسؤولية الرفض أو القبول.

﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ لكل خبر مما أخبر الله به وقت محدّد لا يتأخر عنه وسيقع بمشيئته كما حدّده وسوف تعلمون صدق ذلك عندما يحلّ بكم العذاب.

وهذا تهديد ووعيد لهم لتكذيبهم بالقرآن.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿يَخُوضُونَ﴾: أصل الخوض: الدخول في الماء وهنا استعمل في الدخول بالباطل.

﴿آيَاتِنَا﴾: كلام الله المنزل.

﴿فَأَعْرِضْ﴾: فانصرف.

﴿يُنسِيَنَّكَ﴾: من النسيان: وهو غياب ما كان معلوماً عن الفكر.

﴿فَلَا تَقْعُدْ﴾: فلا تجلس وهنا يراد به عدم الاجتماع.

﴿الذِّكْرَىٰ﴾: التذكير.

﴿وَذَرِ﴾: اترك وابتعد.

﴿لَعِبًا﴾: اللعب: هو العمل الذي لا نفع فيه ولا فائدة.

﴿وَلَهْوًا﴾: اللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه.

﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾: خدعتهم.

﴿تُبْسَلَ﴾: الإبسال: تسليم الإنسان نفسه للهلاك، وأصل البسل: المنع، ومنه أسد باسل: أي يحمي نفسه ويمنعها.

﴿كَسَبَتْ﴾: عملت.

﴿وَلِيٌّ﴾: الولي: الناصر والمعين، والمتولي للأمور.

﴿شَفِيعٌ﴾: الشفيع: صاحب الشفاعة وهو التوسط لإنجاح أمر يريده آخر إمّا بطلب أو تبرعاً وفي الأصل ضم الشيء لمثله ليقوى به.

﴿تَعْدِلْ﴾: تفدي.

﴿عَدْلٍ﴾: فدية.

﴿شَرَابٌ﴾: الشراب: تناول كل مائع ماء كان أو غيره.

﴿حَمِيمٍ﴾: الحميم: الماء الحار جداً.

التفسير

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

هذا الخطاب وإن كان ظاهراً متوجهاً إلى النبي ﷺ ولكن المراد به أمته.

إذا رأيت المشركين يعيبون كلام الله ويستهزئون به كما كانوا يفعلون ذلك نكاية بالمسلمين وإيذاء لهم فيجب أن تخرج من بين جموعهم وتنفرد عنهم ولا

تشاركهم اجتماعهم حتى يعدلوا عن ذلك إلى غيره، من حديث لا تعريض فيه بكلام الله ولا استهزاء.

وطبعاً عندما تنهي الآية المسلمين عن مثل تلك المجالس الباطلة تريد من وراء ذلك احترام الحق وصون كرامة من آمن به وتريد أن تمنع الألسن الساقطة من تناوله بغير حق فلا يتجرّأ أحد على النيل منه أو تشويهه والاعتداء عليه.

إن كل صاحب كرامة إذا رأى من يتطاول على أمر مقدّس عنده! إذا لم يقدر على ردعه وردّه، يقوم من مقامه ويخرج احتجاجاً عليه ورفضاً لمقولته. فالآية تتناول الحق ووجوب صيانته وردّ المعتدين عليه ولو بهذه الطريقة الاحتجاجية الميسرة.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن أنساك الشيطان! النهي عن مجالسة الذين يخوضون بآياتنا فجلست معهم نتيجة أشغال شغلك بها الشيطان عن النهي ثم تذكرت هذا النهي فلا تقعد مع القوم الظالمين أي انهض عن مجالستهم بمجرد أن تتذكر نهي الله لك عن مجالستهم.

وبعبارة قصيرة: إذا جلست مع هؤلاء القوم نتيجة نسيانك النهي فانهض عن مجلسهم واتركهم بمجرد أن تتذكر وعدل إلى الظاهر، وهو قوله: ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بدل أن يقول ﴿مَعَهُمْ﴾ ليشير إلى ظلمهم وتجاوزهم وأنهم أبدلوا التصديق بالتكذيب.

وفي الكافي عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلساً يُعصى الله فيه ولا يقدر على تغيُّره.

وفي كتاب من لا يحضره الفقيه قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصيته لمحمد بن الحنفية: ففرض على السمع أن لا تصغي به إلى المعاصي، فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ ثم استثنى عز وجل موضع النسيان فقال: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة تفيد نفس مضمون الآية.

يبقى أن نشير ونحن في الحديث عن الآية الكريمة: إن أصحابنا الإمامية وما عليه المذهب الحق أن النبي ﷺ معصوم عن الخطأ والنسيان من أول عمره إلى آخره ولذا جعله الله أسوة وقدوة وجعل قوله وفعله وتقريره حجة شرعية وسُنّة يأخذها المسلمون ويعتمدون عليها.

وأما عند غيرنا فلهم تفصيلات مضطربة واجتهادات خاطئة نتيجة بعدهم عن مصدر الوحي وأربابه ومن خوطبوا بالقرآن، فلذا لم يفهموا الكلام ولم يقفوا على الصواب. وإن نبياً يمكن أن ينسى أو يشك أو يخطىء كيف يُطمأن إلى قوله أو فعله وكيف نميز الخطأ من عدم الخطأ؟ ولذا كل خطاب يتوجّه إلى النبي ﷺ ويحمل معه ما يشير إلى نسيانه فهو موجّه إلى أمته أو يكون فرضاً وتقديراً وليس أمراً واقعاً.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

ليس على المتقين الذين يخافون الله ويخشونه إذا جلسوا معهم بقصد ردعهم وردّهم عن غيّهم وتذكيرهم بالصواب والحق، ليس عليهم من حساب يلحقهم أو إثم يدركهم بل الإثم على المفترين الخائضين في الباطل.

فالآية سمحت بمجالسة الذين يخوضون بآيات الله إذا كان الجلوس معهم بقصد تذكيرهم بالله وشدّهم إليه وبيان الحق والصواب وكشف الأمور لعلهم يهتدون، وبذلك يسلمون من العذاب والإساءة وليس عليهم شيء في هذه الحالة.

وقيل إن معنى الآية: أن المؤمنين لا يتحملون إثم الذين يخوضون بآيات الله بل إثمهم يرجع إليهم وعلى المؤمنين نصيحتهم وتذكيرهم بالحق لعلهم يرجعون ويتقون ويعودون إلى الله.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أعرض عمن جعلوا دينهم لهواً ولعباً، أمّا كيف جعلوا دينهم كذلك؟ ففيه أقوال:

منها: أن يصبح الدين نفسه قضية يتسلى بها الإنسان فهو يحرّم ويحلّل ويبيح ويمنع دون ضوابط أو قواعد بل بحسب ما تشتهي نفسه ويرغب هواه فهو كطفل يتلهى ويلعب بالدين.

وقيل: إنه الإنسان الذي يجعل من دينه وسيلة لاصطياد الدنيا فهو يقوم بما يقوم به من عمل من أجل أن يصطاد الدنيا ويفوز بها فيجعل الدين مطيّة للدنيا.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي خدعتهم بزينتها ومظاهرها فراحوا يبيعون الدين بها وبما يشتهون منها.

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

ذكّر بهذا القرآن أو بهذا الدين أولئك الناس لكي يحموا أنفسهم من الهلاك ولكي لا تهلك نفس وتؤخذ بعملها القبيح السيء.

حمّله الله مسؤولية أن يذكّرهم بالقرآن بما فيه صلاحهم ونجاحهم وما يقربهم منه تعالى حتى لا يتمردوا ويعصوا ويقعوا في هلاك أنفسهم ويُرتهنوا لهذه الذنوب التي لا يجدون من يفكهم منها أو يخلصهم من عذابها.

إنها أنفس فقدت كل معين ونصير وكل وسيط وشفيع أمام عذاب الله لأنها فقدت القابلية كي يتدخل أحد فينقذها أو يدفع عنها السوء.

﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ إن تفدِ أو تعطي كل فداء مهما كان غالياً وعالياً لا يقبل منها ولا يقبل عوضاً عن ذنبها.. لقد تعطلت عمليات الفداء والعطاء وما كان يمكن لهذا الإنسان أن يفدي به نفسه.. وبمعنى آخر لا بدّ لهذه النفس أن تؤخذ بذنبها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أولئك الذين حبسوا بأعمالهم وأُسلموا إلى العذاب بسبب جناياتهم ثم بيّن سبحانه كيف أُسلموا، فقال:

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ لقد حُبسوا على تناول

شراب في منتهى الحرارة يقطع الأمعاء وأُدخلوا ناراً يعذبون فيها عذاباً شديداً مؤلماً، وذلك جزاء كفرهم وطغيانهم وما تمردوا به على الله.

لقد اجتمعت عليهم حرارة النار من الخارج وحرارة الشراب الحميم الحار المغلي من الداخل. إن كفرهم أوصلهم إلى هذه النتيجة القاسية المرّة التي حملت العذاب والألم وما لا يقدر الإنسان على تحمّله.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿نُرَدُّ﴾: نرجع ونعود.

﴿أَعْقَابِنَا﴾: جمع عقب: وهو في الأصل مؤخر الرجل، وتقول العرب لمن أحجم بعد إقدام: نكص ورجع وارتدّ ثم صار يطلق على كل تحول مذموم.

﴿ٱسْتَهْوَتْهُ﴾: استغوته: ذهبت بهواه إلى حيث تريد.

﴿حَيْرَانَ﴾: الحيران: التائه الضال عن الجادة ـ المتردد.

﴿أَصْحَٰبٌ﴾: الأصحاب: الأصدقاء الملازمون، ويطلق على كل ملازم إنساناً أو حيواناً أو زماناً.

﴿ٱئْتِنَا﴾: تعالى إلينا وهلمّ نحونا وتابعنا.

﴿لِنُسْلِمَ﴾: لننقاد ونطيع.

﴿تُحْشَرُونَ﴾: تجمعون للحساب.

التفسير

﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا اللَّهُ﴾.

هذه الآية جاءت رداً على محاولة المشركين الذين كانوا يعيشون الطمع في عودة المسلمين عن دينهم إلى دين الشرك، فلذا كانوا يدعونهم إلى الرجوع إلى ما كانوا عليه وكانت المحاولات تتوالى منهم كانوا يقولون لهم: كيف تتركون دين آبائكم وأجدادكم؟! فهيا عودوا إلينا وارجعوا إلى دينكم القديم، فهنا يأمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد! أندعوا أحداً من دون الله وهو لا يملك نفعاً يعود علينا أو يدفع ضرّاً حاق بنا؟ والإنسان بطبعه وبطبيعته لا يلجأ في الدعاء إلاّ لواحدة من هاتين الخصلتين ولا يملكها أحد غير الله فكيف ندعُو غيره وهو لا ينفع ولا يضر كما هي حالة الأصنام والأوثان.

إن دعاء أحدٍ من دون الله ـ وهو لا يملك نفعاً ولا ضراً ـ عودة إلى الكفر وردة قبيحة لا يقدم عليها مَنْ اهتدى إلى الله وعرف عظمته وعظمة ما أنزل من كتب وأرسل من رسل.

ولا يخفى أخيراً أن الاستفهام ﴿أَنَدْعُوا﴾ استفهام إنكاري على اتخاذ الشركاء الذين لا ينفعون ولا يضرون.

﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾.

هذا رفض منهم أن يكونوا مثل الذي أهوت به الشياطين في مفازة صحراء بعيدة ضل خلالها عن هداية باب السلامة والنجاة، ولكن له أصحاب مؤمنون يدعونه إليهم وينادونه أن يصل إلى بر السلامة والأمان الذين هم فيه، فهو يعيش الحيرة والاضطراب ولا يهتدي إلى وجه الحيلة التي يقطع بها الشك والحيرة والتردد.

إن الرجوع إلى الكفر بعد الهداية هي نفس هذه الصورة حيث أن القناعة كل

القناعة في طريق الإيمان والتقوى، وأمّا الرجوع عنه فلا يمثل قناعة ولا اطمئناناً للنفس.

ثم يأتي الأمر الإلهي المؤكد لطريق الإيمان حاسماً القضية في جوهرها لصالح الهدى وطريق الإسلام.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ إن الإسلام الذي نحن عليه والذي نؤمن به هو وحده الهدى دون غيره من الطرق والاتجاهات والعقائد.

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معطوف على ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ قل لهم إنا أمرنا من قبل الله ومن قبل عقولنا وما أقيم لنا من أدلة وحجج وبراهين أن نستسلم لله رب العالمين ونخلص له في عباداتنا وكل توجهاتنا.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ وأمرنا أن نقيم الصلاة وذكر الصلاة من باب ذكر الخاص بعد العام وذكرها سبحانه لأهميتها حيث أنها الصلة بين الله والعبد وبها تتحقق العبودية والاستسلام لله.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ كذلك أمرنا بتقوى الله التي تعني فعل الواجبات وترك المحرمات وأن يعيش الإنسان حالة من الطوارىء التي بها يخاف أن يسقط في المعصية أو ينحرف نحو التمرد، ثم كان التذكير بأن رب العالمين إليه المرجع والمعاد وسيخرج الجميع في يوم القيامة إلى أخذ جزائهم ونيل ما يستحقونه بحسب عقائدهم وأعمالهم وما كانوا يقومون به في دار الدنيا.

إنها النهاية ـ المعاد ـ بعد أن ذكر في ابتداء الآية الإيمان بالله وتوحيده وتوسطهما الأمر بالاستسلام وإقام الصلاة وتقوى الله.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿خَلَقَ﴾: الخلق: أصله التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء.

﴿يُنفَخُ﴾: النفخ: ما يخرج من الفم من الريح بقوة متعمدة.

﴿ٱلصُّورِۚ﴾: القرن الذي ينفخ فيه الملك إسرافيل بأمر الله يوم القيامة فيقوم الناس للحساب.

التفسير

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ بيان لعظمة الله وقدرته، وأن من فيض جوده وقدرته كان خلْقُ السماوات والأرض، فهو سبحانه الذي خلقهما بالحق على طبق القواعد النظامية فلا تجد خللاً فيهما وفيما فيهما بل تجد النظام والترتيب والتنسيق والتكامل ووضع كل صغيرة أو كبيرة في موقعها اللازم لها

وتجد الحكمة المتعالية في جعلها كلها تخدم الغرض التي من أجله كانت ومن أجل وجوده انبثقت.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ واتقوه يوم يتحقق ما يريد بمجرد إرادته ومشيئته وهو يوم القيامة ـ كما هو الظاهر ـ وإن كان يحتمل إرادة إيجاد أصل الأشياء وتحققها بإرادته.

واستعمل سبحانه: ﴿يَقُولُ كُن﴾ على ما هو متعارف عند الناس وقانون الإيجاد والوجود وإلاّ فهو منزه عن الحاجة إلى القول لتستجيب له الأمور فتتحقق بل بإرادته يكون المطلوب.

﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ قوله الحق والواقع وما يجب أن يتدين به الناس، كل أقواله هي عين الحق التي بدونها يكون النقص وبوجودها يكون الكمال.

﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ هو المالك بالحق ولا مالك غيره إلاّ بنحو من المجاز.. هو سبحانه له الملك يملك كل ما هو موجود ويتصرف فيه كما يريد وكما تقتضيه المصلحة التي من أجلها كان إيجاده.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ له الملك يوم ينفخ إسرافيل الملك الموكّل بإيقاظ الناس من موتها وخروجها من قبورها، حيث ورد: أن إسرافيل ينفخ في الصور وهو كالقرن يخرج منه صوت يفيق على إثره كل الموتى ويُخرجون للحساب فالله سبحانه هو الذي يأمر إسرافيل أن ينفخ في الصور.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ فهو سبحانه يعلم ما غاب عن الحواس وما تدركه الحواس وما خفي وغاب وما ظهر وما بطن.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ هو الحكيم في أفعاله يضع الأمور مواضعها وهو الخبير يعلم بدقة متناهية خصوصية كل جزء منها لأنه سبحانه هو خالقها ومكوّنها ومخرجها من كتم العدم إلى ساحة الوجود.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ
فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ
﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾
فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

اللغة

﴿ضَلَٰلٍ﴾: الضلال: ضد الهدى وهو الاعوجاج وعدم الاستقامة.

﴿مُّبِينٍ﴾: ظاهر واضح.

﴿مَلَكُوتَ﴾: مُلك والتاء فيه للمبالغة.

﴿ٱلْمُوقِنِينَ﴾: المصدّقين، واليقين: هو الجزم بالشيء مع عدم احتمال الخلاف وهو حالة نفسية لا يبقى لأضدادها أثر.

﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾: أسدل سِترهُ أي أخذ حدّه في الظلمة.

﴿كَوْكَبًا﴾: نجماً مضيئاً.

﴿أَفَلَ﴾: غاب.

﴿بَازِغًا﴾: طالعاً.

﴿بَرِيٓءٌ﴾: منزّه من تهمة الشرك.

﴿وَجَّهْتُ﴾: توجّه إليه، أقبل وقصد.

﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: خلقهما لا على مثال سابق.

﴿حَنِيفًا﴾: مائلاً عن الشرك والكفر إلى عبادة الله.

التفسير

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٧٤)﴾.

في هذه الآيات الكريمة استعراض جليّ لمسيرة بطل التوحيد نبي الله إبراهيم الخليل حيث استعرض حواره مع أبيه وحواره مع قومه وحواره مع ملك زمانه وغير ذلك مما يمرّ من حوارات.

ولا يخفي أن ما استدل به إبراهيم عليه السلام وحاور فيه.. هي حجج صالحة لكل زمان ومكان ويمكن أن يدركها بيسر وبسهولة عامة الناس كما أن أهل الفكر وأرباب التدقيق الذين إذا غاصوا إلى عمقها يدركون أهميتها وأهمية ما تستطيع إثباته من خلالها.

وأيضاً يجب أن نتذكر أن إبراهيم عليه السلام نبي عظيم أجمعت كل الديانات والمذاهب على النظر إليه بإجلال واحترام وإكبار ولم يختلف أحد في عظمته وكرامته وبما فيهم العرب، فالاحتجاج بما احتج به يكون له أهميته وأثره في نفوس الناس عامة.

الآية الكريمة تتحدث عن فصل قصير موجز وهو موقف إبراهيم عليه السلام من أبيه (عمه) آزر.

إن قوم آزر كانوا يعبدون أصناماً تنحتها أيديهم ويصنعها جهلهم ثم يتوجهون إليها بالعبادة والتقديس فيرى إبراهيم هذا المشهد فيستخفّ عقل من يتوجّه إلى هذه الآلهة المصطنعة وينعي عليهم عبادتهم لها.

إن إبراهيم عليه السلام يرى (آزر) وقومه الذين معه في ضلال وعلى غير هدى أو طريق مستقيم، لأن العقول السليمة ترفض عبادة شيء تصنعه أيديها، وهي أيضاً لا تملك نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا نشوراً.. إن اليد التي صنعتها خير وأفضل منها لأنها متحركة، ومن حرّكها؟ عاقل! أما هي فإنها جماد فاقدة الحركة لا تملك الدفاع عن نفسها إذا أراد بها أحد شراً، فكيف تحقق آمال الآخرين أو تدفع السوء عنهم؟!

إن من الضلال الواضح الظاهر عبادة الأوثان والأصنام واتخاذها آلهة، والآية واضحة الدلالة لا غبار عليها.

نعم هناك إشكال مفاده: كيف توفّقون بين هذه الآية التي تقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ التي مفادها أن أبا إبراهيم (واسمه آزر) كان يعبد الأصنام مع قولكم أن آباء الأنبياء موحّدون ظاهرون عن كل كفر أو شرك.

والجواب باختصار: أن الأب يطلق على الأب الصلبي وهذا هو الأظهر في الاستعمال ويمكن أن تكون عليه أكثر المحاورات، ولكن لفظة الأب قد تستعمل في معنى آخر وهو «العم» وعليه وردت الآية الكريمة التي تحكي كلام أولاد يعقوب حيث قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾[1] ومعلوم أن إسماعيل كان عمّاً ليعقوب وقد أطلق عليه لفظ الأب فلا مانع أن يكون «آزر» عم إبراهيم خصوصاً مع قيام القرينة المتفق عليها من وجوب كون آباء الأنبياء موحّدون غير مشركين.

وأيضاً مما يساعد على ذلك أن إبراهيم دعا لأبيه في آخر أيامه بعد بناء الكعبة

(١) البقرة/ ١٣٣.

واستغفر له كما استغفر لنفسه وللمؤمنين بقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾[1] فقد استعمل في الدعاء كلمة ﴿وَٰلِدَيَّ﴾ التي هي نصّ في الوالد الصلبي وللفرق بينها وبين الأب الذي سفّهه فيما يعبده ويذهب إليه في الآية محل البحث.

وهناك محاولات غير هذه المحاولة كلها تهدف إلى تبرئة والد إبراهيم من الشرك تبعاً لما هو ثابت من أن آباء الأنبياء حنفاء غير مشركين ولا نرى من الأهمية ما يوجب استعراضها وفيما مرّ كفاية.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾.

كما أرينا إبراهيم ضلال قومه وسفه ما هم عليه من عبادة الأصنام واتخاذهم لها آلهة كذلك نريه ملك الله المتأصل في خلق السماوات والأرض حيث تستدل بهما على عظيم شأنه وكمال قدرته ودقة صنعه وما هي فيه من تنظيم وترتيب وتنسيق بحيث يكشف ذلك عن صانع خالق حكيم خبير عليم هو الذي تولى صنع ذلك، وبهذا يحصل لإبراهيم اليقين بربوبية الله ووحدانيته وقدرته وملكه. وفي الروايات أن الله كشف له عن بصره فأراه عجائب سلطان الله وما في أعالي السموات وما في أعماق الأرض.

وعلى كل حال.. سواء كانت الرؤية فكرية نظرية كما هو الأقرب أو كانت الرؤية بصرية فإن المقصود أن بتلك الرؤية تكشّفت الحقائق لإبراهيم وجعلته من الموقنين.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ أراد إبراهيم عليه السلام أن يبطل عبادة قومه للكواكب ويبيّن لهم سفه توجّههم إليها فكانت هذه الحجة منه عليهم بتعليم الله كما قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾. فهي حجة علمها الله سبحانه لنبيه إبراهيم كي يحتج بها على قومه، وهي افتراض نفسه كأنه واحد

---

(١) إبراهيم/ ٤١.

منهم ثم يطرح على نفسه القضية ويستدل ببعض نقصها على سقوطها وعدم صحة كونها آلهة تعبد من دون الله.

إنه الليل يسدل ستره فيختفي النهار وضوءه وهناك في جنح الظلام يسطع كوكب بنوره فيلفت نظر إبراهيم ـ افتراضاً ـ فينطلق إبراهيم ليقول لهؤلاء القوم الذين يعبدونه ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ مجاراة لهم وسيراً مع ما يذهبون إليه في عقيدتهم ولكن الأمر لم يطل! فالربّ يجب أن يبقى مشرفاً على المربوب، والربّ يجب أن يبقى قريباً من المربوب، والربّ يجب أن لا يعرض عليه ما يضعفه أو يسقطه. نعم ما هو إلا وقت يسير وإذا به يأفل ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ غاب عن الأنظار وتوارى عن الأبصار لقد طرأت عليه الحركة وهي دليل إمكان وحاجة ودليل فقر وعوز والله لا يكون كذلك وليس من خواصّه ذلك.

فلما رأى إبراهيم أفول ذلك النجم «الزهرة» ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ لا أحب عبادة نجم يغيب ويتركني بدون عناية أو نظر. إن رباً يغيب ليس برب لأن أفوله دليل حدوثه وإمكانه، وأما حركته فدليل قصوره وعجزه ولا أحب مثله حبَّ رب أطلبه وأتوجه إليه. وانطوت هذه المرحلة وتبيّن من خلالها سفه من يتوجه إلى ذلك الكوكب بالعبادة وبطلان عقيدتهم فيه.

عدل إبراهيم إلى قوم آخرين يعبدون القمر وهؤلاء في الضلال كسابقيهم ممن عبد الكوكب ـ الزهرة ـ وقف إبراهيم بينهم ونزّل نفسه منزلتهم ـ افتراضاً.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي طالعاً بأجمل صورة وأبهى طلْعة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ مراعاة لهم وتنزيلاً لنفسه منزلتهم كي يستمعوا له ويقبلوا قوله فيرجعوا إلى أنفسهم ويروا خطأ ما هم عليه.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ ما هو إلا وقت قصير فإذا بالقمر يأفل ويغيب إنه يختفي، تأخذه حركة الكون وتسيّره طبق قواعد وضعها الله له ولغيره من الأجرام والكواكب عندها يصرخ إبراهيم في نفسه ولنفسه مسمعاً قومه ومريداً لهم من وراء هذه الصرخة.

إنه يصرخ ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ إنه يلفت أنظارهم إلى ضلالهم فيما هم فيه من عبادة القمر. إنه يرجع إلى الله ويطلب منه الهداية وأن يفتح أمامه أبوابها حتى يلجها ويعود باليقين والحقيقة الصافية.

إن عناية الله إذا افتقدها أحد لم يكن بمقدوره الوصول إلى شيء من الحقيقة أو بلوغ المرام الصحيح. إنه يتخبط بدون جدوى أو كثير نفع ويبقى هكذا في ضلال فلذا يطلب من ربه المدد والعون والهداية حتى يطرق أبواب الحقيقة ويصل إليها وإلاّ كان مثل قومه الضالين.

وما أن ينتهي هذا المشهد حتى ينفتح أمامه مشهد آخر، فهناك قوم يعبدون الشمس ويتوجهون إليها ويتقربون منها ويقوم إبراهيم بنفس الطريقة حيث يتم استعراض الشمس كإله ثم يتم رفضها كذلك لأنها تغيب.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ إنها محاولة أخيرة على قوم يعبدون الشمس. إن الشمس جرمها أكبر للناظرين وضوءها يلمع وتكشف بنورها ظلام الليل. إنها خرجت من وراء الأفق فأيقظت الأحياء من بشر وحيوان وكل طائر وسابح ومتحرك. إنها كشفت بضوئها الأمور فلعلها تكون هي الرب، وطرح إبراهيم على نفسه القضية.

﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ مما تقدمه من النجوم والقمر وغيرهما.. ولكن لم يطل الوقت وإذا بالشمس تغيب وتحتجب ويلقى الظلام سدوله ويصاب إبراهيم - والمراد أن يلفت نظر قومه - بخيبة أمل.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ غابت الشمس، أعلن إبراهيم براءته مما يعبد قومه.. أعلنها ليسمعها قومه ويتنبهوا إلى خطأ ما هم فيه وما هم عليه.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ إنه عليه السلام أعلن براءته مما هم فيه من شرك... البراءة من الشركاء الذين اتخذوهم مع الله وتوجهوا إليهم بالعبادة.

إنه الهدم - أولاً - لما هم عليه من عقيدة فاسدة لم يساعد عليها الدليل ولم يقم عليها برهان بل العكس هو الصحيح، فقد قام الدليل والبرهان على بطلانها

وزيفها وسخافة من يذهب إليها، ثم أعلن الحقيقة التي آمن بها والتي على قومه أن يؤمنوا بها.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

إني أسلمت نيتي وانقطعت فيها وفي عبادتي إلى خالق السموات والأرض ومنشؤهما من اللاشيء موحداً لله غير مشرك به غيره من الأصنام والأوثان، ولا متخذاً معه إلهاً آخر.

وتعبير ﴿وَجْهِيَ﴾ دون التعبير بغيره من الأعضاء لأن الوجه أول ما يظهر للعيان وينكشف للرائي.

وتعبير ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إشارة إلى السبب الدافع إلى توجيه الوجه وأنه سبحانه خلقهما ابتداءً على غير مثال يحتذى وأن بهما يستدل على عظمة خالقهما وإثبات وجوده.

وإذا كان الحنيف هو المائل عن عبادة الشرك إلى التوحيد فيكون قوله بعده: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيداً له وقاطعاً لكل احتمال غير هذا.

قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿وَحَآجَّهُۥ﴾: جادله وخاصمه.

﴿قَوْمُهُۥ﴾: جماعته.

﴿سُلْطَٰنًاۚ﴾: حجة قاطعة وبرهاناً نافذاً.

﴿ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾: الجماعتين، والفريق: الجماعة المتفرقة عن آخرين.

﴿أَحَقُّ﴾: أجدر وأولى.

﴿ٱلْأَمْنِ﴾: عدم الخوف.

﴿يَلْبِسُوٓا۟﴾: يخلطوا، يقال: لبَس الأمر: خلطه.

﴿حُجَّتُنَآ﴾: الحجة: البرهان والدليل الذي يحتج به ويثبت به المطلوب.

التفسير

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ خاصموه، أي قوم إبراهيم، وجادلوه فيما جاء به وما نعى به عليهم. إنهم لم يسكتوا له بل حاوروه ولم يذكر القرآن حوارهم معه وجدالهم له، ولكن يبدو من السياق أنهم خوّفوه من آلهتهم أن تؤذيه أو تبطش به! وجادلوه في تركه للأصنام والتوجه إلى الله.

﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ أنتم تخاصمونني في الله وفي وحدانيته وقد هداني سبحانه إلى الإيمان به وتوحيده، فهي عنايته التي وفقتني للوصول إلى ما وصلت إليه.

﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ وهذا رد عليهم وعلى ما خوفوه به من آلهتهم فإنه نفى خوفه منها، إلاّ أن يشاء الله فيعود الأمر إليه وحده وليس إليهم. إن هذه الأصنام ضعيفة سخيفة لا أخشى منها ولا أخافها، بل الله وحده أخشى وأخاف، هو وحده إذا أراد بي ضرراً أو أذى يحصل مثل ذلك بمشيئته وإرادته دون مشيئة هذه الأصنام وإرادتها.

﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ عِلْمُ ربي أحاط بكل شيء وهو العالم بكل دقائق الأمور وجليلها، لا يغيب عن علمه ذرة في السماوات ولا في الأرض.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ذلك وتقفون عليه وتفكرون فيه وتميزون بين من تحق له الألوهية المطلقة لقدرته وعلمه وإحاطته بالأشياء، ممن هو ضعيف عاجز مقهور لا يملك نفعاً ولا ضراً ولا حياة ولا موتاً.

والاستفهام للإنكار عليهم والتوبيخ لهم وأن من حقهم أن يفكروا ويقيدوا النظر فيما يعتقدونه ويذهبون إليه من آلهة مصطنعة ضعيفة سخيفة وأنه يجب أن

يرجعوا في عقيدتهم إلى الله الواحد الأحد المالك القادر القاهر العزيز الجبار الرحمٰن الرحيم.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ أنكر عليهم أن يخاف من أصنامهم التي جعلوها شركاء مع الله، وكيف يخاف من جمادات فاقد الروح والحياة وهي لا تضر ولا تنفع؟! جعلوها شريكة لله يتقربون إليها بالعبادة والزلفى. إنه إنكار عليهم أن يدخل الخوف قلبه من هذه الأصنام التي أشركوها مع الله...

﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ كيف أنا أخاف ما أشركتم وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله غيره من الأصنام والأوثان الفاقدة للحياة العديمة الحركة التي لم تنهض برهان ولم تقم حجة على أنها تستحق الذكر فضلاً عن إشراكها مع الله وجعلها ذات حصة في القرار والعبادة والتوجه.

أنتم لا تخافون إشراك هذه الأصنام مع الله مع أنه لم يقم برهان أو دليل على أنها شريكة له أو تستحق العبادة، فأنتم أشركتموها معه اعتباطاً واشتهاءاً وتبعاً للتقليد واتباعاً للهوى.

وبعبارة مختصرة: يريد إبراهيم عليه السلام أن يقول لقومه تخوفونني بما لا يخاف منه وهي الأصنام الجامدة. ومن حقي أن لا أخاف بينما أنتم لا تخافون الله وحقكم أن تخافوه، لأنه الواحد الخالق الذي بيده الأمور تشركون معه غيره وفي ذلك كفر وشرك وهذا هو الذي يجب أن يخاف منه العاقل لأن وراء ذلك عذاب أليم.

﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي الفريقين نحن أم أنتم أحق وأجدر أن يبحث عن الأمن من عذاب الله وعقابه ويكون في مأمن من هذا الخوف؟ إن كنتم تعلمون مواقع الخوف ومواقع الأمن، وحق لكم أن تعرفوها وتميزوا بينها.

شتان ما بين فريقين، فريق موحّد قامت الأدلة والبراهين عنده على الله

ووحدانيته، وبين فريق لم يقم برهان أو دليل على الشرك! ومع ذلك ذهب إليه وتبناه واعتقد به. يا ترى! أيهما يأمن العذاب فيما بعد وأيهما يأمن العقاب المترتب على الإيمان بكل منهما؟

وأمّا قوله: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ لئلا تأخذهم العصبية ويترفعون عن سماع الخطاب.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ هذا هو الفريق الآمن يوم القيامة. إنه فريق ذو مواصفات عزيزة. إنهم الذين آمنوا بالله وحده وصفّوه من الشرك فلم يتخذوا مع الله آلهة إنهم الآمنون من الخوف والمهتدون إلى العقيدة الصحيحة والطريق المستقيم.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ما تقدم من الحجج والأدلة والبراهين هي من عطاء الله، أعطاها سبحانه لإبراهيم ولقّنه إياها ليقيمها على قومه كي يدفع بها عقائدهم ويُسقط من خلالها أفكارهم وينسف أهواءهم. إنه عطاء الله لإبراهيم أقامه أدلة واضحة جلية من أفول الكواكب والقمر والشمس وكيف ابتدأ يندرج من الصغير إلى الكبير حتى أثبت بطلان معتقداتهم، وفي المقابل أثبت توحيد الله ونفى أن يكون له شركاء معه يستحقون العبادة والتوجه.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ ترتفع الناس بعضها على بعض بما أعطاها الله من العلم والمعرفة والنبوة وبما تملك من الحجج والبراهين والأدلة، فتتفاوت الدرجات لتفاوت الإيمان والمعلومات، كما قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ إن ربك حكيم يضع الأمور في مواضعها يرفع من يشاء ويضع من يشاء حسب استعداد الشخص وما يتمتع به من لياقات ومؤهلات.

﴿عَلِيمٌ﴾ في مواقع الأمور بعلمه يرفع وبعلمه يضع.

---

(١) المجادلة/١١.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿وَوَهَبْنَا﴾: الوهبة: العطية والمنحة.

﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾: ذرية الرجل: أولاده ونسله من بعده.

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: جمع محسن: وهو من الإحسان الذي يعني معنى فوق العدل وهو أن يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له.

﴿ءَابَآئِهِمْ﴾: الآباء: هم من ولدكم.

﴿إِخْوَٰنِهِمْ﴾: الإخوان: جمع أخ: وهو المشارك لآخر في الولادة ويستعمل في كل مشارك لغيره في القبيلة أو الدين أو الصنعة أو المودة أو غيرها.

﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾: اصطفيناهم واخترناهم.

﴿صِرَٰطٍ﴾: طريق.

﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: المستقيم: هو الذي لا اعوجاج فيه.

التفسير

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ لقد وقف خليل الرحمٰن موقف المحامي والمدافع عن عقيدة التوحيد وخاض الغمرات من أجل أن يثبت صحة هذه العقيدة وسفه الشرك وضلال المشركين، فشكر الله له هذه المساعي وقدّر له هذه التضحيات فمنّ عليه بالعطايا وأغدق عليه بالنعم.

وهنا في هذه الآية يعدّد الله نعمه على إبراهيم كي يؤدي شكره ولكي يعتبر العقلاء بأن ما يبذله الإنسان في سبيل الحق إذا كان بحق وصدق، فإن الله لن يُضع أجره ولن يُذهب بثواب عمله، بل يعوّضه عنه أضعافاً مضاعفة في الدنيا والآخرة.

إنها منحة إلهيّة وهديّة ربانية حيث رزق الله إبراهيم إسحاق وبعد إسحاق يعقوب إنها الذرية التي تحمل اسم أبيها وتكمل الشوط بعده.

إن الولد يعيد شخصية أبيه ويلبس ثوبه ويقتفي أثره وخصوصاً إذا كان من أهل الهدى.

﴿كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ حيث توجهت عناية الله إليهما فكانت الاستقامة لهما وكان الإيمان وكان الفضل الأكبر ألا وهي النبوة.

وخصّ سبحانه إسحاق لأنه من سارة وقد كانت عقيماً فكانت ولادته أعظم من ولادة إسماعيل، وذكر يعقوب بشارة لإسحاق بأنه سيولد له هذا المولود.

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ فكما كان لله على إبراهيم من النعم في الذرية، كذلك نِعَمه تتراءى في كونه من آباء أنبياء طاهرين حيث تولّد من شيخ المرسلين نوح الذي خصّه الله بالهداية والاستقامة والنبوة، فالآباء أنبياء والأبناء أنبياء وهل هناك أعظم من هذه النعمة إذا التقت أصلاً وفرعاً في إبراهيم نفسه فكان أيضاً نبياً فاكتملت النعمة وتمت بهذا العطاء الإلهي الواسع!

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ والضمير في ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ قالوا إنه عائد إلى نوح لقربه منه ولكن بما أن الحديث عن إبراهيم عليه السلام وتعداد نعم الله عليه فالأظهر إن لم يكن المتعين أنه يرجع إلى إبراهيم.

وهنا يذكر الله من باب تعداد نعمه على إبراهيم جملة من الأنبياء الذين كانوا من ذريته وخلفاً له من بعده وهم:

﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ذكرهم سبحانه على استقلال لعله لأجل أنهم أنبياء ومع النبوة أعطوا السلطة والحكم، فجمع الله لهما النبوة والحكم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى أن الله جزاهم بالحسنى نتيجة لفعلهم الطيّب الذي قاموا به، هكذا قال بعضهم.

وقال آخر: ذكر سبحانه داود وسليمان لأنهما أنبياء ملوك، وذكر أيوب ويوسف لأنهما أُمتحنا بالشدائد، وذكر سبحانه موسى وهارون لأنهما شقيقان وقدّم موسى لأنه كليم الله.

وسواء صح ذلك أم لم يصح، فالله سبحانه يذكر نعمه على إبراهيم، ومنها هؤلاء الأنبياء الكرام الذين كانوا من ذريته وقد أعطاهم له جزاء إحسانه وأعماله الطيبة ودفاعه عن التوحيد وإنقاذه للناس من الجاهلية والضلال.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ذكر سبحانه هؤلاء الأنبياء الأربعة أيضاً من باب تعداد نعمه على إبراهيم، وأيضاً قال بعضهم: إنه سبحانه أفردهم في مجموعة واحدة لأنهم أهل زهد وإعراض عن الدنيا.

وذكر الرازي في تفسيره الكبير ما نصه «الآية تدل على أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله لأن الله تعالى جعل عيسى من ذرية إبراهيم مع أنه لا ينتسب إلى إبراهيم إلاّ بالأم، فكذلك الحسن والحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن انتسبا إلى رسول الله بالأم وجب كونهما من ذريته، ويقال: إن أبا جعفر الباقر عليه السلام استدل بهذه الآية عند الحجاج بن يوسف.. انتهى...).

وفي مستدرك الصحيحين روى[١] بسنده عن عاصم بن بهدلة قال: اجتمعوا عند الحجاج فذكر الحسين بن علي عليه السلام فقال الحجاج: لم يكن من ذرية النبي ﷺ وعنده يحيى بن يعمر، فقال له: كذبت أيها الأمير! فقال: لتأتيني على ما قلت ببيّنة ومصداق من كتاب الله عز وجل أو لأقتلنك قتلاً فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ فأخبر الله عز وجل أن عيسى من ذرية آدم بأمه والحسين بن علي عليه السلام من ذرية محمد ﷺ بأمه. قال صدقت فما حملك على تكذيبي في مجلسي قال: ما أخذ الله على الأنبياء ليبيننه للناس ولا يكتمونه قال الله عز وجل: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال: فنفاه إلى خراسان.. انتهى.

أقول وكان النبي ينادي الحسن والحسين بابني! ويقول كما في مستدرك الصحيحين الحسن والحسين ابناي من أحبهما أحبني ومن أحبني أحبه الله ومن أحبه الله أدخله الله الجنة ومن أبغضهما أبغضني ومن أبغضني أبغضه الله ومن أبغضه الله أدخله النار.

وفي صحيح البخاري ينقل في باب الصلح عن النبي ﷺ ما نصه: أن ابني هذا ـ يعني الحسن ـ سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ـ ورواه البخاري أيضاً في كتاب بدء الخلق في باب علامات النبوة.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ فهؤلاء الأربعة فضّلهم الله على عالمي زمانهم بالنبوة.

وقال بعضهم: إن هؤلاء الأربعة العظام ذكرهم سبحانه على انفراد لأنهم أصحاب رسالات بين الأمم والشعوب فكانوا سفراء متجولين في سبيل الدعوة وهداية الناس.

---

(١) نقلاً عن كتاب فضائل الخمسة من الصحاح الستة للفيروزآبادي.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ وهذه أيضاً من نعم الله على إبراهيم إنه سبحانه جعل الهداية والصلاح والإحسان ليس فيمن عدّد من الأنبياء فحسب بل أيضاً من آباء هؤلاء الأنبياء وأولادهم وإخوانهم منهم الأنبياء والصالحون فالنعم عليه متتابعة متلاحقة ولم تقتصر على من ذكرهم من الأنبياء.

﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ اختارهم واصطفاهم إلى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه وهي النبوة التي هي منتهى الاجتباء والهداية وقمة الاستقامة على الصراط.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿حَبِطَ﴾: بطل.

﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾: أعطيناهم.

﴿ٱلْحُكْمَ﴾: القضاء وفصل الأمور، أو الحكمة.

﴿يَكْفُرْ﴾: يجحد وينكر.

﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾: من الوكيل على الشيء: هو القائم بحفظه والمدافع عنه.

﴿قَوْمًا﴾: جماعة.

﴿ٱقْتَدِهْ﴾: الاقتداء: المتابعة واقتفاء الأثر.

﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾: لا أطلب منكم.

﴿أَجْرًا﴾: ما يعطى مقابل العمل.

﴿ذِكْرَىٰ﴾: موعظة.

التفسير

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ ذلك إشارة هدايته تعالى لهم إلى صراطه المستقيم أو إلى ما أنعم الله به على الأنبياء المتقدمين من النبوة وهدايتهم إلى التوحيد وجعل بعضهم محسنين وبعضهم صالحين وبعضهم فضّله على العالمين.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي يوفّق إليه من يكون عنده القابلية فيكون محطاً لنظرة إلهية ترفعه إلى مقام النبوة أو الإخلاص وعدم الشرك.

ثم بين سبحانه قانونه الإلهي الذي يحكم به جميع البشر دون استثناء حتى هؤلاء الأنبياء، فقال:

﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ولو أشرك هؤلاء الأنبياء واتخذوا مع الله آلهة أخرى يتوجهون إليهم بالعبادة ويدينون لهم بالطاعة لبطلت أعمالهم وسقطت عن الاعتبار مع علو شأنهم وجلالة قدرهم - والمسألة فرضية وفرض المحال ليس بمحال - فهذا القانون يحكم الناس جميعاً وهو يُضرب لزيادة الترهيب وعظمة الشرك وأهميته حيث أن الكبير تبطل أعماله مع جلالته وقربه فكيف بسائر الناس.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الأنبياء الذين تقدّم ذكرهم، وبيّن تعدادهم وأنهم الذين أعطاهم الكتاب تنزيلاً عليهم أو تفهيماً لهم - والمقصود جنس الكتاب إذ بعضهم لم ينزل عليه كتاب.

﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ القضاء وفصل الخصومة على قواعد الشريعة وقوانينها أو الحكمة التي تعني معرفة كنه الأشياء وأسرارها.

﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ وهي السفارة الإلهية بين الله وبين البشر ينقلون إليهم مرادات الله وأوامره.

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ وهذه بشرى سارة يزفّها الله إلى نبيه ويخبره: بأن رسالته ستعلو وسترتفع ولا يأتي الزمان إلا وقد انتشرت في آفاق الأرض يحملها الأمناء الأتقياء من المختارين لحملها من قِبل الله عز وجل.

إن كفر بها هؤلاء أهل مكة أو قريش أو من كفر في زمانه فإن الله سيوفر جماعة مؤمنة تحملها وتعمل بها وتنقلها إلى العالم أجمع.

وقد اختلف في المراد بقوله: ﴿وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ من هم؟ فقيل: هم المهاجرون والأنصار وهو الأقرب.

وقيل: هم الفرس، وقيل غير ذلك.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أولئك إشارة إلى الأنبياء الذي تقدم ذكرهم، فإنهم الذين هداهم الله إليه وإلى طريقه المستقيم وإلى شرائعه المنزلة من قبله إليهم.

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ بطريقتهم التي كانوا عليها وتبنوها من الدعوة إلى التوحيد والصبر على الأذى والحلم والإناة، فهم أهل هدى ومنهم يؤخذ الهدى فمن اقتدى بهم فقد اهتدى.

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ قل يا محمد لقومك لا أسألكم على تبليغ القرآن وبيانه جعلاً قليلاً أو كثيراً، بل أنا كما كان الأنبياء قبلي نطلب رضى الله وثوابه وأجره ورفيع الدرجات عنده إن هذا القرآن ما هو إلاّ موعظة يتعظ بها أهل الأرض جميعاً من الإنس والجن.

وهذه الآية يجب أن يقتدي بها العلماء وأهل الدين الذين يحملون هموم تبليغه ونشر تعاليمه، يجب أن يكون همّهم إيصال الحقيقة إلى الناس وبيانها لهم وينظروا إلى القلوب ومدى تأثرها وتفاعلها ولا ينظروا إلى الجيوب وما فيها.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾: يقال: قدرت الشيء: إذا عرفت مقداره ـ والمراد هنا ما عرفوا الله حق معرفته.

﴿بَشَرٍ﴾: البشر: الإنسان.

﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾: المقصود به التوراة.

﴿قَرَاطِيسَ﴾: جمع قرطاس: وهو ما يكتب فيه من ورق أو غيره.

﴿تُبْدُونَهَا﴾: تظهرونها.

﴿تُخْفُونَ﴾: تسترون.

﴿ذَرْهُمْ﴾: اتركهم ودعهم.

﴿خَوْضِهِمْ﴾: أصل الخوض: الدخول في الماء ثم استعمل في الباطل.

التفسير

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ هذه الآية على الأظهر إن لم يكن المتعين أنها نازلة في اليهود ـ أو بعضهم على الأقل ـ الذين أرادوا أن ينكروا رسالة النبي ﷺ ونزول الوحي عليه بإنكار أصل نزول كلام من الله على أحد من البشر بما فيهم موسى نبيهم. إنها طريقة العناد التي ترفض من خلالها المسلّمات لرفض ما يترتب عليها وينطبق عليهم المثل «عليّ وعلى أعدائي يا رب» يرفضون ما عندهم من أجل أن يرفضوا ما عند غيرهم.

والآية الكريمة تزري عليهم تقصيرهم وترميهم بما هم فيه من حيث أن قولهم هذا يكشف عن أنهم لم يعرفوا الله حق معرفته ولم يعظموه حق عظمته. إنه قول يكشف عن نقص فاضح في معرفتهم وفي فكرهم، ما عرفوا الله حق معرفته.

﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ لأن من عرف الله عرف أن له رسلاً أرسلهم إلى الناس وأمرهم بتبليغ كلامه إذ أن العقول تحكم بوجوب البعثة التي على أساسها يتم تنظيم حياة هذا الإنسان ورسم الحقول التي يجب أن يتحرك خلالها من أجل أن يتكامل ويبلغ المرتقى الذي أراده الله له من خلال وجوده في الدنيا فمن جهل ذلك جهل الله ولم يعرفه حق معرفته اللازمة عليه.

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ هذا نقض لكلامهم الذي أنكروا فيه نزول القرآن على النبي أو يكون الله قد أنزل شيئاً على أحد.

إنكم تقرّون وتعترفون أن الله أنزل التوراة على موسى فكيف يحجب عن محمد كلامه ولا ينزله عليه وهو بشر مثل موسى، والاستفهام للتبكيت والتوبيخ.

قل لهم يا محمد! من أنزل الكتاب ـ وهو التوراة ـ الذي جاء به موسى عليه السلام فإن المعلوم عندهم والمقطوع به أن الله أنزله على موسى فكذلك أنزل كلامه على محمد ثم وصف التوراة ـ التي هي كلام الله قبل التحريف ـ

بالنور المضيء بنفسه والمنير الدرب لغيره كما وصفه بالهدى لأنه يأخذ بيد العامل به إلى طريق الله المستقيم ودربه الواضح الموصل إلى مراده.

﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ هذا كشف عن عمل قبيح يستخدمه اليهود ويعملون به إنهم يكتبون التوراة في أوراق متناثرة وعلى قراطيس مبعثرة مفرّقة يبدون بعضها مما يخدم أغراضهم ويخفون بعضها الآخر إذا كان فيه حجة عليهم.

إنه أسلوب غادر ومحتال محترف. إنه المكر اليهودي الذي درجوا عليه في إخفاء نور محمد ﷺ وصفاته التي وردت في التوراة لكي لا يؤمن به أحد أو يستجيب لندائه مستجيب.

﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ وعلمكم الله بما أنزل على أنبيائكم من كتب إلهية، فيها تنظيم الحياة وتنسيقها وفيها ما لا تدركه العقول، علمكم الله ما لم تعلموا ـ ما لا تدركونه بمقدرتكم وعقولكم القاصرة ـ أنتم ولا آباؤكم ـ وهذا أيضاً حجة عليهم، فإن ما عندهم من علوم وآثار بتعليم الله التي كانوا يجهلونها هم وآباؤهم.

ثم ردّ عليهم كلا القولين بـ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إنه الجواب عن قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾.

وهو جواب واضح معروف، فلذا يختصر بعبارة قصيرة ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾.

﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ قل كلمة الحق الواضحة الصريحة ثم اتركهم في باطلهم الذي هم فيه يلعبون كالأطفال حيث يتلهون بأقوال فارغة لا أثر لها عند العقلاء والمفكرين وأرباب الحق والدين وهذا الكلام تهديد لهم وتنديد بهم وفيه إرشاد إلى النبي أن لا يلتفت إليهم كثيراً أو يهتم بافتراءاتهم بل يتجاوز عنهم إلى ما كلّفه الله به وألقاه عليه من المهام العظيمة.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ
حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ
ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿مُبَارَكٌ﴾: كثير البركة، والبركة: الزيادة.

﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أمامه، والمقصود به التوراة.

﴿لِتُنذِرَ﴾: الإنذار: هو إخبار مع تخويف.

﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾: مكة.

﴿يُحَافِظُونَ﴾: المحافظة على الشيء: تفقّده وتعهده ورعايته.

﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: اختلق الكذب.

﴿أُوحِىَ﴾: الوحي: هو إلقاء الكلام خفية، ووحي الله: ما يلقيه إلى الأنبياء أو ما يلهم بعض عباده.

﴿غَمَرَٰتِ﴾: واحدها غمرة: وهي الشدة، ﴿غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾: سكراته وشدائده.

﴿بَاسِطُوٓاْ﴾: البسط: الضرب.

﴿أَخْرِجُوٓاْ﴾: أمر بفصل الروح عن البدن وانتزاعها منها.

﴿تُجْزَوْنَ﴾: تكافؤون وهو ما يعطى مقابل الفعل.

﴿ٱلْهُونِ﴾: الهوان والذل.

﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾: الاستكبار والتكبر: أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره نتيجة إعجابه بنفسه.

التفسير

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ بعد أن ذكر سبحانه فيما تقدم أنه أنزل التوراة على موسى ولم يكن ذلك الأمر إلاّ على القواعد المشروعة في بعثة الأنبياء وإنزال الكتب، ذكر هنا القرآن وأنه أنزله الله من عنده على قلب محمد ﷺ ـ كما أنزل التوراة ـ ووصفه سبحانه بقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾ من حيث يقدّم الحلول ويرسم برامج الحياة السعيدة. إنه مبارك بما يستفيد منه العامل بتعاليمه وينتفع من تشريعه ويكفي أنه أحيا أمة وما قرأه فرد إلاّ وزاده إيماناً وتقى وعلماً وعملاً وأخذ بيده إلى التحرّر والعز والكرامة وما عملت به أمة إلاّ واعتزت وسمت وتحررت وارتقت إلى ذروة الكمال.

ووصفه سبحانه: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدق بما في التوراة والإنجيل وكل الكتب المتقدمة عليه نزولاً، فإنها بشرت بالنبي محمد ﷺ وفيها أمهات المطالب من التوحيد والعدل واليوم الآخر.

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ولتنذر يا محمد! بهذا القرآن أهل مكة ومن حولها من بلاد الله الواسعة.

ولا إشكال أن الدعوة يجب أن تبتدىء بالأقرب إلى الداعي ثم تنطلق إلى غيرهم من الأمم والشعوب، وهكذا انطلقت الدعوة أولاً:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾(١) لأنها إذا استجاب لها الأقرب تداعى للاستجابة لها الأبعد ثم لأم القرى ومن حولها ثم للعالم أجمع.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

ومن ثمّ أيضاً كاتب النبي ﷺ كسرى وقيصر وملك الحبشة وغيرهم من ملوك العالم يدعوهم جميعاً إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فالرسالة الإسلامية رسالة عالمية تتخطى المكان التي نزلت فيه والزمان والأشخاص إلى كل الأمكنة والأزمنة والناس، وهذا واضح ظاهر من خلال تعاليم الإسلام أصولاً وفروعاً وأحكاماً وتشريعاً وأخلاقاً وآداباً وغير ذلك من التشريعات والأحكام التي تأخذ الإنسان بما هو إنسان موضوعاً لكل حكم وتشريع.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ والذين يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب لا بدّ وأن يؤمنوا بهذا القرآن لأنه يرسم لهم الطريق الناجح والموصل إلى ذلك الهدف العظيم. إن من يؤمن بالآخرة لا بد وأن يقرأ هذا القرآن ومن قرأه عرف صدقه وعرف أنه من عند الله فيؤمن به ويعتقد بأنه نزل من عند عزيز حكيم.

ثم ذكر سبحانه صفة وحيدة لهؤلاء المؤمنين اختصها من بين صفاتهم الكثيرة، وهي صفة المحافظة على صلاتهم من حيث يراعونها ذاتاً وشروطاً وموانعاً وأجزاءاً ومقدمات ووقتاً وأداء وغير ذلك.

وإنما خصّهم بها بالذكر لأنها الصلة بين العبد وربه ولأنها معراج المؤمن ولأنها إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رُدّ ما سواها وغير ذلك مما تحمله هذه الفريضة الإلهية.

---

(١) الشعراء/ ٢١٤. (٢) سبأ/ ٢٨.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هؤلاء ثلاثة أصناف بلغوا الذروة في الظلم. فالاستفهام للنفي وأنه ليس هناك أظلم منهم:

الأول: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ والافتراء على الله واسع كبير قد يكون افتراءً على الذات أو على الصفات أو يجعل له صاحبة أو ولداً أو كفواً ونداً ومنها أن يقول: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ كما قال اليهود في مقام إنكار إنزال وحي الله على نه محمد ﷺ وهلك يتعدد الافتراء.

الثاني: ﴿قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ فهو يدعي السفارة من قبل الله والنبوة كذباً وبهتاناً مع أنه لم يوح إليه ولم يرسل من قبل الله. إنه يتقلد أمراً وينتحله كذباً واحتيالاً بدون أن يكون له أساس أو رصيد، ويمكن أن يعمّم هذا المعنى لكل من جلس مجلساً أو احتل مقاماً ليس أهلاً له وليس هو من أربابه كمن يدعى نيابته عن الإمام المعصوم في عصر الغيبة وهو ليس أهلاً لذلك لقصوره وقلة بضاعته وعجزه وعدم لياقته لذلك المنصب.

وتنطبق هذه الآية على مسيلمة الكذّاب والأسود العنسي وسجاح الذين ادعوا نزول الوحي عليهم وهم كذبة دجالون لا نصيب لهم من شيء من وحي الله أو أمر النبوة.

الثالث: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهذا هو القسم الثالث الذي بلغ منتهى الظلم بحيث لم يعد هناك أظلم منه وهو ذلك الإنسان الذي وقف معارضاً للقرآن يدّعي القدرة بأنه يجاره وينظّم بياناً كبيانه وآيات كآياته. وقد قيل: إن الآية نزلت في النضر بن الحارث ومن معه من المستهزئين حيثو عارضوا القرآن بكلام سخيف، وكما يقصّ القرآن خبر بعضهم في قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾[1] إنه اعتداء وتجني وافتراء.

---

(١) الأنفال/ ٣١.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ هذا مشهد مما يناله ا. لظالمون من العذاب حيث إن مطلع الآية يتعرض لأظلم الناس الذين بلغوا في الظلم منتهاه، فهنا يستعرض سبحانه هذا المشهد الرهيب ببعض التفصيل حينما يحضر الموت ويسقط هذا الإنسان في شدائده ويعيش سكراته، لو ترى حينما يكون الظالمون في سكرات الموت وشدائده لرأيت أمراً عجيباً، وحذف جواب لو للتهويل والتعظيم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ سكرات الموت تأخذه دها والملائكة تمد أيديها متسلطة عليهم لقبض أرواحهم، تقول لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ والأمر هنا للتقريع والتعجيز أو كناية عن بلوغ منتهى الشدة في العذاب بحيث تأمرهم أن يتولوا هم بأنفسهم إزهاقها وإخراجها من أبدانهم.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ في هذا الوقت يبتدىء جزاؤكم وتظهر نتيجة أعمالكم إنه العذاب ـ المهين المذل.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ حيث كنتم تكذبون على الله فتنسبون له الولد والشريك أو تدّعون أنكم أنبياء ورسل من قبله وأنتم كذبة فجرة.

﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ كنتم لا تؤمنون بآيات الله وما أنزل على رسوله محمد من الوحي نتيجة عدم تأملكم فيها أو النظر إلى مضمونها استكباراً منكم وعلواً بل وعتواً.

قــال تــعــالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿فُرَادَىٰ﴾: لفظ جمع اختلف في مفرده، بعضهم قال: إن مفرده فردان، وقيل: فريد ولا ينصرف لأن فيه ألف التأنيث ومعناه واحداً واحداً.

﴿خَوَّلْنَاكُمْ﴾: أعطيناكم ومنحناكم، والتخويل: المنح والإعطاء.

﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾: خلفكم.

﴿شُفَعَاءَكُمُ﴾: من الشفع: وهو ضم الشيء إلى مثله، والشفيع: هو الذي ينضم إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه.

﴿زَعَمْتُمْ﴾: ادعيتم.

﴿تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾: تقطع: وصلكم وتشتت شملكم.

﴿وَضَلَّ﴾: ضاع وبطل وغاب.

التفسير

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هذا الخطاب وإن كان متوجهاً للظالمين والكفار، ولكن بوجه من الوجوه يصحّ أن ينطبق على كل إنسان مع حفظ النسبة بين فرد وآخر وخصوصاً صدر الآية التي تحكي واقع هذا الإنسان وعودته إلى الله.

لقد عُدتم إلينا واحداً واحداً كما خلقناكم من بطون أمهاتكم واحداً واحداً، لقد عدتم إلينا كل واحد بمفرده يحمل أثقاله وأعماله حسناته وسيئاته، كل واحد منكم يأتي ليحاسب على عمله إن كان حسناً أو قبيحاً أبداً لن يحاسب عنه غيره ولن يُستجوب عنه سواه، لقد جئتمونا حفاة عراة كما دخلتم الدنيا، نعم تأتون إلينا لا تحملون من متاع الدنيا وعقارها وزينتها شيئاً.

إن صدر هذه الآية تحكي مآل هذا الإنسان عند رحيله من الدنيا إنها بالقراءة الواعية لها والتفكر في مضمونها تحدث صدمة عند هذا الإنسان تعيد إليه شعوره بالمسؤولية لكي يصحح أوضاعه في الدنيا من أجل أن يأمن العذاب يوم القيامة. وأشهد بالله إني أقرأ هذه الآية مئات المرات وفي كل مرة كنت أقرأها فيها كنت أتصور العودة إلى الله عارياً من كل شيء قد تخليت عن الدنيا قهراً عني وتركتها ورائي وقدمتُ على الله للحساب فهزّني هذا المشهد واستجرت بالله من سوء المصير وطلبت منه العافية والستر والأمان. تخيّل هذا المشهد تصور نفسك قد خرجت من قبرك عارياً أو لابساً كفنك وحيداً فريداً تخلى عنك الناس جميعاً ولم يلتفت إليك منهم أحد، وحيداً أمام الله تحاكم عن كل نفس أو حركة أو موقف أو كلمة أو واجب أو حرام أو مستحب تُحاكم عن تبليغ الدين وعن دورك في نشره وحفظه تُحاسب عن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، محاكمة تطال حياتك كلها وعمرك الذي قضيته في دار الدنيا من أول يوم سقطت فيه من بطن أمك إلى اليوم الذي خرجت فيه روحك من بدنك لا شك أنها صورة مرعبة تستوجب من هذا الإنسان إعادة النظر في نفسه وعمله وتصحيح كل خطأ أو انحراف أو بُعدٍ عن الله.

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ما أعطيناكم في دار الدنيا وملكناه لكم أصبح خلفكم. لقد تركتموه كله في موقعه لقد تركتم المال والعقار والأهل والأولاد والعشيرة والأنصار والأعوان. لم تأخذوا معكم منه شيئاً القصور الفخمة بقيت في موقعها يتمتع بها غيركم والنساء هجرتكم وتزوجت بعدكم والأولاد والورثة أخذوا أسهمهم من الميراث ووزّعوه عليهم، وهكذا يتخلى الإنسان عن كل ممتلكاته بالموت وتصبح لغيره لا يقدر هو على الانتفاع بها أو التصرف فيها وهذا الإحساس بهذا الواقع يدفع الإنسان إلى أن يقدّم لنفسه منها ما يقدر عليه ولا يبخل بها على عباد الله وما يخفّف بها عنهم من العذابات.

إذا كان لا بدّ وأن نتخلى عن كل ما نملك ولا بدّ وأن نتركه وراءنا بعد الموت فلماذا لا نقدّمه أمامنا؟! لماذا نتركه لغيرنا يستفيد منه ونحرم منه أنفسنا؟ يجب أن نقدّمه أمامنا ونحوّله إلى نور وإلى ثمن للجنة نكتسبها به. . .

إذا كنت تخاف على الأولاد والأحفاد والورثة فاعتبر بنفسك واعلم أن الله الذي أعطاك ورزقك هو الذي يعطيهم ويرزقهم ولن يتخلى عنهم كما أنه لم يتخل عنك من قبل.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ وهذا من باب الازدراء لهم والاحتقار، يقال لهم أننا لا نرى معكم الأصنام والأوثان التي ادعيتم باطلاً وزوراً أنها شركاء لله في ربوبيته واستحقاق عبادته.

إن هذه الآلهة المصطنعة التي ادعيتموها شريكة لله قد تخلّت عنكم ولم نجد لها أثراً ينفعكم.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ لقد تقطع وصلكم وتشتت شملكم ولم يبق بينكم جامع يجمعكم أو أمر يربطكم، كنتم في الدنيا مربوطين بهذه الأصنام والآن انحل هذا الرباط وتخلت عنكم وقطعت علاقتها بكم.

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ لقد غاب عنكم ما كنتم تدّعون أنهم شفعاء لكم يدفعون عنكم الضر ويميطون الأذى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

اللغة

﴿فَالِقُ﴾: الفلق: الشق، وانفلق الصبح: إذا انشق.

﴿الْحَبِّ﴾: جمع الحبة: وهو كل ما لا يكون له نوى كالبر والشعير.

﴿وَالنَّوَىٰ﴾: جمع نواة: وهو ما تكون في التمر والزبيب.

﴿تُؤْفَكُونَ﴾: تصرفون.

﴿الْإِصْبَاحِ﴾: مصدر سمي به الصبح.

﴿سَكَنًا﴾: السكن: ما يسكن إليه الإنسان ويأنس به ويرتاح - من السكون - ضد الحركة.

﴿حُسْبَانًا﴾: الحساب والعدد.

﴿تَقْدِيرُ﴾: إعطاء الحق بالمكفاءة.

﴿الْعَزِيزِ﴾: الذي لا يغلب ولا يُقهر.

﴿النُّجُومَ﴾: الكواكب.

﴿الْبَرِّ﴾: البر: خلاف البحر وهو اليابسة.

﴿الْبَحْرِ﴾: في الأصل لكل ماء كثير ولو كان نهراً ثم استعمل في غيره.

﴿فَصَّلْنَا﴾: بيّنا وأوضحنا.

﴿أَنشَأَكُم﴾: أبدعكم وخلقكم ورباكم.

﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾: المستقر: موضع القرار ويقصد هنا الرحم.

﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: موضع الوديعة وهو الصلب.

﴿يَفْقَهُونَ﴾: الفقه: الفهم.

﴿نَبَاتَ﴾: ما تنبت الأرض من شجر أو نجم أو عشب.

﴿خَضِرًا﴾: نبتاً غضاً أخضراً.

﴿مُّتَرَاكِبًا﴾: أي بعضه فوق بعض كما في السنبل.

﴿النَّخْلِ﴾: وهي الشجرة المعروفة بطولها تحمل الرطب ويصبح بعد جفافه تمراً.

﴿طَلْعِهَا﴾: الطلع: أول ما يخرج من ثمر النخل قبل أن ينشق عنه الغلاف.

﴿قِنْوَانٌ﴾: جمع قنو، وهو العذِق: أي عنقود النخلة وهو بمنزلة عنقود العنب للكرمة.

﴿دَانِيَةٌ﴾: قريبة سهلة التناول.

﴿جَنَّٰتٍ﴾: جمع جنة وهي البستان الذي فيه أشجار وماء.

﴿أَعْنَابٍ﴾: واحده عنبة، والعنب: يقال لثمرة الكرم وللكرم نفسه.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ﴾: واحده زيتونة وهو شجر مثمر زيتي طويل البقاء يستخرج من حبوبه الزيت.

﴿وَٱلرُّمَّانَ﴾: واحده رمانة شجرة مثمرة وحباته ضمن قشرة تحفظه.

﴿مُشْتَبِهًا﴾: مشابهاً: أي مماثلاً.

﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾: الثمر: جني الشجر وعطاؤه.

﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾: نضجه وإدراكه.

التفسير

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ بعد أن ذكر سبحانه فيما تقدم أدلة التوحيد وما يثبت وحدانيته، ذكر هنا بعض عجائب صنعه وما يعجز عن خلقه والإتيان به أحد من البشر فضلاً عن الأصنام والأوثان الصامتة العاجزة التي لا تملك الدفاع عن نفسها لو أراد بها أحد الإضرار والإفساد.

إن الله سبحانه يستعرض أمامنا حالةً مُعاشةً لنا جميعاً، وكل منّا يراها مراراً وتكراراً، فالحبة اليابسة كحبة الحنطة والشعير، والنوى سواء كانت نواة تمر أو خوخ أو زيتون نرى كلاً منهما بأصنافهما تنشق هذه الحبة أو النواة ويتحرك ما في داخلها ويبتدىء بالنمو والحركة، وهكذا حتى يصبح زرعاً يستفيد منه الإنسان والحيوان أو شجرة ضخمة وارفة الظلال تصدح عليها الأطيار وتعطي أطيب الثمار. إن الله هو الذي شق هذه الحبة وهذه النواة وهو الذي سيّرها في طريق نموها حتى تبلغ ما تبلغه من العطاء.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ يُخرج سبحانه ما ينمو ويتحرك كالحيوان والشجرة من النطفة والنواة التي هي ميتة لا حياة فيها ولا حركة لها، وعن بعضهم يخرج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل، ويصح استعارته لهذا المعنى ولغيره من المعاني المشابهة له.

﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ يخرج النواة اليابسة والنطفة الميتة من الشجرة الخضراء والإنسان الحي المتحرك، وقيل أيضاً: يخرج الكافر من المؤمن والجاهل من العالم.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ الذي يبدع هذا الصنع ويقدر على هذا التكوين فيشق الحب والنوى ويخرج الحي من الميت والميت من الحي هو الله القادر العالم الحكيم البصير الذي ليس كمثله شيء ولا يقدر على فعله أحد.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فإلى أين تصرفون عنه وتذهبون إلى غيره ممن يعجز عن إدارة نفسه فضلاً عن إدارة غيره؟!

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ شق عمود الصبح وأظهر النور من بين الظلمات.

﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ والله بحكمته حوّل هذا الليل إلى وقت راحة تسكن فيه النفوس وترتاح الأجسام وتهدأ فيه الأعصاب، فيه يتجدّد النشاط ليؤدي الإنسان دوره في النهار وفي مشاغل الحياة.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وهو سبحانه الذي أجرى الشمس والقمر بتقدير دقيق وحساب مضبوط وانتظام لا فوضى فيه ولا اضطراب من أجل أن تجري الحياة بقواعد منتظمة تعود ثمرتها إلى منافع العباد ومصالحهم ويعرف بها عدد السنين والحساب والليل والنهار وفصول السنة وتقلبات الطقس ومتغيراتها.

وذلك كله بتقدير إلهي، هو العزيز الذي لا يُقهر والذي يفعل ما يريد دون أن يغلبه غالب العليم بمصالح العباد والبلاد.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هذه أيضاً واحدة من مخلوقات الله الكونية التي بها يُستدل على عظمة الله وحكمته وعلمه ودقة صنعه. إنها النجوم هذه الكواكب التي نراها تتلألأ بنورها في السماء فتزيدها جمالاً وتطفي عليها بهجة وسروراً.

خلق الله هذه النجوم من أجل أن يهتدي بها المسافرون في ظلمات البر والبحر. . إنها تهدي التائه وتعيّن الجهة التي يقصدها المسافر في الصحراء الواسعة والمفازات المخيفة وفي وسط البحار وأعماقها.

يذكر الله هنا بعض منافعها لأن المقام يقتضي ذلك وإن كان لها منافع كثيرة يعلمها الله تنعكس على أهل الأرض والنبات وتنظيم المنظومات التي هي ضمنها.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فصّل الله هذه الآيات وبيّن أسرارها الدالة على عظمته سبحانه لقوم يعلمون هذه الآيات ويفكرون فيها ويستفيدون من معرفتها.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ وهذه أيضاً واحدة من منن الله على هذا الإنسان، ومن عطاياه العظيمة أنه سبحانه خلق هذا الإنسان ورباه من نفس واحدة وهي آدم أبو البشر فإن إحساس الناس بوحدة الأصل تجعلهم يقتربون من بعضهم ويأتلفون بل يتوحّدون ويعيشون همومهم مشتركة وأحزانهم وسعادتهم واحدة.

وأمّا كلمتي ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ وإن كان معناهما اللغوي ظاهر «من حيث أن الاستقرار يعني السكون والثبوت. والمستودع يعني غير المستقر الذي أصله من ودع بمعنى الإعارة المؤقتة ثم ردها إلى أصحابها» مع ذلك وقع الخلاف في المراد من ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فذهب بعضهم إلى أنه سبحانه يريد من المستودع هي النطف في أصلاب الرجال. والمستودع كونها في أرحام الأمهات من حيث أنها تُنشأ ثم تخرج طفلاً وذهب بعضهم إلى أن المستقر هو في الرحم والمستودع في الأصلاب. وذهب ثالث إلى أن المراد بالمستقر إشارة إلى روح الإنسان الثابتة، والمستودع هو الجسد الإنساني الفاني، وهناك أقوال أخرى. .

وعن أهل البيت عليهم السلام «المستقر من استقر الإيمان في قلبه فلا ينزع منه أبداً. والمستودع الذي يستودع الإيمان زماناً ثم يُسلبه...» وهناك تفاسير أخرى لبعض المعاصرين وكلها اجتهادات في التطبيق دون الوصول إلى حقيقة المراد، وهذا كله من باب تطبيق المفهوم على مصاديقه وكلها يمكن أن تدخل تحت ذلك العام والله أعلم بمراده.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ قد بينا الآيات وأوضحناها والمقصود بالآيات: إمّا هذه الآيات الكونية التي من خلالها يستدل على عظمة الله وجلاله وقدرته ومننه وإحسانه.

وإمّا أن يقصد آيات القرآن، بيّنها الله سبحانه لقوم يفقهون الأمور أي يعلمون أسرارها ويدركون عمقها ومغزاها ويربطون بين الظواهر والبواطن وبين الأسباب والنتائج.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهذا أيضاً من الدلائل على عظيم قدرته وحكمته وتدبيره والذي يعطي النظر حقه لا بدّ وأن يتسلسل به النظر إلى وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته.

الله سبحانه هو الذي أنزل من السماء ـ جهة العلو ـ أو السحاب ـ لأنه فوقنا ـ ماء... وأمّا كيف يتكون الماء وكيف يصعد وكيف تتم عملية الإنزال فهي أعجوبة غريبة تكون بتقدير عزيز قدير حكيم؟!

وهذه المياه التي تتساقط من السماء وتسقط على الأرض اليابسة ـ فإن سقوطها يحرك الحياة في كل شيء فيه قابلية النمو والحياة. إنها الحياة تعود إلى الصحراء القاحلة الجرداء فتكتسي بسقوط الماء حلّة خضراء وتصبح كسجادة بديعة الصنع تعجز اليد البشرية عن رسمها أو الإتيان بمثلها، ثم من هذا النبات تخرج الأغصان الخضراء ومن الأغصان الخضراء تخرج الحبوب والثمرات.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من النبات التي يتساقط عليه الماء ﴿خَضِرًا﴾ أي

أغصاناً خُضراً تحركت فيها الحياة فاخضر لونها دليل نموها ودخول الحياة في مفاصلها وأجزائها.

﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ إشارة إلى أن هذا النبات الذي اخضرّ يتكامل وينمو ويكبر حتى يحمل حبوباً كنبات القمح الذي يحمل السنابل المتراصة المتلاحمة التي يركب بعضها فوق بعض ويعلو بعضها البعض وكذلك نبات الشعير والأرز والسلق وغيرها مما يشاكلها ويشابهها.

وإنّ نظرة سريعة إلى تركيبة حبات القمح في السنابل تعيدك إلى الله وتستشعر قهراً عنك عظمة هذا الرب الحكيم العليم كيف يتم ترتيبها ضمن أغلفة كل حبة تكسوها قشرة منفصلة عن أختها وتركّب فوقها في تنسيق بديع فسبحان الله من قدير عليم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ وهو سبحانه الذي يخرج من النخل من طلعها ـ والطلع أول ما يخرج من الثمر في الأكمام ـ عناقيد متدلية سهلة التناول. وذكر سبحانه ﴿دَانِيَةٌ﴾ القريبة لأنها أكثر في الامتنان وأظهر للقدرة.

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ وأخرجنا من الماء جنات، بساتين كثيرة من الأعناب بما في العنب من مناظر جميلة حيث الحبات التي جُمعت بقدرة الله على أشكال مختلفة في صورة بديعة مع اختلاف ألوان العنب وحجمه وطعمه فسبحان الله من مقتدر عليم حكيم.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ كذلك أخرجها الله من الماء وبواسطته، وخص هذه الأصناف لتداولها عندهم ووجودها الكثير الذي يكفي فيه مجرد التذكير وإلفات النظر.

﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ يمكن إرجاعه إلى خصوص الزيتون والرمان ويمكن رجوعه إلى جميع ما تقدم، فإن كل ما تقدم يشبه بعضه في الأشكال أو الألوان أو الطعم أو غيرها وقد يختلف في أمور أخرى، فهناك جهات تشابه وهناك جهات افتراق.

﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ انظروا نظرة فكر وتأمل إلى ثمره منذ أول تكوينه وانعقاده إلى أن ينضج ويصبح صالحاً للأكل، فكّروا في تطور حركته وانتقاله من طور إلى طور ومن حال إلى حال ومن مرحلة إلى مرحلة كيف ينعقد صغيراً ثم يكبر وكيف يكون في طعم ثم يتحوّل إلى آخر وقد يكون في لون ثم يتلوّن بلون آخر ويكفي أن تمرّ في ثمرة النخل لتعرف التحولات التي تجري عليها من نقطة بيضاء صغيرة إلى قطعة خضراء ثم صفراء ثم تبدأ بالتلوّن وتأخذ اللون الطبيعي لها وهكذا.

تأملوا في كل ثمرة كيف تختلف طعماً عن أخرى مع أنها قد تنشأ في نفس التربة وتسقى من نفس الماء ثم ألا يكشف هذا عن وجود إله حكيم عليم قدير هو الذي وضع قوانين الحياة ورسم لهذا الإنسان طريق نجاته في الدنيا والآخرة ومن هنا أتى تعقيب الآية بقوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيما مرّ من أدلة وحجج وما خلق الله من آيات كونية إذا فكّر الإنسان فيها بتجرد لا بدّ وأن يؤمن بالله وعلمه وحكمته وقدرته ولا بدّ وأن يؤمن بأنبيائه ورسله الذين ينقلون مراداته ويبلغون كلامه.

الفهرس